يحيى صفوت

رُبما

دفتر ناعُوت

رواية

دار العين للنشر

لا تستمع إليه، فهو سيقتلك بكلماته.

II

ساحر الكتب

إهداء

إلى من يسأل كيف ولماذا وإلى متى، إلى من يريد أن يعرف سبب الآلام التي ملأت الدنيا، أسئلتك جميعها لها إجابة واحدة، قد تبدو ناقصة لكنها تصف الكون بأكمله...

«ربما»

أي تشابه في الأسماء هو من محض الصدفة ولا يمتُّ للواقع بصلة.

هــو

"وهكذا سيادة القاضي، حضرات المستشارين، استنادًا لما تم عرضه من براهين وما استجد من أدلة، فأنا أطالب... بإعدام موكلي".

***

القاهرة 1975 – سجن القناطر الخيرية...

كان المحامي طويل القامة عريض المنكبين يمد الخطى بين أروقة السجن، يقوده أمين شرطة وحارس عملاق، إلى زنزانة سجين متهم بقتل شريك له في مخبزه. خطواته متباطئة، يملؤها التردد والفتور، يقتلان ما بقي بداخله من حماس لأول قضية كبيرة يكلف بها، فهو يرفض بكل كيانه الدفاع عن قاتل سلب حياةً لم يكن مُقدَّرًا لها الرحيل.

في إحدى ردهات المتاهة الساحقة للآدمية، توقف... وأنصت. هناك صوت ينساب بين جدران السجن القاسية، نقي، قوي، مؤلم. نغمة حزينة، جعلت قلبه يرتجف. التفت للأمين الذي فسر له:

- المجنون اللي إنت رايح له.. ده صوته.

أشار له الأمين كي يكمل طريقه، لكن المحامي رفع له إبهامه كي يتوقف عن الحركة. أغمض عينيه كي يمعن الإنصات للكلمات، يحاول استشفاف ما يقول الغناء الحزين.

"يأتيك القدر ببشرى أن موعدك بعد حين

بعد لحظة.. بعد يوم.. أو بضع سنين

لكني سأرحمك من الحيرة.. من جحيم الاختيار

سآخذ بيدك إلى الجنة.. وأذهب بنفسي إلى النار"

أطرق المحامي في خشوع وهو يستمع للأبيات التي يكررها السجين بصوت رخيم متهدج وإحساس طاغٍ، تتردد بين ضلوع جحيم الندم الذي كان يسير فيه. وفي اللحظة التي توقف فيها الغناء، أشار المحامي للأمين أن يتقدمه.

بلغا الزنزانة. وقف المحامي الشاب أمامها، يحدق بالسجين الجالس على فراشه في سكون، شاردًا في الأرض الخرسانية. فتح الحارس الضخم باب الزنزانة بشعة الرائحة، بعد أن أبرز أمين الشرطة له التصريح. دخل المحامي، يقدم قدمًا ويؤخر الأخرى، وجلس على الكرسي الخشبي المقابل لسرير السجين. في الإضاءة الضعيفة القادمة من شباك ضئيل أعلى الجدار المواجه للباب، استطاع أن يرى يديه المكبلتين بقيد جلدي قصير.

تأمل المحامي السجين للحظات، بينما لم يغير الأخير من وضعه. كان ضخمًا في وقت ما، لكنه الآن جلد على عظم، ضخم الجمجمة والأطراف بطريقة مرعبة.

كيف خرج ذلك الصوت الرخيم والإحساس الطاغي من هذا المسخ؟

هكذا تساءل المحامي قبل أن يفتح حقيبته. تصفح على عجالة

أوراق القضية التي قد تم البت فيها بالفعل، وحُكم على المتهم بالسجن مدى الحياة، ثم هز رأسه في حيرة. لا يزال لا يرى فيها ثغرات يمكنه أن يستغلها في الدفاع عن المجرم، لكنه هنا بناءً على طلبه استئناف الحكم. قَبِل مدير مكتب المحاماة بسهولة، وبدون تقاضي أتعاب، فهي قضية رأي عام، مجرد اقتران اسم مكتبه بها سيجلب له دعاية مجانية لا تقدر بمال. هذا بالإضافة إلى أنها قضية محسومة، فلن يسوء موقف المتهم أكثر مما هو عليه، بل هي فرصة تتيح للمحامي الشاب التدريب العملي الذي يحتاجه ليتناول قضايا بذلك الحجم.

كل هذه التفاصيل تضاءلت أهميتها بعد سماعه للغناء الحزين. هذا التناقض المؤلم. ففي مكان كهذا، مكان لا يعرف سوى القسوة، من يصنع لحنًا وينسج كلمات بهذه البراعة وهذا الصدق، لهو شخص جدير بالاهتمام.

دون أن يرفع عينيه عن الملف، سأل المحامي السجين:

- ممكن أعرف إيه الجديد اللي هنبني عليه طلب الاستئناف؟

- أنا مش عايزك تخفف الحكم.

تسمرت يد المحامي الممسكة بملف القضية ونظر إلى موكله.

- إنت مش طلبت من مكتبنا تمثيلك؟

وللمرة الأولى رفع السجين رأسه لينظر للسماء التي اختزلها الشباك في مربع أزرق بحجم كف اليد.

- مش علشان آخد براءة ولا تخفيف، أنا عارف إني عمري ما هطلع من هنا.

- أومال عايز إيه؟

قالها المحامي وهو يضع أوراق القضية في الحقيبة، فأخذ السجين نَفَسًا عميقًا والتفت لينظر للمحامي قائلًا:

- إعدام.

تبادل المحامي مع موكله نظرة طويلة قبل أن يقول:

- ليه؟

ظل السجين محدقًا بوجه المحامي بعينين مغرورقتين بالدموع للحظة، قبل أن يغلقهما ويستشعر نغمة غير مسموعة قائلًا:

- سامع؟

قطّب المحامي حاجبيه وأنصت للحظة، قبل أن يستطرد السجين:

- سامع صدى كلماتي؟ سامع النغمة الكئيبة اللي بتهز حيطان السجن. البكا اللي من غير صوت. الندم.. الحسرة.. الغضب.. الرغبة في الخلاص. موسيقى اليأس اللي بتحرق صدورنا في كل لحظة.

أطرق المحامي تاركًا السجين يستطرد.

- أنا مش هقدر أستحمل أكتر من كدا. عايز أموت وأخلص. حبس انفرادي. كوابيس مش رحماني ليل ونهار. أهلي تخلوا عني. هفضل أتعذب سنين طويلة علشان في الآخر أموت وأترمي في نار جهنم.

تقدر تقولّي ليه كل ده؟

رفع يديه المقيدتين بقيد جلدي قصير يمنعه من الحركة بحرية.

- شوف عاملين فيَّا إيه؟ علشان يمنعوني من الانتحار. عايزين يحرموني حتى من تخليص نفسي من العذاب.

ثم صرخ بأعلى صوته وهو يهب في اتجاه الأمين، لكن القيود التي تربطه بالفراش المعدني منعته:

- كفاية! سيبوني بقى! سيبوني أريحكم وأريَّح الدنيا مني!

عاد بعدها ليجلس في استسلام مؤلم قائلًا:

- وقبل ما تسأل، أنا طلبت محامي علشان عايز حد يدافع عني، حد في صفي مش ضدي. أنا بسعى للخلاص، مش للعقاب.

***

احتار أمين الشرطة في وصف رد فعل المحامي، إذ قال إن عينيْه قد لمعتا ببريق عجيب، كأنه صُدم بما سمعه، لكنها في الوقت نفسه كانت لمعة... إعجاب.

في الأسابيع التالية، تكررت زيارة المحامي للسجين نفسه. لم يدرِ أحد ما تم في تلك اللقاءات، بعد أن طالب المحامي بحق موكله في السرية والخصوصية المكفولة له مع هيئة الدفاع عنه، وحين جاء موعد جلسة الاستئناف، فوجئ القاضي بمحامي المتهم ينادي بمطلبه الأغرب في تاريخ القضاء: إعدام موكله.

بالطبع قوبل الطلب بالرفض، لكنه لم يمنع المحامي من تقديم المتهم للشهادة، وحين جلس الأخير على كرسي الاستجواب، وصف مشهد القتل بكل تفاصيله الوحشية، أمام هيئة المحكمة، وممثل النيابة، الذي كان صامتًا مصدومًا من انقلاب الأدوار.

ثم فاجأهم السجين باعترافه بقتل شريكه الآخر، التهمة التي كان قد بُرِّئ منها، فلم يجد القاضي بُدًّا من توجيه الاتهام له بقتل الشريك الآخر، طريقه الوحيد للإعدام.

وكان اليوم الذي تم تنفيذ الحكم فيه لا يُنسى.

سار السجين مبتسمًا، يكاد يطير من فوق الأرض، عيناه ممتلئتان بدموع لم يستطع أحد تحديد إن كانت دموع فرح أم حزن.

تبادل مع محاميه – الذي كان جالسًا في الصف الأول – نظرة طويلة وهم يُحكمون حبل المشنقة حول رقبته، كلاهما دامع، مبتسم في فخر، كأن ما يحدث أكبر نصر في حياة كليهما.

وجاءت الكلمة الأخيرة "للسجين صفر"، لترن في قاعة الإعدام وتظل تصدي.. لأعوام، كلمات نشرتها الصحف عن لسانه.

- أنا الآن حُرٌّ... وأنتم السجناء.

الفرد منكم سيظل وحيدًا مهما كان حوله من زحام، سيظل خائفًا مهما امتلأت خزائنه وارتفعت أسوار قصوره.

ستظلون سجناء الأمل وأنا... أنا الآن حُرٌّ طليق.

ماذا تنتظرون؟ أطلقوا سراحي! أحكموا الحبل حول رقبتي! لا أريد

بابًا مواربًا.. لا أريد أن أتعلق بأمل جديد.

كتب الصحفي الذي نقل الخبر أن السجين قد صمت للحظة وأطرق، ثم قال:

- لديَّ رسالة للدنيا، انقلوها عني. أخبروا الدنيا أنها قد ظلمتني. لقد قتلتهم دفاعًا عن حقي. أخبروها أنني لن أسامح.

أتسمعونني؟؟ سأرحل دون أن أسامح أحدًا منكم!!

ثم نظر للمحامي لينهي كلامه:

- وأنت... اجعلهم يفهمون. وإن لم يريدوا... اعزفها لهم سيمفونية ترج أنحاء الدنيا.

هكذا أنهى كلامه، ثم فتح مُنفِّذ الأحكام الباب السحري أسفل قدمه بناءً على أوامر المأمور، ليقع وتنكسر رقبته.

انتهت قصة "السجين صفر". لكن الحكاية نفسها لم تنتهِ، بل كانت في بدايتها، وتدريجيًا، بدأ بطلها الحقيقي يتضح. الشخص الوحيد الذي تقدم ليتحسس خشب المنصة التي تدلى فوقها جسد السجين هامدًا. ابتسم وهمس بشيء ما... ثم غادر.

توالت بعدها قضايا مشابهة، طلبات استئناف قدمها المحامي ذاته نيابة عن مساجين يواجهون عقوبة بالسجن المؤبد. في كل مرة كان يقدم ما ينفي أي احتمال لبراءة المتهم أو تبرير لجريمته. عشرات القضايا لم تتوقف إلا بعد تعديل القانون، ورفض الدعوى إذا جاءت بهذا الشكل. والأهم من هذا هو منح القاضي الحرية في

طرد المحامي – أو حبسه لو اقتضى الأمر – إن ثَبَتَ تواطؤه ضد مصلحة المتهم، حتى لو كان بإرادة الأخير.

اهتم الرأي العام بالمتهمين، خصوصًا وأن آخر سجين – الذي رُفضت دعواه – وجدوه بعدها بأيام مقتولًا داخل زنزانته. نسيَ الجميع المحامي الذي كان عاملًا مشتركًا في كل تلك الدعاوي، لعدم وجود أي صلة أو دافع يربطه بهم. وحين تولى جهاز أمن الدولة التحقيق في تلك الظاهرة، وتتبع الخيوط، انتهوا عند النقطة التي بدأت فيها هذه القصة: المحامي. لكنه كان قد اختفى... تلاشى كأنه لم يكن، دون أن يترك وراءه أثرًا...

سوى...

القاهرة 2020...

*

غرفة مربعة باردة، خافتة الإضاءة، لا تتعدى الأمتار العشرة، بها من العجائب ما تسبب في حيرة وزارة الداخلية المصرية، وبضع دول أخرى طيلة العامين السابقين. غرفة في الطابق الأخير بمديرية أمن القاهرة مكتوب على بابها "عازف الأقدار"، تم تخصيصها كمتحف صغير يعرض أدلة وأدوات متعلقة بأكثر القتلة شَرًّا. المجنون الذي ارتكب مذبحة محطة مصر وغيرها على مدار نصف قرن، جرائم مرعبة ارتكبها تحت مسمى الرحمة.

غرفة بها بيانو قديم كان يعزف بدون عازف... ميكرفون معدني معطوب تكلم من تلقاء نفسه... جهاز تنفس متهالك كان ينقبض ويتمدد دون أن يتصل بمريض أو حتى بمصدر طاقة... مانيكان خشبية أحرقت نفسها. أشـياء احتـل كلٌّ منها مكانه الخاص تحت إضاءة مكرسة له.

غرفة بها ركن مظلم، مهما خصصوا له من إضاءة يظل دامسًا مقبضًا، يحتوي على أدوات جراحية ومعدات استخدمها المايسترو في تعذيب ضحاياه، وفي التنكر وتنفيذ خططه. أجهزة كمبيوتر، عدة كهربائية، مساحيق، أزياء رسمية وغير رسمية، كتب وموسوعات... وغيرها الكثير.

خارج الغرفة وقف عسكري جاحظ العينين. يرتعش كورقة في مهب الريح وحواسه كلها منتبهة لذلك الصوت الخافت الذي يسمعه منذ الصباح. من الذي تسلل إلى الغرفة تحت سمعه وبصره ويعبث

الآن بمحتوياتها؟ كأن هناك شيئًا حادًا يحك سطحًا خشبيًا أو ورقًا مُقوّى. لم يتمكن من تجاهل الأمر أكثر من هذا، فلو حدث شيء لمحتويات الغرفة لطارت رقبته. هكذا اضطر أن يلتفت ليفتح الباب.

وكان أول ما وقعت عليه عيناه، في منتصف الغرفة تمامًا، وتحت ضوء كشاف قوي يسقط فوقه مباشرةً، عمود قصير يربض فوقه صندوق زجاجي. في الصندوق يستقر دفتر مميز على وسادة ناعمة حمراء، أهم محتويات الغرفة.

"دفتر ناعوت"، الخيط الأقوى الذي يصل بين عالم المايسترو وعالم البشر. دفتر به الأثر الوحيد الذي تركه لنا عازف الأقدار، بعد أن فشل الجميع في الكتابة فيه سواه. على العمود، أسفل الدفتر، تلتصق ورقة عليها رسمة كروكي لوجه طويل وملامح وسيمة: وجه المايسترو كما وصفته العجوز العمياء.

حدق العسكري بالدفتر، هذه الحركة الخافتة، هي قادمة منه بكل تأكيد.

ثم جفل حين... انقلبت الصفحة... شيء ما حركها.

بأقدام مرتعشة، اقترب منه.

وما إن قرأ المكتوب في الصفحة حتى ابيضّ وجهه.

لقد شطب أحدهم فوق ما تركه لنا عازف الأقدار، شطب كلمات بعينها بعد أن فشلت جميع المحاولات في الكتابة أو التعديل في الدفتر...

"يأتيك القدر ببشرى أن موعدك بعد حين

بعد لحظة.. بعد يوم.. أو بضع سنين

لكني سأرحمك من الحيرة.. من جحيم الاختيار

سآخذ بيدك إلى الجنة.. وأذهب بنفسي إلى النار"

سليم

يقولون إنك لو نظرت لنفسك في المرآة مدة كافية... لسألتك صورتك عما بك.

***

الذكريات الضبابية تتكون في أذهاننا في اللحظات التي تفصل النوم عن اليقظة، تلك التي تقف فيها على الأعتاب بين العالمين، تقاوم الغفوة وتهرب من الاستفاقة. كنت في أحد تلك الأوقات، أسيرُ مسلوب الإرادة.. أسيرَ نداءٍ خفي.. صياح مُدوٍّ لا يسمعه سواي.

الزمن كان يتباطأ من حولي. صعدت السلالم العريضة لعمارة ثمانينية بمصر الجديدة، في حالة سريالية من الاستشعار، كأنني منتشٍ بمخدرٍ ما، يجعل حواسي المادية تنكمش في خشوع، تاركة العرش والتاج للثنائي الأقوى: العقل والقلب.

أستشعرت بأطراف أناملي... ملمس إفريز السلم البارد، وحنين النسمات فوق جلدي. تجاهلت عيون السكان الفضولية، والجيران المتطفلين. تجاهلت همساتهم ولمزاتهم وهم يشيرون إليّ.. متعجبين.

هل هذا هو الطبيب العبقري الذي يستطيع حل أغرب القضايا مثل شارلوك هولمز؟ هل ذو الملابس البسيطة هذا، والمكونة من بدلة كتّان رمادية فضفاضة، هو "مستر جراي"؟ هل هذا ذو النظارة عديمة العدسات واللحية الشعثاء والشارب الذي يشبه شارب هتلر، هو

المغامر الذي يسافر في رحلات غامضة ليطارد إجابة أخطر الأسئلة؟

تجاهلت نظراتهم وتساؤلاتهم التي أقرؤها واضحة على ملامحهم. حتى تلك الأشياء التي تسقط حولي، في طرف رؤيتي، تلك التي تجعلني أبدو كالمجاذيب حين أنظر إليها وتتوه نظرتي بينها، تغاضيت عنها وتفاديت النظر إليها.

لم أكن أشعر ولم أهتم بكل هذا، فقد جئت تلبية لهذا النداء الخفي، هذا الأنين الخافت الذي كنت أسمعه في تلك اللحظة، والذي يأتيني من أعلى. جئت بعد أن توقفت عن تناول المهدئات، كي تستيقظ روحي من غفوتها الآمنة، وتستقبل تلك الرسائل المؤلمة كطعنات الخناجر.

حتى الظمأ الذي كان يتملكني كعادته في تلك اللحظات، العطش الذي يكاد يُهلكني، لم يعد يخيفني. فبعد ما مررت به في مقهى الخمسة وعشرين، ذلك المكان العجيب الذي لا ينتهي فيه اليوم بانتهاء الساعة الرابعة والعشرين، عرفت أنه عَرَض جانبي لاقترابي من عالم آخر، لوقوفي على حافة لم يكن لبشرى أن يعتليها.

عند وصولي الطابق الثالث، أوقفني أمين شرطة دائري التضاريس. وجهه، خصره، حتى أصابعه، كلها منفوخة مثل رمز إحدى شركات إطارات السيارات الشهيرة. زمجر من خلف شاربه الشديد السواد:

- وَقَّف عندك، الشقة دي مسرح جريمة.

- داخل للرائد حِجِّي.

لديه حق لاعتراضي بالطبع، ليس بسبب مظهري فقط، فكما قال الرائد حِجّي باشا – والذي لا أصدق حتى الآن أن هذا اسم عائلته فعلًا – أن جريمة قتل مزدوجة حدثت في هذه الشقة. شيخ وزوجته، كلاهما فوق الثمانين عامًا، اشتم الجيران رائحة جسديهما، فأبلغوا الشرطة. فجاءوا ليجدوهما مقتلوين خنقًا.

ظروف غامضة تحيط بالقضية، إذ ليس هناك أعداء للزوجين، ولا توجد آثار اقتحام، ولم يسرق أحد شيئًا رغم وجود تحف ومصوغات ثمينة. وبما أن حِجّي قد صار من أشد المؤمنين بي كمترجم لخوارق الطبيعة، والتي انتشرت بكثرة مؤخرًا، فقد أصبح لا يمر شهر دون أن يطلب مني المساعدة في قضايا مماثلة.

كان يقول لرؤسائه، وللصحافة، إنه يطلبني في القضايا المعقدة التي لا تفسير منطقيًا لها لأنه مؤمن بأن عقلي يعمل على "موجة" مختلفة عن بقية البشر. لكنه اعترف لي إن السبب الحقيقي في طلبه مساعدتي هو عامل مشترك، حين يراه، يتصل بي على الفور. ظِلّ يراه على الحائط في مسرح الجريمة، خيال لجناحين. ظهر للمرَّة الأولى في محطة مصر بعد الانفجار الذي كدت أن ألقي حتفي فيه، لولا أن أنقذني ميكروفون قديم معطوب من المذبحة التي خطط لها عازف الأقدار وأودت بحياة العشرات.

تكررت رؤية الظل بعدها في أكثر من مسرح جريمة. وبعد أن كنت المتهم الأول في حادث محطة مصر، صار حِجّي يستدعيني كلما يظهر لأساعده في حل اللغز.

مصادفة صعبة التصديق، عنصر جديد انضم للوحة الغامضة التي أقف في منتصفها مع المايسترو. لكن بما أن تلك القضايا كانت الخيط الوحيد الذي يصلني بهدفي، فكنت أستجيب لحجي كي لا أضيع فرصة تتيح لي التواصل مع الجمادات التي تدب فيها الحياة. أصبحتُ مهووسًا بتلك الرسائل المستترة، والأحاسيس التي تنبعث من الأشياء، بعد أن امتصت آلام البشر من حولها. أخرُج بعدها مثقلًا بحمل إضافي، كأن الجماد قد ألقى بما كان ينوء به فوق كتفي وتخلص منه. تصير الذكرى ملكي أنا، يصير الألم عبئي أنا. لكنني موقن أنني سأجد الإجابة التي أسعى إليها من خلالها... حقيقة الوعي وسره.

مصير شقيقي بعد أن فنيَ جسده.

أفسح لي أمين الشرطة كي أدلف إلى الشقة، لينقبض صدري لحظة دخولي. هناك حتمًا غمامة تظلل المكان، غيوم لا تحجب النور، بل تحجب السعادة. ضوء الأصيل الذي ينساب من بين الستائر العتيقة يجعل الغبار العالق في الهواء يتمايل، كأننا في إحدى اللوحات السريالية. الأثاث الهائل الحجم المصنوع من الخشب الأرو. الأركان والحوائط وأسطح الطاولات والبوفيهات مكدس فوقها تحف وأنتيكات، منها الثمين، ومنها ما لا قيمة له سوى ذكرى ما.

المكان مزدحم بالأشياء، لكنه في نظري خالٍ... خاوٍ كوعاء هائل ترتد الأصوات على جدرانه.

تفاديت النظر في المرايا المعتمة التي تربض فوق البوفيه، كعادتي،

كي لا أرى حقيقتي الهشة. كنت أتفادى الأسطح العاكسة كمن يخشى النظر لساقه المبتورة، يخشى أن يشعر بها، ندبة أخرى تزين وجه مستر جراي الممتلئ بالعيوب.

لمحت رجلًا أربعينيًا بدينًا يجلس منهارًا على إحدى الأرائك، وجهه مكفهر من شدة البكاء، يرطن بأسئلة مؤلمة عمن يفعل هذا بأبويه المسنَّين. يربت نقيب شرطة على ساقه مشجعًا، قبل أن يلتفت ليومئ لي محييًا، فبادلته التحية بإيماءة مماثلة.

في اللحظة نفسها لمحت الرائد حِجّي يقف أمام جدار، بجسده الهزيل ووجهه المثلث الرفيع الذي يزينه شارب. يرتدي قميصًا أصفر، وبنطلون شارلستون بني اللون، في تشكيلة جهنمية من الألوان ينأى عنها الجنس البشري. وضع يديه في جنبيه متأملًا ذلك الظل المطبوع على الحائط، كأن هناك جناحين عملاقين اعترضا الطريق على شعاع ضوئي حارق. غمغم حِجّي بكلمات لم يسمعها غيره، بينما ترقد أمامه جثتان هامدتان تحت ملاءتين:

- كارثة.. كارثة.

هكذا سمعته قبل أن يلاحظ وجودي ويلتفت إليّ مرحّبًا وهو يشير للظل. أومأت له بكل حزم أني أراه ليصمت بعد أن التقطت أذناي شيئًا. تسمر مكانه وقد عدت إلى حالة الاستشعار العالية، وأشار لرجال الشرطة والبحث الجنائي – الذين اعتادوا رؤيتي مؤخرًا – أن يخفضوا الضوضاء ويتركوني أسير بينهم بكل حرية.

تجرأت على المكان. الكل في نظري كانوا يتحركون بالتصوير

البطيء وهم يرفعون البصمات، ويجمعون الأدلة بأقل ضوضاء ممكنة. ينفضون الغبار، يدققون النظر بعدسات وأجهزة تنير بالأخضر الفوسفوري، يبحثون فوق الأسطح، ويتركون لي ما أسفلها.

مرت دقائق طويلة وأنا أجول ببصري في الشقة، منعزلًا عن الماديات، ومنغمسًا في الموجودات. لاحظت الصور العائلية التي تراصت فوق كل الأسطح، وملأت الصالة، للأب والأم والابن في مراحل عمرية مختلفة، وفي أماكن شتى، كأنها نوافذ يراقبوننا منها. اقتربت منها ودققت النظر بها... ورأيت ما لم يَرَه غيري.

تجاهلت نظرات الحيرة التي تبادلها رجال البحث الجنائي، وتركت نفسي ألتحم مع المكان، كالمُسَيَّر الهائم على وجهه. ضبطت نبضي مع إيقاعه الخافت، ثم أغلقت عينيَّ بقوة وأنا أتحسس زخارف الأثاث البني العتيق، وسمحت لتلك "الآهة" الحارقة - التي كنت أسمع صداها يكاد يتلاشى - أن تقودني إلى مصدرها. جلست القرفصاء، ويدي تداعب نتوءات "البوفيه" العملاق، قبل أن أفتحه دون أن أفتح عيني. تحسست الأوراق المكدسة بالداخل، تخللتها بأناملي، حتى شعرت بشيء مختلف. فتحت عيني لأرى كاميرا عتيقة، التقطتها من حزامها بأطراف أصابعي، ونهضت واقفًا.

- الكاميرا؟

هكذا سألني حِجِّي الذي جاء ليقف بجانبي. رمقته بطرف عيني قبل أن أغمضها. أمسكت بحزام الكاميرا وأحكمت قبضتيَّ عليه، ثم جذبته لأفرده بيديَّ بقوة. وأنْصَتّ... لوهلة.

فتحت عينيَّ بغتة وانحنيت على حِجِّي لأهمس، متعمدًا أن تلتقي نظراتي مع ابن الفقيدين. برقت عينا الأخير بتعبير فهمته على الفور. همس حِجِّي لي بأنه لا يسمع ما أقول فحدجته بنظرة نارية كي يفهم ثم أعطيته الكاميرا. استمررت في الهمس، ثم لاح مني شبح ابتسامة نصر حين نهض الابن واتجه للباب. هنا تأكدت مما توصلت إليه.. همست في أذن حِجِّي بكلمة سمعها جيدًا فالتفت بسرعة البرق هاتفًا.

- وَقَّف عندك! امسكوه!

انتظر حِجِّي حتى تمكن رجال الشرطة من الابن القاتل، وعاد إليَّ ليسألني بكل فضول:

- ازاي؟ عرفت ازاي؟

أشرت للصور المنتشرة في المكان بطريقة مبالغ فيها، كأن أهل البيت لا يريدون رؤية جدرانهم خاوية مثل حياتهم. حاول حجي استنباط ما أقصده، لكنه يئس بسرعة وسألني عن الغريب فيها.

- محدش مبتسم.

هكذا أجبته وأنا أسير في اتجاه الباب عابرًا فوق جسد الابن المكبل بالأغلال. أخذ يسبني ويتهمني بالتواطؤ مع أبويه والعالم بأكمله، لحرمانه من الشقة والميراث الذي طال انتظاره لهم، حقه الذي قررت الدنيا منعه عنه. التفتُّ حين وصلت لباب الشقة واستدرت مشيرًا للكاميرا:

- خنقهم بحزام الكاميرا... اللي كان بيصورهم بيها.

هبط الصمت على المكان من هول ما قلته، والتقت النظرات على الابن المجرم الذي ابتلع لسانه وسكنت حركته، يريدون حرقه بأعينهم. أومأت لحجي بالتحية، قبل أن أنظر للحائط لأجد ذلك الظل الذي كان مرسومًا عليه قبل ثوانٍ وقد اختفى. عندها عرفت أن دوري انتهى، فاستدرت لأغادر.

***

- امسك.. امسك.

هكذا هتفت بي نهلة وأنا على شفا الانهيار، بعد أن فتحت باب السيارة لألقي بنفسي على الكرسي بجوارها، باحثًا حولي كالمجذوب عن علبة الدواء المهدئ. أنقذتني كعادتها.. مدت لي يدها بالعلبة فالتقطتها كالمدمن، وفتحتها منقطع الأنفاس لآخذ منها قرصًا.. ثم قرصًا آخر.

- مش بالعدد يا سليم. حباية واحدة كفاية. إديله فرصة يشتغل.

أعطتني بعدها زجاجة مياه فتجرعت ما بها بنهم، وأسندت رأسي على مسند الكرسي مغمض العينين. انتظرت نهلة حتى التقطت أنفاسي، وسيطرت على حالة الذعر التي كادت أن تنتابني قبل أن تقول:

- لقيته؟

- لقيت مين؟

سألتها دون أن أفتح عيني.

- المايسترو.

- لأ.

- أومّال لقيت إيه؟

فتحت عيني لأنظر لوجهها الدائري الممتلئ، وعينيها دائمة الجحوظ أسفل نظارتها... ما زالت لا تتقن وضع مساحيق التجميل، لكن ملامحها حقيقية... أصيلة.

- لقيت كاميرا بتسرق الابتسامات.

تجمدت ملامحها بغير فهم، فرويت لها.

***

- يعني الكاميرا هي اللي فضحت الابن؟

- اختزنت كمية حزن وقهر من أبوه وأمه لغاية ما طفح بها الكيل.

قلتها وأنا أحاول نفض تلك الأحاسيس المؤلمة، كمن ينفض الثعابين الملتفة حول رقبته. رمقتني من خلف نظارتها السميكة، وترددت للحظة قبل أن تقول:

- إزاي يا سليم؟ بتحس بالحاجات دي إزاي؟ مش قادرة أصدق التغيير الرهيب اللي بيحصلّك لما بتمنع المهدئات. أومال لو قعدت شهور من غيرها هتشوف إيه؟

نزعت نظارتي عديمة العدسات لأجيبها:

- مش بس الإحساس هو اللي دلني، العقل والمنطق بيقولوا إن

الوحيد اللي مش محتاج يقتحم ولا يسرق هو الابن، هيورث كل حاجة منهم في النهاية.

- إوعك تستخف بيَّا. العقل لوحده مستحيل يدلك على الحل بالسرعة دي.

كم كنت أود أن أصارح زميلتي وصديقة الدراسة الوحيدة بما رأيته حين أقلعت عن المهدئات لشهور، أو بمعنى أدق مُنِعت عنها، عندما كنت محبوسًا قيد التحقيق. تقافزت أمام عيني تفاصيل الليلة التي جلست فيها في "مقهى الخمسة وعشرين"، وانتظرت الساعة أن تدق معلنة نهاية الأربع والعشرين ساعة التي نعرفها. وبعد مرور أكثر من عامين على تلك الليلة، لا زالت تلك اللحظة تبدو لي كأحلام اليقظة، ذكرى ضبابية تكونت حين وقفت فيها بين العالمين، واقع خافت لا ينتمي للغفوة ولا اليقظة.

- فيه باب اتفتح يا نهلة، حاجز كان بيفصلنا عن عالم الجماد فيه بيحس والكلمات فيه لها إرادة.

حدَّقت في وجهي لوهلة ثم هزت رأسها ومطت شفتيها في حيرة. بالتأكيد كانت تفكر إن كان كلامي به شيء من الصحة، أم أن عقلي به شيء من الخبال... أو العبقرية شردت بعدها من النافذة قبل أن تلتفت إليَّ لتعيدني للواقع بسؤالها:

- بتعمل كل ده ليه يا سليم؟ هتستفيد إيه لو وصلت للمايسترو؟

انحنت ناحيتي لتسأل بصوت خفيض:

- لسه عايز توصل لسالم؟

نظرت إليها، وجاءت ابتسامتي حزينة. نعم أريد أن أصل إليه، قبل أن يصل "هو". فنحن في سباق ينتظرنا في نهايته صندوق مغلق يرقد بداخله إجابة أخطر سؤال.

انتبهت نهلة لشيء ورائي وجحظت عيناها واحمرتا، فالتفتّ لأجد الرائد حِجّي يُهرع خارجًا من العمارة وهو يلوح لها بسعادة طفل نزل لتوّه الفسحة. ابتسمت رغمًا عني. ربما كان حِجّي يختلق أعذارًا ليتصل بي من خلال نهلة، قرر أن يجعلها وسيلة التواصل بيني وبينه، رغم نفورها منه. تلك العلاقة العاطفية الهزلية ذات الطرف الواحد.

- يا دي النيلة، هو الراجل ده مش عارف إني قد أمه.

قالتها نهلة وهي تدير المحرك وتنطلق مثل بطلة أحد الأفلام الأمريكية. ما إن ابتعدنا بقدرٍ كافٍ، حتى نظرت في المرآة بحثًا عن حِجّي، كأنه عفريت تخشى أن يخرج لها من حقيبة السيارة، ورطنت بما شعرت أنه سباب، لكني كنت في وادٍ آخر.

لم أشعر بحركة السيارة العنيفة، ولا بالهواء الذي لطم وجهي فجأة، لم أشعر سوى بوخز مؤلم أصابني بلا إنذار حين ذكرت اسم توأمي الذي مات بين يديّ. التقطت علبة المهدئ مرة أخرى وابتلعت قرصًا آخر.

- أنا آسفة، فكرتك به. بس سالم مات بالسرطان يا سليم، مش بسبب محاولاتك لعلاجه. سيبه يا سليم، سيب أخوك مرتاح في

تربته وخليك مع اللي عايشين.

هكذا قالت نهلة، صوتها به شيء لم أفهمه، حرقة، حزن... نداء. لكني كنت قد دخلت في حالة نشوة وخدر لذيذ ينسدل فوق حواسي لتعزلها عن الواقع. ابتسمت في سعادة.. هل بدأ مفعول المهدئ بهذه السرعة؟ لا يهم، أنا الآن في أمان.

- فاكرة يا نهلة لما قلت لك عن شعوري بإن فيه حاجة هتحصل قريب بس مش عارف هي إيه؟

- حاجة إيه إن شاء اللـه؟

ابتسمت رغمًا عني وقلت:

- وهو ده كان ردك برضه. عمومًا الحاجة دي أنا حاسس إنها قريبة جدًّا.

***

أوصلتني نهلة لشقتي بمصر الجديدة، والتي صارت مختبري ومقر أبحاثي. ودعتني على وعد بالاتصال في التاسعة مساءً بعد المستشفى، لتكمل إزعاجي بأسئلتها. أعلم أنها تريد الاطمئنان عليّ، لكنها أحيانًا تضيق الخناق كأنها أم تراقب ابنها المراهق العاق. شاردًا، صعدت عمارتي باستخدام السلم كعادتي، كي لا أضطر أن أفتح باب المصعد، فخوفي من الأبواب الموصدة يتوحش حين أكون منقطعًا عن دوائي. ندبة أخرى من تلك التي تشوه روحي.

دفعت باب الشقة الذي ينفتح آلياً بصوتي، ودخلت شقتي التي

صارت أطلالًا باردة. احتفظت فقط بأقل القليل من الأثاث الرمادي الأنيق، بينما انتشرت أوراقي وكتبي في كل أنحاء الصالة الواسعة. وما إن أغلقت الباب، حتى اخترق النباح أذني. أعلم أنها ليست هنا، "أَلِيسْ"، كلبتي الدافئة الحنون، لكني أشتاق إليها. كانت دومًا في لقائي، كلما عدت من الخارج، كانت تنتظرني دون طلبات، دون مقابل، فقط المودة.

أين أنتِ يا أليس؟ لماذا أخذك مني عازف الأقدار؟ أيظن أنه قادر على إعطائك ما فشلت أنا فيه من حنان؟ أم تُراه "رحمك" من الحياة؟

نفضت الافتراض المؤلم، ذهبت إلى غرفتها، وأسندت كفي على الباب، كأني أسمع صوت مخالبها على الأرضية الخشبية بعد أن شعرت بوجودي. لقد غيرت الباب القصير الذي كان بارتفاع المتر والنصف إلى آخر مكتمل. باب لا أفتحه أبدًا، لا أستطيع، لا أريد أن أراها خاوية. لا أريد أن أواجه وحدتي.

ربما كنت مخطئًا، ربما كانت الأدوية المهدئة علاجًا مؤقتًا، رقعة طبية وضعتها فوق جرحي كي لا أراه هو الآخر. لكني أعلم أنه لا يطيب، بدون علاج نهائي لن يفعل، بل سيتوحش ويفسد حتى يلتهمني من الداخل. والآن أصبح لديّ غرفتان موصدتا الأبواب: غرفة أليس، وغرفة سالم.

ففيما يبدو أن مصير كل من يقترب مني هو باب مغلق... وجدار منيع.

أفقت من حالة الاشتياق تلك حين لفت انتباهي جسم غريب أمام باب غرفة سالم. من أين أتت فردتا الحذاء الرياضي هاتان؟ تلك الماركة العتيقة التي كانت حلم شباب التسعينات؟ ذهبت لألتقطه، ونظرت للباب. حدقت به للحظة قبل أن أضع أذني عليه. لا شيء. هززت رأسي في حيرة ثم أخذت الحذاء معي ووضعته تحت المكتب في الصالة.

شقتي لا تزال كما هي، أنيقة، رمادية، أبرد من بيوت الإسكيمو. تخلصت من بعض الأثاث العصري الذي كان بالصالة الفسيحة، المطلة على الحديقة عبر النافذة العريضة، وجعلت منها مركز عمليات. صناديق ممتلئة عن آخرها بأوراق وملفات وملصقات وخرائط على الجدران. دبابيس تشير إلى أماكن حدوث الظواهر الخارقة، وملاحظات ملصقة بجوارها. كتب ومراجع ودفاتر وصور ضوئية ومطبوعات... كلها تدور حول أكبر لغز قابلته في حياتي... الجماد الذي دبت فيه الحياة.

في الركن بجوار النافذة تكدست فيه تلك الأشياء: سترة كانت تحتضن أرملة صاحبها.. كرسي متحرك لشابة مشلولة كانوا يجدونه كل صباح في مكانها المفضل أمام النافذة.. تليفون أرضي عتيق كان صاحبه ينتظر مكالمة من أبنائه لم تأت... وغيرها، قضايا قمت بفك طلاسمها وساهمت في شهرة "مستر جراي". كلها خيوط لم تقدني إلى المايسترو أو تقربني من الحقيقة.

لكن... هل تدب الحياة في الأشياء حقًا، أم أن تلك الرسائل هي نتاج حالة ذهنية أعلى من مستوى البشر وصلت إليها بطريقة ما؟

هل يتكلم الجماد معي، أم عقلي هو الذي يخلق كل هذا؟

ولماذا أنا والمايسترو بالذات؟ وما الذي يميز مقهى "الخمسة وعشرين"؟

هل سيجعلني هذا الطريق أصل إلى سالم في النهاية؟ أم أنه بالفعل قد صار عدمًا؟

أسئلة لا تزال تراوغني، لكني بالتأكيد لا أحتاج إلى التوقف عن المهدئات كي أتأكد أن حذاء أخي الرياضي قد عاد إلى مكانه أمام باب غرفته... الغرفة التي لم أفتحها منذ رحيله.

تجاهلته وتركت كل شيء وذهبت لألقي بنفسي على الفراش.

***

يقولون إن الذكريات الضبابية تتكون في أذهاننا في اللحظات التي تفصل النوم عن اليقظة، تلك التي تقف فيها على الأعتاب بين العالمين، تقاوم الغفوة وتهرب من الاستفاقة.

ويقولون إنني أعيش هناك، بين الواقع والخيال، في الحد الفاصل بين النور والظلام، أسكن اللحظة الخاطفة بين الصوت والصمت، حياتي كلها بين قمم الألم ولحظات الخلاص.

لكنهم لا يدركون أنني لست وحدي هناك...

فـ"هو" يقف معي على تلك الحافة.. ننظر أسفل منا إلى عالم كامل...

... باللون الرمادي.

هــو

في مجاهل غابات إنجلترا، وقف مغمض العينين، يهز رأسه في استمتاع كأنه يسمع موسيقى لا وجود لها. فتحهما بغتة كأنها قد توقفت عن الانسياب في أذنه، ثم سلك الطريق الأسفلتي. حقيبته الجلدية السوداء في يساره، العكاز العاج الأنيق في يمينه، يتوكأ عليه، التحفة الفنية التي يعتمد عليه كي يرشده في صباح هذا اليوم شديد البرودة. وجهه العكاز يسارًا، إلى مدق جانبي محاط بأشجار عالية ثم إلى داخل الغابة الثلجية.

يعلم أن الكثير ممن يتواصلون معه عبر موقعه "النبضة الأخيرة" الذي أنشأه في غياهب ودهاليز الإنترنت المظلم يريدون منه شيئًا واحدًا: أن يساعدهم على الرحيل. مرضى، مفلسون، مكتئبون، يائسون من حياتهم لكنهم أجبن من أن ينهوها بأنفسهم. أغلبهم يتراجع في اللحظة الأخيرة، قبل إعطائه عناوينهم، وفي معظم الأحيان يتجاهلهم ويترك الأمر، فهو لديه الأهم. لكن هذا العجوز الذي يسكن في هذه الضيعة الهائلة، له مكانة خاصة.

دله العكاز إلى بوابة معدنية عملاقة، وقف أمامها ضامًا معطفه على جسده، يتأمل الحرف المنقوش عليها بماء الذهب "G". تخلل بأصابعه لحيته البيضاء الطويلة التي أطلقها كي ينسى العالم شكله وهو يتأمل التصميم الفيكتوري الأنيق بإعجاب، قبل أن يرفع العكاز العاجي ليدق به على صدره. أغمض عينيه هامسًا للعكاز بشيء ما، قبل أن يخفضه ليستند عليه مرة أخرى، ويتركه يقوده لمصدر ألم

صاحبه الذي اختزنه بداخل قلبه الخشبي... لسنوات.

***

لم تمر دقائق وكان داخل القصر، كفه فوق فم مدبرة المنزل، يضغط بما بقي له من قوته الغاشمة، بينما يمسك كلتَيْ يديها بيده الأخرى ككلابات. سنوات عمره السبعون تخبره أن قوته تنفد، وكذلك وقته، لكنه لا يزال بإمكانه سماع جماد يصرخ من أجل صاحبه. تجاهل نحيب المربية المكتوم وتوسلاتها التي تصرخ في عينيها الجاحظتين. تحمَّل ركلاتها دون أن يفقد السيطرة عليها حتى بدأت قواها تخور، ثم ضمها إلى صدره، احتضنها، واساها، اعتذر لها، ليس عما يفعله بها، بل عن قسوة الدنيا. قرَّب رأسها من فمه، وهمس لها أن كل شيء سيصير أفضل، ثوانٍ قليلة أخرى.. وتكونين حرة.

بعد أن خمدت حركتها تمامًا، أراح جسدها أرضًا ثم مسح على جبينها في حنان. رفع رأسه لينظر حوله. البيت خالٍ من الخدم والسكان وكل مظاهر الحياة. الجدران المبطنة بخشب الورد باهظ الثمن، كانت ممتلئة يومًا ما بلوحات أثرية لا تقدر بثمن، جمعها صاحبها على مدار ثمانين عامًا وكدسها في قصره بريف لندن. قطع فنية باعها صاحبها العجوز كما قال له كي ينقي نفسه من الخطايا، استعدادًا للنهاية، مثل عكازه العاجي الذي ابتاعه من أحد المواقع. ضيعة هائلة أصبح لا يسكنها سوى الملياردير العجوز الذي لا يترك غرفته الهائلة بالطابق الأخير، لمرضه القاتل. الغرفة التي تطل بنافذة عريضة على حديقة غنَّاء، جنة لم يعد يستطيع أن يتمتع بها.

التقط حقيبته السوداء والعكاز، وصعد السلم ببطء. لن يعترضه أحد، خطته لا تشوبها شائبة، الأمطار بالخارج قوية بما يكفي لمنع أي زيارة محتملة. القلعة الأسطورية التي لم يكن أحد يحلم بدخولها، ولم يعد صاحبها يحلم سوى بمغادرتها.

في الطابق الأخير، سار في الممر الطويل حتى الغرفة الرئيسية. فتح الباب لتقع عيناه على الفراش الهائل، وعلى من يرقد فوقه، والذي كان يحدق فيه بعينين جاحظتين وسط الأسلاك والمحاليل الطبية المتصلة بجسده. لا يستطيع رؤية ملامح العجوز بسبب قناع الأكسجين، لكنه قرأ المشاعر المتصارعة في عينيه: المزيج الرهيب من الذعر والأمل.

اقترب المايسترو من العجوز ووضع الحقيبة بجواره على الطاولة الصغيرة المستديرة التي يستقر عليها جهاز كمبيوتر، ثم ذهب للستائر ليفتحها على مصراعيها، ويطل على الضيعة والحدائق الغنَّاء... المُلك الذي سيزول مع صاحبه.

التفت ليجد الأخير يصرخ في صمت بكل جوارحه، فعاد إليه قائلًا بالإنجليزية:

- لا تخَفْ، سينتهي الأمر أسرع مما تتخيل. لقد ترك قائد الأوركسترا فرقته في أهم لحظات مجدها، وجاء إليك خصيصًا، جاء ليريحك من عذابك.

فتح حقيبته، ويخرج جرابًا صغيرًا، يفرده، ويتأمل الحُقَن المتراصة فيه.

- ألديك كلمات أخيرة؟

قالها بصوته العميق الهادئ للعجوز المريض، ليهز الأخير رأسه بالموافقة. أخرج المايسترو هاتفه المحمول ليضعه على حامل صغير مخصص له ووجهه ناحية العجوز. رفع قناع الأكسجين عن وجه الأخير ثم ضغط زر التسجيل.

- لا بد من توثيق هذه اللحظات. موتك سيكون رسالة أقيم من حياتك.

قالها وهو يضبط زاوية التصوير قبل أن يميل عليه ليهمس في أذنه:

- أنا أدري، أنت تطلب الغفران. تطلب الخلاص. أليس كذلك؟ قُلها.. أخبرهم.

بحلق العجوز في عين المايسترو، وتسيل دمعته، ثم قال بصوت مرتعش:

- نعم... أ.. أريد الخلاص.

لحظة طويلة تمر عليهما وهما يتبادلان نظرة بألف كلمة. أومأ له المايسترو وضع القناع الطبي على وجهه مرة أخرى قائلًا:

- لا تخف، ستحصل عليه. فأنا سأجعل منك شهيدًا. وقريبًا جدًّا سأخلص الدنيا كلها من آلامها. ثق بي، مثل ثقتك بما سأفعله بإرثك.

قالها وهو ينظر للوحة معلقة على الحائط المقابل للنافذة، رسمة زيتية لكوخ وسط الجليد، ثم استدار ليُخرج من الجراب محقنًا به

سائل بُني.

- لكنك للأسف، لن تكون هنا حين تبدأ الأوركسترا عزفها.

أخرج الهواء من المحقن، ووضع الإبرة في ذراع العجوز، قبل أن يطلق السائل في جسده. أنهى كلامه بعد أن همدت حركة العجوز:

- السيمفونية التي لن يسمع أحد بعدها نغمات أخرى.

أنغلق جَفْنا العجوز، فتأمل ملامحه المتغضنة للحظة، قبل أن ينحني عليه هامسًا:

- النبضة الأخيرة.

حين غادر القصر، كان معه صندوق معدني ذو لمعة مميزة، ونظام فتح إلكتروني حديث، منقوش عليه حرف "G".

في غرفة العجوز، كانت هناك خزينة مفتوحة خلف لوحة زيتية لكوخ وسط الجليد.

وهناك ورقة مستقرة على صدر جسد العجوز الخامد...

ورقة منقوش عليها رمز هو مزيج من علامتَي الموسيقى... والقلب.

حـازم

بحثت عن الموت... كي أقتله.

***

كدت أن أحترق... أن أهشم قبضتي في جدار الكابينة الخلفية لسيارة الشرطة المصفحة حيث أجلس، وأن أظل ألكمه بكل قوتي حتى تخترق يدي الحديد، أو يخترق الحديد يدي. لكني لم أفعلها.

بركان غضب، خامل، خامد... ينتظر.

جلست وحدي، في ظلمة الكابينة، سواد هائل الحجم يمكنه أن يصيب أشجع القلوب بالذعر، لو فتح صاحبه باب مؤخرة السيارة المصفحة، ودقق النظر في محتواها. أجلس في كامل عدتي وعتادي، محدقًا في أرضيتها التي شهدت قدوم ورحيل العشرات من زملائي في القوات الخاصة ومكافحة الإرهاب. يدي على سلاحي الأمين، حاضر بجسدي فقط، بينما عقلي مع بقية أفراد الوحدة ممن ذهب ليقتحم وكرًا يتبع المافيا التي يرأسها الألوسي.

حيرة قاتلة تمزقني، أين اختفى هذا اللعين؟ هل نسي ملايينه التي خسرها معي؟ سؤال كالصفير المزعج الذي يأتي بعد رعد ثاقب للآذان. هل معنى سكوته أنه لم يعد يلاحقني، وأن من هم في حمايتي قد صاروا في أمان؟ هل غفرت لي الدنيا ما اقترفته وقبلت ندمي؟

لكن كيف أنال الغفران وقلبي لا يزال يدمي؟

يحترق شوقًا للانتقام.

لا تمر ساعة دون أن أرى وجوه رجب وأطفاله، ضحايا محطة مصر، ضحايا عازف الأقدار. ذلك الكفن متناهي الصغر، والآية التي رجت ميدان عمر مكرم: "بأيِّ ذنبٍ قُتلت"؟

لا تمر ساعة دون أن أسمع كلمات منعم، رفيق سلاحي، أنبل من عرفت: "يمكن فيه حد لسه عنده أمل فيك يا حازم، زي ما أنا عندي".

ضممت كفي على نسر كتف بدلة منعم الميري، الذي أحتفظ به دومًا في جيبي.. ضغطت عليه بقوة حتى كاد يُدميني.

أطرق مفكرًا، لماذا مات منعم الكاشف، وعاش حازم وهبة؟

كيف ينتقي الموت رفقاءَه؟

كيف يأخذ الصالح الواثق من خطاه، ويترك الطالح الذي لا يعرف لنفسه هدفًا ولا غاية؟ يأخذ الجبل الذي يصمد أمام الاختبارات، ويترك الضعيف الذي ينهار عند الشدائد.

الغضب العارم... يدمدم بداخلي.

لكن لا...

لا تصرخ يا حازم. اكتمها في صدرك يا حازم. لا تهدم الجدران ولا تنفخ النيران يا حازم... هكذا يقولون لي. اختزن الغضب في صمت، ازرعه في صدرك أشجارًا عملاقة ثمارها كرؤوس الشياطين، واروه بدمائك التي تغلي في عروقك.

لكن... لا تصرخ يا حازم.

نقلوني للقوات الخاصة بناء على تعليمات اللواء الشناوي بعد أن بلغه ما فعلت بباب شقة سليم لقمان المصفح. أدركوا أنني قد صرت سلاحًا فتاكًا يمكنهم توجيهه... بحساب. ولهذا السبب فقط أنا هنا، لأنه حين تتعقد الأمور، حين يشتد الوطيس وتنفتح نيران جهنم في وجوه رفقائي، حين يكشر الموت لهم عن أنيابه... يطلقون سراحي.

لكن كان لي شرط واحد: أن نبدأ بالأوكار التابعة لمافيا الألوسي. فبعد أن عرفت أن الغاياتي، ذراعه الأيمن، كان هو الناجي الوحيد مع خمسة من رجاله من مذبحة المركب النيلي التي ارتكبها المايسترو، أدركت أن الأخير والألوسي مرتبطان بخيط ما وأن أحدهما سيقود للآخر.

سمعت أفراد وحدتي يتهامسون عبر سماعة الأذن، الاقتحام قريب. يتخذ كلٌّ منهم موقعه، على السلم الداخلي للعمارة وحولها، في ذلك الحي الذي يغفو في هدوء بإحدى المدن الجديدة. بعضهم فوق السطح مستعد للنزول بالحبال والبعض في منور سلم عمارة مقابلة، ينظر من خلال عدسة مكبرة ترقد فوق سلاح حديث مزود برؤية ليلية. كلهم في زيهم الأسود، كاملي العتاد مثلي، لكنهم يفتقرون إلى طاقة التدمير المحبوسة بداخلي... تلك التي أمسك لجامها بصعوبة كي لا تلتهم كل من حولي.

العد التنازلي... تلاه الاقتحام!

لم أسمع شيئًا لثوانٍ طويلة، يدي تعتصر سلاحي، ثم صوت طلقات

نارية لأدير وجهي ناحية الباب. زملائي جميعًا لديهم أسلحة مزودة بكاتم صوت، ممن هذه الطلقات إذن؟ حوار لاهث من أحد الضباط يخبر قائد المجموعة أن هناك من اشتبك معهم. سلاحي كاد أن يتهشم بين أصابعي الهائلة من فرط الإثارة.

صياح من العمارات حولي. صراخ. طلقات نارية. حوار عبر أجهزة الاتصال فحواه إن هناك جيشًا صغيرًا كان في انتظارهم، العمارة كلها موالية للعصابة.

تذكرت موقفًا مشابهًا، مهمة لعينة لفظتني من عالم الأحياء...

لحظة صمت...

بعدها كلمة واحدة عبر اللاسلكي... كلمة السر...

"وهبة".

نهضت عملاقًا، رأسي مُنحنٍ كي لا يرتطم بسقف الكابينة. استدرت لأفتح الباب لتئِنَّ السيارة تحت قدمي وتتمايل مع حركتي قبل أن ترتفع مرة واحدة حين قفزت مستقرًّا على الأسفلت. كنت قد كونت فكرة جيدة عما يحدث، عن أماكن الاشتباك، وفي ذهني خريطة دقيقة للموقع.

سرت بحذاء السور، أعلوه بنصف متر كامل، رافعًا سلاحي فوق كتفي، عيناي على باب العمارة الرئيسي من فوق السور، لا يطرف لي رمش. لمحت فوهة سلاح تخرج من إحدى النوافذ، فخفضت سلاحي ليستند على كتفي، وأطلقت رصاصة واحدة صامتة. سقط

بعدها حامل السلاح في ظلمة الشقة. انحنيت حين جاءت رصاصة من شرفة ما، تبعها وابل من الطلقات الصديقة من العمارة المقابلة، انطلقت لترد عليها وترغم من أطلقها أن يختبئ. دخلت فناء العمارة ونظرت يميني لأجد ضابطًا ملثمًا بقناع حديث، يرفع لي يده بتحية صامتة، من خلف تُرْس معدني عملاق مثبت في الأرض ذي فتحة ضيقة مستطيلة. فأشرت إليه كي يتقهقر ويستتر بالسور ليترك لي الترس.

أمسكت بالترس المعدني الثقيل المقوَّس، والذي يزيد على المتر ونصف المتر طولًا، ورفعته بيسراي بسهولة. تقدمت لأدخل من باب السور، ووقفت في حوش العمارة أمام المدخل. شعرت بالبركان يزمجر أسفل الرماد الذي يرقد في صدري. ببطء عبرت بجوار رفقائي الذين اتخذوا السيارات الرابضة بين السور والعمارة ساترًا من النيران التي يطلقها بعض العناصر من المدخل. شعرت برصاصة ارتطمت بالأرض وخدشت ساقي من أسفل الترس. وغزة خفيفة، لكنها نجحت في إثارة غضبي، اخترقت الطبقة الحجرية المحيطة بقلبي لتظهر من تحتها الحمم. كأنها كانت إشارة البداية... فبدأت أركض.

لم أشعر بنفسي وأنا أقطع الأمتار العشرين من بوابة السور لمدخل العمارة كالقطار. أصابع يمناي على زناد بندقيتي الآلية لأمطر المدخل بعشرات الرصاصات، ويسراي ترفع الترس ليحميني من الرصاص. رأيتهم بدقة رغم ظلمة المدخل، ثلاثة محصنين أسفل السلم خلف صندوق حريق، نيران بنادقهم وشت بأماكنهم. سددت طلقاتي هناك،

دقيقة سريعة لا تترك لهم فرصة التسديد، طلقات أصابت أهدافها. ازدادت سرعتي وسط ذهول رفقائي. سمعت قائد المجموعة يقول شيئًا، ربما تحذير ما، لكني لم أنصت. اقتحمت باب العمارة بالترس لأرتطم مباشرةً في أحد العناصر الإجرامية فيحلق في الهواء ويرتطم برفيقه، ويسقطان مضرَّجين في دمائهما يتلويان كالذبائح.

وقفت بجوارهما في شموخ ناسك يتطهر من ذنوبه، وخفضت الترس لأسترد أنفاسي. تركته وصعدت السلم إلى رفقائي المحاصرين بالأعلى، لأجد أحدهم في منتصف الطريق، مصابًا في ساقه وكتفه، والآخر استقرت بصدره رصاصتان. حالة الأخير حرجة، ولا يستطيع زميله العناية به وإخراجه. فحصت جراح المصاب في صدره متفاديًا نظراته المتوسلة، حالته لا تسمح حتى بحمله. نظرت للآخر، فأومأ لي: "اتركنا، واقتصّ لنا".

أزيز رصاصة مر بجوارنا، تبعه صوت ارتدادها على بلاط السلم. نظرت لأعلى، لأرى سلاحًا موجهًا إلينا من بين قضبان الإفريز. عاد البركان ليزأر، وأزأر معه. صيحة رعدية واحدة مع سيل من طلقات سلاحي وأنا أصعد السلم. سقط بلا حراك. وصلت إلى الطابق الثالث، هنا يتحصن من تبقى من عناصر التنظيم. عبرت بجوار جسد ضابط يرقد بلا حراك على السلم، ثم آخر، فثالث به بعض الرمق. وقفت فوق أجسادهم أحاول جذب الأخير إلى أسفل بعيدًا عن مرمى نيران أعدائي، لكنهم لم يتركوا لي الفرصة، وظلوا يرمونني بالرصاص. أمطرت باب الشقة والجدار بوابل من الطلقات حتى نفدت من بندقيتي، ثم من مسدسي الاحتياطي. حاولت أن أسددها إلى أماكن

محتملة لوجود العناصر، لكن النار المتأججة في صدري، وصرختي التي ترج المبنى، كادت أن تعمي بصيرتي...

ثم... انفصلت عن الواقع.

دخلت في تلك الحالة التي يحكونها عني، والتي صرت أنا نفسي أخشاها.

لقد أنذروهم، حذروهم وهددوهم، لكنه الكِبر، الفرصة التي يلقيها القدر في طريقي كي يُبرِّد ناري، ويُطعم الوحش الذي كان نائمًا بداخلي واستيقظ جائعًا.

تركت سلاحي الفارغ بجوار رفقائي، وقفزت لأقتحم الشقة... هذا ما وصفه الضابط الذي تركته ورائي. إذ سمع صوت الطلقات التي تطايرت في كل اتجاه، الطلقات التي أصاب بعضها هدفه وطاش الباقي. ثم توقَّف إطلاق النار. قال إنه سمع بعدها صياحًا، صراخًا، ضرباتٍ وآهاتٍ، توسلاتٍ وعويلًا. قال إنني صرت ماردًا يعيث قتلًا وتدميرًا حين انقطعت كل السبل الأخرى.

أخبرني زملائي أنهم انتظروا حتى هدأت الأصوات، فتقدموا بحرص داخلين الشقة التي صارت أرض المعركة. رأوني واقفًا فوق الجثث الممزقة، صدري يصعد ويهبط باطِّراد، أنفاسي العالية تتباطأ، وتهدأ كموجة جبلية الحجم، تنحسر من فوق الرمال، هديرها يبتعد ببطء.

نادوا عليّ، لكني لم أُجب. أحاطوا بي من مسافة آمنة، وسددوا أشعة بنادقهم الحديثة لتنير وجهي بنقاط حمراء، فوجدوني أحدق

في الأرض أمامي. الدماء أحالت ملامحي وملبسي والمشهد كله إلى لوحة سريالية من الفوضى والانتقام.

ثم قالوا إنني – كأي بركان يطلق كل ما في جعبته – انهرت من أعلى قمته، لأرقد بسفح الجبل... بلا حراك.

أيها الموت... أما آن أن نلتقي؟

تسع عشرة رصاصة... ألا تكفيك؟

هــو

في نهاية الممر، بالطابق الأخير بمديرية الأمن، ظهر موكب جعل الدم يهرب من جسد العسكري المسكين. ما لا يقلُّ عن عشرة ضباط، أقل رتبة فيهم يمكنها أن تقود جيشًا، يتقدمهم لواء سينمائي الملامح ممشوق الجسد، رغم سنوات عمره الستين. بجواره يمشي لواء آخر عملاق كلاعبي السومو، ورأس أشيَب أصْلَع: مساعد الوزير اللواء المشدّ واللواء الشناوي، مدير المباحث.

رفع العسكري يده بالتحية، وسدد بصره إلى الحائط أمامه في نفس اللحظة التي توقف فيها الموكب أمام الغرفة. وقف اللواء المشد أمام الباب.

- افتح الباب.

استدار العسكري ليخفق أكثر من مرة، قبل أن ينجح أخيرًا في إدخال المفتاح في القفل ودفع الباب، ليفسح الطريق لمساعد الوزير. يدلف الأخير الغرفة، ووراءه اللواء الشناوي وهو يقول لمن جاء معهم:

- خليكم هنا.

يراقب العسكري الضابطين الكبيرين وهما يتقدمان ليقفا أمام العمود القصير الذي يرقد فوقه دفتر ناعوت.

- بعد سنتين من الصمت قرر الدفتر إنه يغيَّر الكلام اللي فيه لوحده؟

- ومين قال إنه لوحده سيادتك، أكيد فيه حد دخل هنا.

هكذا أجاب اللواء الشناوي سؤال اللواء المشد، فيرميه الأخير بنظرة خاطفة قبل أن يقول:

- محدش دخل الأوضة دي يا شناوي، إحنا مسجلين كل لحظة. إنكارك اللي بيحصل مش هيغير الحقيقة. وبعدين عرف إزاي يغير الكلام اللي في الدفتر، إنت ناسي إن محدش عارف يكتب فيه ولا يمسح منه حاجة. وإشمعنى الكلمة دي؟

لم يرد اللواء الشناوي هذه المرة، وإن أصدر تلك الزمجرة الخافتة التي يشتهر بها قبل أن ينظر إلى الدفتر مرة أخرى، وبالأخص للصفحة التي ترك لنا فيها عازف الأقدار قصيدته. فيما أخرج اللواء المشد قلمًا وتدبر للحظات، ثم وضع طرفه على صفحة الدفتر البيضاء... وجر خطًّا.

لكن لا شيء.. ولا حتى خدش بسيط في الورقة.

تنهد المشدّ بحرقة واضعًا قلمه مرة أخرى في جيبه قائلًا:

- مين اللي شغال دلوقتي في وحدة منعم الله يرحمه؟

- حازم وهبة اتنقل. مش فاضل غير حِجّي باشا سيادتك، بس بصورة مش رسمية.

- مين؟

تساءل المشدّ عاقدًا حاجبيه.

- الضابط اللي سيادتك نقلته مع منعم. هو اسمه كدة.

- أنا منقلتش حد.

هز اللواء الشناوي رأسه ليرتجّ لحم رقبته الغليظة.

- أنا كنت قلت لسيادتك إننا نلغي الوحدة دي.

قالها الشناوي ليهز المشدّ رأسه بعدم رضا، ناظرًا إلى الباب كي يتأكد أن أحدًا لا يسمعه.

- نلغي إيه يا شناوي؟ أجهزة المخابرات في أكتر من دولة قدرت تربط اللي بيحصل في بلدها باللي بيحصل عندنا، وبالذات اللي موجود في الأوضة دي؟ ودلوقتي الدفتر اللي المايسترو سايبهولنا دبت فيه الروح بعد سنتين من الصمت. وتقولّي نلغي!

ابتلع الشناوي ريقه وزمجر مرةً أخرى قبل أن يستطرد اللواء المشد كلامه، وهو ينظر لما هو مكتوب في الصفحة البيضاء المفتوحة:

- اللي حصل في الدفتر ده ملوش غير تفسير واحد. ده رسالة يا شناوي، ورسالة واضحة جدًّا، خصوصًا مع اللي بيحصل برة.

- رسالة إيه سيادتك؟

- المهلة قربت تخلص... المهلة اللي سابهالنا المايسترو قبل الفصل الأخير.

حازم

سمعت صوتها كالنسيم فوق جلد محترق، أوتار ناعمة تغرد بعد ضربات الطبول.

عايدة... هل هذه أنتِ؟ هل هذا صوتك الذي ارتفع مرةً واحدةً ليرج الغرفة والمستشفى بأكمله؟

هل أنتِ من يصيح في وجه اللواء الشناوي دفاعًا عني؟

مجنونة أنتِ... أكثر جنونًا مني. مجنونة حتى تقولي لشخص مثله إنه يجب عليه أن يخجل من نفسه.

فتحت عينيّ بصعوبة. ورفعت إصبعي كي أنبهك إليّ. ورأيت وجهك يقترب مني.

مهلًا هذا ليس وجهك، هو ليس ممتلئًا هكذا، وعيناك ليستا جاحظتين بهذه الطريقة. هذا البالطو الأبيض، ومساحيق التجميل التي تكاد تتلاشى بعد يومٍ طويل، أعرفها جيدًا.

- عايدة! حازم صحي!

هكذا هتفت الدكتورة نهلة في وجهي بصوتها الجهور ليطير تأثير البنج مرةً واحدة، معظمه على الأقل. فالتفتُّ لوجه آخر ظهر في الكادر بجوار وجه نهلة. العيون الفارسية الواسعة المعقوفة للخارج ولأعلى، مع ابتسامة عريضة، تشق شفتيها الدقيقتين الممتلئتين.

نعم... هذا أنت... واحتي الخضراء.

لا بد أنني ابتسمت، لأن نهلة قد ابتسمت هي الأخرى وهي تنظر لعايدة بطرف عينيها بخبث. نعم، بالتأكيد ابتسمتُ، لأن وجه عايدة المثلث الرقيق قد أشرق كما ينشقُّ الليل عن فجر جميل. شعرها الذهبي انساب في كل مكان، ليغرقني، وعيناها الخضراوان أكبر من كل شيء، أجمل من...

ما هذا الذي أقوله؟ من هذا الذي يتكلم في رأسي؟

- واضح إن البنج عامل عمايله.

هكذا قالت نهلة وهي تتقهقر، فقطّبت حاجبيّ لأستعيد رزانتي، وائدًا تلك العاطفة المراهقة في مهدها. أَفِقْ يا حازم كي لا تقول أو تفعل ما تندم عليه لاحقًا. اكتسبت عايدة جدية خنقت ابتسامتها وهي تقول:

- إنت بتعمل إيه في نفسك؟ عايز تنتحر؟ هترتاح لما تسيب مامتك لوحدها؟ بتعمل كدا ليه؟ ليه سايبهم يستغلوك أسوأ استغلال؟

لمحت اللواء الشناوي خلفها.. يعتدل فاردًا جسمه الممتلئ ويقول بحزم بارد:

- المقدم حازم بطل يا آنسة عايدة. أنقذ أرواح. التسعتاشر طلقة اللي أخدهم دول كانوا ممكن يكونوا تسعتاشر شهيد. منعرفش استحملهم إزاي بس كل اللي إحنا عارفينه إنه ربنا حباه بنعمة مش موجودة عند حد.

- يقوم ياخد التسعتاشر رصاصة دول لوحده؟ يبقى شهيد لوحده؟

لغاية إمتى هيفضل يستحمل الرصاص؟ لغاية ما في يوم يقع ميقومش؟ ممكن سيادتك تقولّي أقول إيه لوالدته لما أرجعلها بكفنه؟ أقولّها إن الداخلية قررت تستخدم ابنها كيس رمل ياخد بدالهم الطلقات؟ لو ده مش استغلال، فحضرتك يعني أنا مش عارفة إيه اللي ممكن يكون كدا في نظرك.

مجنونة غاضبة لا تعرف الخوف. لكن كيف يمكن لأحد أن يقف أمام روح الدبة الأم التي تملّكتها؟ أنا من يجب أن أحميها، لكنها هي التي تقف بيني وبين الموت.

زمجر الشناوي كعادته قائلًا:

- مش أنا اللي بستغله يا فندم. مصر هي اللي طلبت منه... وهو استجاب. هو مديون لمصر، وهو عارف كدا كويس.

التفت إليّ ليقول من بين أسنانه:

- حمدلله على السلامة يا بطل.

استدار بعدها ليغادر بمشية عسكرية قوية.

- نفسي أعرف هو اللوا الشناوي ماسك قطاع إيه؟ قطاع الزمجرة؟

هكذا علقت نهلة بصوت خفيض، بينما رمقته عايدة بغيظ وهو يبتعد في الردهة، قبل أن ينغلق الباب فتلتفت إليّ، لا تدري ماذا تقول. فيما تراجعت نهلة إلى خلفية المشهد تاركة بطليه يتعاتبان. حاولت رفع يدي لأبعد خصلات شعرها الذهبي عن وجهها كي ينير لي دنياي. تبًا لك أيها المخدر، ستفضحني أمام نفسي قبلها. تماسك يا

وهبة، ما الذي ألَمّ بك؟

لا بد أنها قد شعرت بحرارة كلماتي التي لم أنطق بها، فقد استطردت بصوت خفيض، رقيق، أرق مما أحتمل:

- إنت اللي تطوعت؟

نعم أنا يا عايدة، ولن أهنأ براحة البال قبل أن أرى المايسترو جثة هامدة... هكذا تمنيت أن أخبرها، لكني لم أنطق، فما كان منها سوى أن قست عليّ قائلة:

- موتك مش هيرَجَّع منعم يا حازم، مش هيرَجَّع رجب وولاده.

ضربتني كلماتها في الصميم، وجعتني أكثر من التسع عشرة طلقة التي أخرجوها من جسدي. بللت شفتي بلساني وقاومت كي أُبقِي عينيّ مفتوحتين:

- اللوا الشناوي عنده حق يا عايدة... أنا ديني تقيل.

ترقرقت عيناها وتهدج صوتها وخفضته أكثر:

- طيب كفاية كدا، ممكن؟ دينك رديته عشر مرات. أرجوك كفاية خسائر. متخليهوش يكسب جولات حتى وهو مش موجود.

شعرت بوعيي يتعافى أكثر حين قالت كلماتها تلك، حين ذكرت "هو". شعور بغيض يتسلق إلى فوهة الهاوية عديمة القاع التي يصعد منها الغضب. شعرت بحاجبيّ ينعقدان وبدمائي تفور وحاولت الجلوس معتدلًا لكني أخفقت، فانقضت نهلة عليّ لترفعني، وساعدتها عايدة على استحياء.

- هجيبه يا عايدة! واللـه هجيبه.

قلتها وأنا على وشك انتزاع الأنابيب المتصلة بذراعي، والنزول من فوق الفراش. ثم سمعت صوتًا أعرفه جيدًا، ولمحت ألوانًا غير متناسقة لدرجة الإزعاج، لا يمكن أن أُخطئ صاحبها.

- مساء الخير.

التفتنا إلى حِجّي الذي كان يقف عند الباب في بنطلون أزرق أدكَن، وقميص في لون البرتقال. يمسك في يده حزمة من الورد الأبيض، وعلى وجهه المثلث شبيه الماعز ابتسامة يجاهد كي تظهر أسفل شاربه الطويل.

لمحت نهلة تلوي شفتيها ممتعضة، فيما اعتدلت عايدة لترحب به.

- اتفضل يا حجي.

تقدم ليدخل ناظرًا لنهلة بابتسامة خَجُول، استقبلتها برفع نصف شفتها العليا، ومصمصت شفتيها قائلة بلهجتها الذكورية:

- مالك يا عمنا؟

مد يده إليها بالورد وهو يتمتم:

- ألف مبر... حمدللـه على السلامة.

- حِجّي بيه... أنا هنا.

هكذا نبهته، فابتلع ابتسامته، واحمر وجهه وهو ينزع عينيه عن وجه نهلة إليّ.

- آآآ.. حمدلله على السلامة يا وهبة.

جاء ليجلس بجواري، ويعطيني الورد الذي لم أمد يدي لآخذه منه بالطبع، فأنا لم ألد توأمًا لتوِّي. حدجته بنظرة قوية كي يفهم، فتنحنح ناظرًا حوله محرجًا، لا يدري ما يجب أن يفعله بالورد. التقطته عايدة لتنقذه قائلة:

- هجيبله فازة.

ثم أسرعت خارجة، ولحقت بها نهلة وهي ترمق حجي بنظرة جانبية، لتجده ينظر إليها في وَلَه.

- خديني معاكي.. ده هايسَبِّلّي!

تابعها حجي حتى خرجت وأغلقت الباب، قبل أن يلتفت إليَّ ليقول بنبرة جادة:

- الوكر اللي أنت صفيت العناصر اللي كانت فيه كان الأخير يا حازم، آخر معقل لرجالة الألوسي. وبرضه مفيش أثر للمايسترو.

نظرت له وسألته متجاهلًا ما قال:

- وصلت لعنوان عوني؟

أخذ شهيقًا عميقًا، وتردد للحظة قبل أن يقول ناظرًا حولنا، رغم تأكده أنه لا يوجد سوانا:

- حازم.. الدنيا نامت خلاص.. متصحيش الوحش.

لا بد أن الشرر قد تطاير من عينيَّ، لأنه تراجع في توجس ليقول:

- قربنا نوصل له.

ثم أردف:

- كل اللي أنا عايز أقوله إننا لسه مش عارفين هوية المايسترو، ولا فيه أي دليل على وجوده من الأساس غير الرسمة الكروكي بتاعة الست العجوزة الكفيفة. ولو هو حقيقي، فهو مختفي من على وش الأرض، والألوسي كمان، بقالهم قرب التلت سنين، وإنت قضيت على آخر مخلب من مخالب المافيا اللي كانت سانداه.

وضع يده على كتفي قائلًا:

- جه الوقت اللي ممكن ترتاح فيه يا حازم في سلام.

أطرقت مفكرًا لوهلة طويلة، تركني فيها حجي دون أن يتنفس. لم يقطع تفكيري سوى صوت عايدة:

- مالك، فيه إيه؟

رفعت عيني لأجدها عند الباب، بيدها فازة بها الورد الأبيض.

- مفيش. حجي بلغني بس إن إصابة زمايلي خطيرة.

قلتها محاولًا الابتسام، لكنها ضيقت عينيها في شك. تجاهلتها وأغلقت عيني، ثم انسللت تحت الغطاء كي أفكر في...

سلام؟ تدبرت هازئًا من تلك الكلمة التي بدت لي أنها أثمن شيء في الوجود، جائزة لا تزال بعيدة المنال، كنز لا يدري قيمته سوى القليل... ممن هم مثلي. لكننا ندرك أنها ليست لنا.

***

خرجت اليوم التالي للعملية من غرفتي، ماشيًا على ساقيّ، ومتوكئًا على عكاز طبي. أصاب هذا أطبائي بالذعر، لكن نهلة كشرت لهم عن أنيابها، وسمحت لي بالخروج، شريطة أن تُقلّني بنفسها، فوافقت. في الطريق سألتني بعض الأسئلة الطبية عن حالتي كي تطمَئِن، فأجبتها بذهن شارد. في النهاية أخبرتني أن المعجزة التي حدثت لي لا تختلف كثيرًا عما يحدث لسليم لقمان، مستر جراي الذي صار أشهر من أرسين لوبين.

أسندتني حتى دخلت البيت الصغير الملحق بڤيلا وهبة عبر البوابة الخلفية، تأملتني للحظة لتطمئن عليّ، وتركتني أواجه الشيء الوحيد الذي يخيفني. كعادتي، أتهرب من رؤية ساكنيه، أربض في الظلام، في المساحة الصغيرة أمام باب بيتي المكون من غرفة ملحقة بالحديقة بها صالة وحمام.

كانت نافذة غرفة عايدة مضاءة ولمحتها هناك، خلف الستار.

عايدة، الملاك الذي أهدتني الدنيا إياه رغم يقيني أني لا أستحقه. الملاك الذي كنت أخشى مواجهته أكثر من خوفي من جيش كامل من القتلة المأجورين. كنت أتحول 180 درجة حين كانت تطوف حولي. أصير أضعف. نظرة حانية منها كانت كافية لتجعل عضلاتي المنقبضة، المتحفزة والجاهزة لسحق العظام... ترتخي. كانت الكريبتونايت الخاص بي. كلمة رقيقة تطمئنُّ فيها على حالي، أو لمسة من كفها على كتفي المنهكة.. كانت كفيلة أن تجعلني أغمض عينيّ

و... أبتعد عنها.

لكن تلك اللحظة الخاطفة، كانت قادرة أن تشفيني من السموم التي امتزجت في قلبي.

فقط لو سمحت لها...

كنت بكل هيلماني وهيبتي وغضبي المستعر بداخلي، أشعر أنني أدور في فلكها، أنها هي من تعطيني الأمان، وليس العكس. كنت أشعر أنها الاتزان في عالم من الفوضى، وبترتيب رحيم من القدر ظهرت عايدة ناعوت لتحميني من الجنون.

ليس لي فقط، بل لأمي أيضًا.. أمي التي كانت مصدر الحنان والحكمة لكل من حولها. حين أصيبت بالذُّهان، وبدأت تذوي أمامي كأوراق الشجر في الخريف، كانت عايدة طبيبتها. بين ليلة وضحاها حاصرت الأمراض أمي، زهايمر وشلل رعاش، تكالبت عليها كالضباع حين تشيخ اللبؤة. انكمش جسدها وعادت طفلة، شكلًا ومضمونًا. تذوب وتذوب معها بصمتها في هذه الدنيا.

مع مرور الأشهر، صارت أمي في أحيان كثيرة لا تعرفني، تنظر إليّ بعينيها الرماديتين الباهتتين، تحاول اعتصار ذاكرتها، شبح ابتسامة يرتسم على شفتيها المتجعدتين. لكنها لا تتذكر. ربما صرت بالنسبة إليها طيفًا رقيقًا يذكّرها بوقت كانت فيه سعيدة.

لكنها لا تزال تعشق الزراعة. تمسك بمعولها لساعات طويلة، لا تدري ما الذي يجب أن تفعله به. ثم تتذكر للحظات، فتبدأ بالحفر، قبل أن تنسى ما كانت تفعله مرة أخرى، فتنكمش فوق كرسيها كالطفل

الرضيع.

حينها يظهر عيسى شقيق عايدة كالفارس المغوار، ينشقُّ وجهه الذي شكَّلته متلازمة داون عن ابتسامة أكثر سطوعًا من الفجر. يريح ظهرها على المسند، ويضع غطاء فوق ساقيها، فتستيقظ مبتسمة له. تتذكر ما كانت تفعله حين يعطيها المعول، فتشرع في استكمال الحفرة، وتضع النبتة، كما كانت تفعل مع أطفال رجب.

وهكذا صارت أمنيتي مستحيلة، أن تغفر لي أمي تقصيري...

فهي لن تغفر لي لأنها لم تعد تستطيع.

***

السلام... هل يمكن أن أجرؤ على أن أحلم به؟ أعلم أنني كي أحصل عليه، أو أقترب منه بما يكفي لأشعر بدفء أشعته على وجهي... فعليَّ أن أغلق ملفات بعينها أولًا.

لكن من أين أبدأ؟ لقد ضربت الألوسي في كل مكان، ولم يتأوَّه مرة واحدة. لم يخدشني مخلب واحد من مخالبه، كأنه ذئب ينتظر. حتى دبه القطبي المتعطش للدماء كثير الكلام والأخطاء، حتى الغاياتي، لم يظهر له طيف. كيف أستدرجه للعلن؟ ماذا أفعل أكثر من الإغارة على أوكار تنظيمه وإصابة نشاطاته كلها بالشلل؟

انتظرت وانتظرت... لكن القصاص لم يأتِ.

كنت أستيقظ كل صباح، قبل الجميع، كي لا أقابلها. أذهب لأجلس في ميدان ما، وحدي، بلا سلاح سوى عصاي التي أتوكأ عليها لأخفف

آلام جراحي، بلا دعم ولا رفيق، أنتظر القصاص.

لكن القصاص لم يأتِ.

ساعات طويلة كانت تمر عليّ، ليلًا وصباحًا، وأنا مطرق محدق بالأرض أمامي. حواسي متأهبة، عضلاتي متحفزة، متحمسة لإراقة الدماء.

لكن القصاص لم يأتِ.

آلاف الوجوه ليست بها الملامح التي أنتظرها، الملامح العصفورية التي لا تتناسب مع شراسة صاحبها. ليست بها وجه الغاياتي. أنهض لأسير في كل الشوارع، أتعمد سلك المهجور منها، المظلم والمنعزل.

لكن القصاص لم يأتِ.

قضيت لياليَ طويلة أمام قصر الألوسي بمدينة العبور. ضيعة هائلة بحدائق وجِنان على مرمى البصر، أسوار عالية تضاهي تلك التي تحيط بوزارة الدفاع الأميركية، طريق ممهد محاط بالأشجار العملاقة يقود إلى القصر المنعزل. فهو قد تمكن بطريقة ما أن يمنع البناء في محيط قصره، حتى إن القلة اللذين نجحوا في رفع أعمدة منازلهم بالقرب منه، لم يتخطوا مرحلة الجدران الخرسانية.

كل هذا كان غارقًا في الظلام، ساكنًا كأطلال مدينة منهزمة، أُبيد ساكنوها عن آخرهم. لا أثر للألوسي ولا الغاياتي، ولا جيشه من المرتزقة والمجرمين.

دق هاتفي.. فنظرت لأرى اسم عايدة، لكني لا أجيب. وبِمَ أجيب؟

يأتيني بعده اتصال من حِجّي، يخبرني بعنوان عوني، الشيطان الذي أغواني واستغل انكساري، الضابط الفاسد الذي كان سبب معرفتي بالألوسي. لا، أنا لا أبحث لنفسي عن عذر، فأنا مذنب، لا هروب من هذا. فقط كل ما أتمناه هو أن أستعيد شرفي... أو أموت فداه.

- الألوسي لو عايز ينتقم منك كان زمانه عملها من زمان يا حازم. والمايسترو، فاكر منعم اللـه يرحمه، قال إن عمره كان قد إيه من كام سنة؟ زمانه مات وشبع موت.

- مش هرتاح غير لما أشوفهم هما الاتنين جثث قصادي.

- واللي مستنياك دي؟ عايدة يا حازم هي أكبر دليل إن ربنا بيحبك وغفر لك خلاص. مجرد وجودها في حياتك معناه كدا.

- أو ابتلاء ليها. أنا آخر واحد يصلح ليها.

- ارجع بيتك يا حازم. إنت لسه عندك اللي ممكن تخسره.

أنهيت المكالمة دون تعليق، وتحركت بالسيارة تاركًا ڤيلا الألوسي غارقة في سُباتها.

بينما هاجس مؤرق كان يدمدم بداخلي...

فهذا الهدوء... هذا الاستسلام... مخيف.

***

هل فعلًا قُبلت توبتي؟

هل يمكنني أن أنسى ما فات وأبدأ من جديد؟

حِجّي محق، إن الوحش نائم. لكن شيئًا ما يخبرني أنه الهدوء الذي يأتي قبل العاصفة، يخبرني أنه ليس آخر عهدي بالألوسي ولا بذاك المجنون الذي يقتل المساكين. حَدْسٌ طاغٍ يخبرني أن أتمسك بهذا الخيط الأخير، أتشبث بنهايته بأطراف أناملي كي لا ينفلت مني.

أسرعت إلى العنوان الذي أعطاه لي حِجّي. تسللت إلى بيته في الزمالك، تحدٍّ هيّن لقدراتي. ربضت في الظلام... وانتظرته.

- مين هنا؟

قالها عوني فور أن دخل شقته ملقيًا مفاتيحه على الطاولة الدائرية بجوار الباب. توقف قبل أن يدخل غرفته، والتفت للصالة المظلمة حيث أربض. أحسنت يا عوني، ما زالت حواسك حادة، لم تذهب سنوات تدريب القوات الخاصة والعمليات التي أنجزناها معًا هباءً.

- وهبة؟

سأل وهو يمد يده لمفتاح الإنارة، لكنها تخشبت حين رآني جالسًا أمامه، نصفي السفلي في النور ورأسي في الظلام.

- كنت نسيت قد إيه إنت ضخم.

ارتعشت شفتاه السوداوان من فرط التدخين بابتسامة ثقة مصطنعة، بينما لمع رأسه الأصلع بقطرات العرق وارتعشت شفته العليا المشقوقة لتفضح توتره.

- أنا كنت مستني الزيارة دي من زمان. اتأخرت ليه كدا؟

- فين الألوسي يا عوني؟ إجابة بسيطة وهسيبك في حالك.

سألته بنبرة حاولت أن تكون حيادية كي لا يتصاعد توتر الموقف أكثر مما هو عليه. حانت منه نظرة لدرج الطاولة التي رمى فوقها مفاتيحه. إنه يحسب خطواته. لقد أدرك أنني لا أريد أن ألجأ إلى العنف، وهذا يُفقدني السيطرة.

متجاهلًا آلامي واعتراض جراحي العديدة التي لم تلتئم بعد، وقفت عملاقًا، ليئنَّ الكرسي قبل أن يصدر صريرًا ينبئ عن ارتياحه لنهوضي من فوقه، بينما اختبأت جبهتي خلف النجفة من فرط طولي.

اخشاني يا عوني، أرجوك. لا توقظ ما يرقد ساكنًا في صدري.. قلتها في سريرتي.

- فكرك هخاف وأنهار وأعترف؟ لا يا عم وهبة، أنا مش خايف منك. مش زي زمان. مش زي خوفي من الشيطان اللي انت عايزني أخونه.

لا بد أن عينيّ قد لمعتا في الظلام بنيران الغضب لأني رأيت الخوف على ملامحه. قلت:

- دي فرصتك الأخيرة، فرصة تكفر عن بلاويك.

تراجع خطوة للوراء حين تقدمت ناحيته منحنيًا لأتفادى النجفة.

- متعملّيش فيها واعظ يا عم حازم. تاريخك مش مشرف أكتر مني.

- إيه علاقة الالوسي بالمايسترو؟

قلتها من بين ضروسي، فتراجع خطوة أخرى. لكنه أخطأ حين أخذها في اتجاه الطاولة، حتمًا يخبئ سلاحه في درجها، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أنقضُّ عليه وأرفعه بيد واحدة لألصقه بالسقف.

تلك القوة الغاشمة، من أين لي بها؟ تذكرت لحظة مشابهة، حين ركلت باب شقة سليم المصفح لأطيح به. قوة مكنتني من تحمل تسع عشرة رصاصة. قوة تخيفني من نفسي. قوة وقودها الغضب.

كطفل صغير حاول التملص من قبضتي، لكنها كانت كالكلابات فلم ينجح في زحزحة إصبع واحدة. ركلني ولكمني وضربني بركبتيه في وجهي وبسيف يده على جانب رقبتي، لكنه كان كمن يضرب حجرًا من البازلت. ظللت محدقًا بوجهه والغضب المتأجج في أعماقي يستعر في عينيّ، حتى كاد أن يفقد وعيه من شدة ضغطي على صدره وسحقه في السقف.

- هقـ... هقول.. نز... نزلني.. هموت.

أرخيت يمناي قليلًا، لكني لم أنزله، فأجاب بين أنفاسه المبهورة:

- سافر.. الألوسي سا.. سافر.

أرخيت قبضتي أكثر، وأنزلته برَوِيَّة حتى لمست قدماه الأرض. شعرت بالدماء تسيل أسفل سترتي، فأدركت أن جراحي قد انفتح بعضها، لكني تجاهلتها وانتظرت حتى التقط أنفاسه وكرامته المبعثرة. أخذ يلملم ملابسه ويعيدها لمكانها بعصبية.

- والمايسترو؟

- أهوه ده بقى مقدرش أتكلم عنه.

هممت بالإمساك به مرةً أخرى، لكنه تراجع ليسقط أرضًا وقال وهو يشيح بيديه كي أبتعد عنه:

- استنى بس. مش إنت عايز تطمّن إن الألوسي شالك من دماغه؟ اتطمن، الألوسي نفسه بيخاف من المايسترو وبينفذ تعليماته بالحرف. والاتنين طلعوا برة مصر. صدقني، مفيش خطر منهم. إنت آخر حاجة في بالهم دلوقتي.

شخصت ببصري لأتدبر فيما قاله. استدرت بعدها لأغادر وأنا أقول:

- أنا أول واحد يعرف لو رجليهم خطت على أرض مصر يا عوني، مفهوم؟

توقفت حين تباطأ في الإجابة فأسرع قائلًا:

- مفهوم. مفهوم يا وهبة.

وغادرت.

***

وقفت أمام قبر منعم الكاشف ودعوت له. وقفت شاعرًا بالضآلة والخزي.

- مش لاقيه يا منعم. مش لاقي المايسترو.

أخرجت نسر أكتافه من جيبي، وتحسست نقشته.

- حاولت بكل طاقتي، طلبت الموت، طاردته، ومستجبش ليَّا.

متجاهلًا آلام جسدي، انحنيت لأضع النسر فوق قبر منعم.

- سامحني.

وعدت إلى منزلي...

عدت إليها...

هــو

دخل بسيارته من البوابة المعدنية قبل أن تنغلق وراءه إلكترونيًا كجفن عملاق، مخزن هائل الحجم وسط غابة إنجليزية خضراء يزين الثلج أرضها. ما إن استقر بالداخل حتى أوقف المحرك ليطرق مفكرًا. نظر إلى الصندوق المعدني المتطور الراقد بجواره، الصندوق الذي أخرجه من خزينة الملياردير العجوز والمنقوش عليه حرف "G"... وتدبَّر. نعم، هذه هي الخطوة النهائية. لم يبقَ أمامه الكثير من الاستعدادات، قطع الدومينو في أماكنها، لا تنتظر سوى دفعة بسيطة. وهذه الدفعة، الأهم والأخيرة، يتم تجهيزها بالداخل.

التقط الصندوق ليترجل من السيارة ويصعد السلم الذي يصل للمكتب الرئيسي. غرفة واسعة تطل على المخزن الهائل يجلس فيها ستيني ثلجي الشعر ذو ملامح قوقازية أرستقراطية مرهقة. منكمش في سترة فرو سميكة اتقاء للبرد، يتابع المشهد الرهيب بالأسفل عبر النافذة العريضة.

المخزن يعجُّ بالمئات من الرجال في معاطف سوداء من مختلف الجنسيات والأعمار يقفون بلا حراك. شرق آسيوي، زنجي، لاتيني، أو قوقازي مثله. منهم الجالس أرضًا والمستند على الحائط، ومنهم من يقف في دائرة مع بني جنسه، أعينهم جميعًا معلقة على الغرفة المرتفعة التي يجلس بها. حدق الألوسي بهم مبهورًا، جموع هائلة لا يربطهم شيء سوى طاعة عمياء للمايسترو وذلك الوشم الغريب الظاهر على رقابهم جميعًا: رمز الموسيقى الممتزج بقلب أحمر.

ينتفض الألوسي ملتفتًا إلى المايسترو حين شعر بوجوده.

- أظن أنا ساعدتك بما فيه الكفاية. استخدمت كل سلطتي وسطوتي ورجالتي معاك، حتى فلوسي خلصتها على الجنان بتاعك اللي محدش فاهمه. كل اللي بنيته في حياتي هدمته انت في سنتين. هتخلصني إمتى بقى؟ عايز أرجع مصر. مش عايز أستنى لما أشوفك بتدمر الدنيا.

ذهب المايسترو لإبريق المياه الذي لا يشرب سواه، فقط الماء، وانتظر عنده. عض الألوسي على شفتيه غيظًا قبل أن ينهض متحاملًا على مرضه الذي قضى على عنفوانه وجبروته، ليصبّ للمايسترو كوبًا. لا يوجد فرق كبير بينهم في السن، لكن شتان، فالألوسي قد صار ظِلًّا شاحبًا لما كان عليه، تمثال من القش يشبه زعيم مافيا كان اسمه يرج جدران العالم السفلي في الشرق الأوسط كله. أما المايسترو، فعلى الرغم من سنوات عمره السبعين فهو عملاق، ليس بطوله فقط، لكن بهالته.

التقط الأخير كوب الماء من الألوسي، واستدار ليتأمل الجيش الصغير بالأسفل، ليقول بنبرة أبرد من الثلوج المتساقطة بالخارج:

- جنان؟ وذول؟ مش فاهمين برضه؟

- دول مغيبين، مجانين زيك.

يرميه المايسترو بنظرة كالسهم. يسعل الألوسي ويبصق دمًا في منديله، ثم يُطرق في خنوع، فهو لم يعد الزعيم هنا، لم يعد سوى خاتم في إصبع هذا الجبار الذي ينوي حرق العالم، صار الألوسي

وعصابته – أو ما بقي منها – وكل ما يملك من سلطة ومال عرائس يملك المايسترو زمام خيوطها. والفضل في هذا كان لفيروس لا تراه العين المجردة، قاتل مأجور متناهي الصغر يعمل الآن لحساب المايسترو ويتجول بحرية في عروق الألوسي. حكم بالموت مؤجل يملك المايسترو الترياق الوحيد له.

عاد المايسترو لينظر للحشود بالأسفل، قبل أن يتقدم ليخرج إليهم من باب زجاجي يفتح على سلم معدني يقود للصالة الهائلة بالأسفل.

هتاف هادر رج الألوسي حتى النخاع، صياح وتهليل احتفاءً بالمايسترو الذي يقف في قمة السلم ويرفع يديه مُرحِّبًا كأنه زعيم يخاطب أمته. انتظر حتى هدأت الجموع ليقول بإنجليزية سليمة ونبرة قوية، صوته عميق لا يمكن تجاهله:

- الوقت قد حان. اليوم ستبدأ السيمفونية الأخيرة.

هتفت الحشود بصيحات تهليل، فأسكتهم بإشارة من إصبعه. للحظة صمت الجميع في خشوع، قبل أن ينزل عازف الأقدار على السلم. سار بين رؤوس تنحني له، يهمسون محيين إياه: "مايسترو".

تقدم الألوسي إلى النافذة ليرى المايسترو يسير بين مريديه، كأنه سيد الكون، ملك يسير بين رعاياه، يركع من يمر به، ويربِّت المايسترو على رأسه في رضا قبل أن ينتقل لمجموعة أخرى. كرر هذا حتى مر بهم جميعًا، ثم وقف في دائرة صنعوها له في منتصف المخزن الهائل. تعلقت رقاب المريدين به كأنه نبوءة على وشك التحقق.

- أنتم الآن... باب الخلاص.

اهتاجت الحشود بالفرحة والتأييد قبل أن يُسكتهم بحركة من يده... وتذكر... السجين صفر وهو يقول ما كرره لأتباعه:

- أنصتوا! هل تسمعون؟

سكن الجميع كأن على رؤوسهم الطير، وأغمضوا أعينهم وهم يتمايلون في حالة استشعار عالية.

- تلك الموسيقى.. تلك الكلمات.. تلك التوسلات.. العالم كله يمد إليكم يديه، يطالبكم بالتحلي بالشجاعة... من أجله. يطالبكم أن تفعلوا ما لا يجرؤ أي منهم على فعله.

قطّب حاجبيه بقوة، وأضاف بنبرة أعمق، وأقوى، كأن كل طاغية حكم شعبًا قد جاءت روحه لتسكن صدر عازف الأقدار وتضم صوته إليه.

- هل ستتركونهم ينتظرون؟ يتألمون؟ يبكون؟

- لاااا!

ارتجت القاعة بصيحتهم فأضاف بكل قوة:

- إذًا ماذا تنتظرون؟

- أطْلِقنااااا!!

هكذا صرخوا، حتى شعر الألوسي بزجاج المخزن يكاد أن ينفجر. ثم كالوحوش في البرية، انطلقت الحشود خارجة من الأبواب

والنوافذ. ركضوا فوق الثلوج، بين الأشجار. هبطوا الجبال حتى اختفوا عن ناظرَي الألوسي الذي عادت عيناه إلى المايسترو بعد أن خلا المخزن إلا منه. ارتعش صوت الألوسي وهو يقول ليرنّ صوته بين جدران المخزن الذي صار خاويًا:

- هتطلق سراحي؟

- لأ.

احتقن وجه الألوسي الأبيض، وارتعش جسده الذي صار هزيلًا من المرض هاتفًا:

- يعني إيه؟ سيبني بقى... أرجوك!

رفع المايسترو عينيه لمحدثه قائلًا:

- إنت خط الدفاع الأخير، لو أعدائي معملوش دورهم هتعمله أنت.

حدجه الألوسي بكل ما يحمل من كراهية وغِلّ وهتف وهو يشير للجيش الصغير الذي انطلق حرًّا:

- هو أنت فاضل لك أعداء؟ فيه حد دلوقتي يقدر يقف قصادك؟ إنت معاك جيش من المجانين ممكن يضحوا بأي حاجة علشانك، جيش ممكن يرعب دول بحالها. لو بتتكلم عن حازم وهبة، بمنتهى السهولة ممكن نصفيه. وسليم لقمان أسهل منه. خليني أعمل لك الخدمة دي وسيبني، جسمي مش هيستحمل شهر كمان والفيروس ده جوايا.

ذابت ملامح المايسترو ليعود البرود القارص إلى وجهه، وقال ما

جعل الألوسي يتخلص من نظرة الكراهية، وينكمش كالقط المذعور:

- أنت نسيت عايدة ناعوت. لأ يا ألوسي، مش ده اللي أنا عايزه منك. إنت وعايدة وحازم لكم دور أهم مما تتخيلوه.

ثم ابتسم كالتماسيح وهو يقول:

- أما سليم لقمان... فهو ميعرفش إني انتصرت عليه من زمان.

عايـدة

الكتابة، هي أكثر الأعمال إصابة بالوحدة... لأكبر عدد من الجماهير.

***

حروف وكلمات تحملها أوراق، وتحلق بها إلى كل بقاع الدنيا. تكتب وحدك. تتألم وحدك. تخلق عالمك وحدك.. لكن عملك هذا يقرؤه الآلاف في وقت واحد، أو هكذا تتمنى. تضادّ مؤلم.. يذكِّرك دومًا بأنك تقف على خشبة مسرح عملاق، تُبدع في تجسيد ما يعتمل في صدرك، أمام صفوف لا نهاية لها. صفوف موقن أنها مزدحمة عن آخرها، لكنها بالنسبة إليك – بسبب الإضاءة المسلطة عليك – غارقة في الظلام. تعلم أنهم هناك، لكنك لا تراهم، لا يأتيك منهم سوى همهمات تنتقد عملك، أو تمدحه.

ثم تأتي أوقات، تشعر فيها أن الكلمات يمكنها أن تصف... أحيانًا. وأحيانًا أخرى تقف عاجزة، معقودة اللسان، أمام موقف أكبر من أن تختزله في حروف. مثل هذا المقطع الذي جاء شقيقي عيسى ليُريني إياه على هاتفه المحمول في غرفة مكتبي. يقف بجواري الآن، بشعره الذهبي الملتوي وعينيه الخضراوين اللتين شقهما مرض متلازمة داون. لسانه يتدلى خارج فمه كي يستطيع التنفس بسهولة، والحماس يطل من ملامحه الجميلة.

أبتسم له فيشير لهاتفه ويقول.. ناطقًا الراء نونًا:

- بصي يا عايدة. إتفنجي.

مشهد مدته دقيقة لأُمّ سمراء مع ابنتها ذات الأعوام الخمسة، ترتدي فستانًا أبيض عليه علم أمريكا. سمراء مثلها ذات ملامح غليظة، وشعر خشن تجاهد أمها كي تصففه لها وهي مبتسمة. يبدو لي أنه كان من المفترض أن تكون لقطة مرحة بين أم وابنتها في سياق ما. لكنها انتهت عكس ذلك تمامًا.

فقد حدقت الطفلة في كاميرا الهاتف، تشاهد نفسها على شاشته، شاردة. ثم بدون أي مقدمات، تقول لتصدمني كما لم تصدمني كلمات من قبل:

- أنا قبيحة للغاية.

شعرت كأن روحي قد اندفنت أسفل أطنان من الثلج. تسمرت يد أمها، وأمسكت رأس ابنتها لتديره إليها قائلة:

- لماذا تقولين ذلك؟ أنت جميلة جدًّا.

تتلألأ الدموع في عينَي الطفلة، ويتهدج صوتها وهي تجيب:

- أنا قبيحة يا أمي.

- من الذي قال لكِ هذا؟ أنت أجمل بنت في الوجود.

هكذا أخذت أمها تكرر وهي تحتضن ابنتها التي انهارت في البكاء. لم يستمر المشهد أكثر من هذا، فقد أنهت الأم البث المباشر. لكنه تم إعادة نشره ومشاهدته ملايين المرات حتى وصل إليَّ.

أغلقت عيني ألمًا. ما الذي مرت به هذه الطفلة كي تقول هذا؟ ما الذي فعلوه بها؟

- ممكن نجيبها عندنا في الجمعية يا عايدة؟ تبقي أنتِ الدكتونة بتاعتها هي كمان؟

فتحت عينيّ لأنظر إلى شقيقي. مسحت دموعي وشققت ابتسامة على شفتيّ بصعوبة، شفتاي اللتان كانتا متيبستَيْن كشفتَيْ جثة.

- صعب يا عيسى. دي في أمريكا.

نظر لركن الغرفة إلى يساري، وابتسم. ثم التقط هاتفه وأسرع خارجًا من الغرفة وهو يقول بحماس:

- أنا عِنِفْت هعمل إيه.

التفتُّ للركن الذي نظر إليه عيسى، فلم أرَ شيئًا. هززت رأسي مستسلمة لغرابة تصرفه، قبل أن ألتفت لما لديَّ من أعمال. قائمة طويلة من بين زيارات ومتابعة تفاصيل يومية، إدارية ومالية وفنية. فأنا الآن أدير جمعية "ترياق" الخيرية لرعاية ذوي الاحتياجات الخاصة والمكلومين من أهالي ضحايا الحوادث والجرائم. كيان غير هادف للربح، شجعتني عليه ماما تيسير والدة حازم. ساعدتني ماديًّا ومعنويًّا وإداريًّا، حتى منعها مرض ألزهايمر وعزلها عني وعن الدنيا بالتدريج.

هذه الأيام بالذات تضاعفت مهامي بسبب المسابقة الفنية المقبلة التي تنظمها الجمعية لذوي الاحتياجات الخاصة، اقتراح وتخطيط شقيقي الذي أفخر به. خرجت من مكتبي لأتحرك كالنحلة من غرفة لأخرى، أتابع الرسومات والمنحوتات والأعمال اليدوية التي يقوم بها

عيسى وأصدقاؤه تحت إشراف متخصصين. كنت أعلم أن شقيقي هو المرشح الأول للفوز، فعينه تلتقط أجمل المشاهد وترى ما لا نراه. أصبحت كاميرا البولارويد لا تفارق رقبته، وهي ما يعينه على تخليد المشهد في إحدى رسوماته كما يقول. لقطة مثالية، ضوء مثالي، زاوية مثالية وحالة نفسية مثالية.. لحظة مثالية يجب أن تظل للأبد.

لكنه مؤخرًا، صار له اتجاه غريب وتصرفات أغرب. مثل هذه الرسمة التي وقفت أمامها في نهاية اليوم.

- عيسى، هي دي البنت الأمريكانية السمرا؟

لم يُجبْنِي بالطبع، فقد كان في إحدى حالات الانغماس التام فيما يفعله.

تأملت اللوحة وتعجبت.. لماذا رسمها بهذه الطريقة؟

هي نفس الطفلة بكل تأكيد. فستانها الأبيض منقوشٌ عليه علم أمريكا، وهناك يد سمراء سميكة تصفف لها شعرها، يبدو ملتويًا مجعدًا مثل شعرها في الحقيقة لكنه كان سهل التصفيف، كأن الفرشاة تعرف طريقها بين خصلاته المتينة. أما أكثر ما كان يدهشني فهو ملامحها، لقد رسمها عيسى سمراء كما كانت، ممتلئة، ذات شخصية. لا أستطيع وصفها أدق من هذا، فهي إحدى تلك الأشياء التي تعجز عنها الكلمات.

لكنه رسمها... فاتنة.

وهذا الظل الذي يكتنف خلفية الرسمة، ليست المرة الأولى التي

أراه. يشبه الدخان، كأن هناك غيمة ما، طيفًا أدْكَن يشبه... جناحًا؟ لا أدري. فهو كالسحاب، تشعر أن له شكلًا ما، لكنك تفشل في تمييزه.

اكتفيت بالابتسام، ومررت بين بقية الرسامين من أصدقاء عيسى على عُجالة، ثم دق هاتفي. نظرت لأجد اسم حازم، فخرجت للردهة وأجبته بلهفة:

- حازم.. إنت اللي بتتصل؟ مش ممكن! إنت كويس؟

صوته مرهق، لكن به بعض الحماس، شيء لم أسمعه في صوته منذ فترة طويلة، مختلفًا عن نبرته الآلية الملبدة بالغيوم.

- أنا كويس يا عايدة... كويس جدًا.

ابتسمت ونسيت غيظي منه وأنا أقول:

- هعرف إنت كنت فين ولّا بلاش أتعب نفسي في السؤال زي كل مرة؟

- بلاش. المهم إن أنا راجع يا عايدة... راجع البيت.

***

طيلة طريقي للبيت كانت هناك ابتسامة على وجهي. أنساب بسيارتي الصغيرة بين الزحام بهدوء وسكينة افتقدتهما بشدة الشهور الماضية. توقفت بالسيارة في إحدى الإشارات المرورية وأمسكت بالمرآة لأوجهها إليّ. تأملت ملامحي. تلك الخطوط التي شقت طريقها حولها، نذير تجاعيد الشيخوخة. الشعرات الرمادية التي بدأت تظهر بين الموج الذهبي. الانحناءة الخفيفة لجفوني، بشرتي

التي فقدت نعومتها، أسناني التي فقدت لمعتها. هل ما زلت جميلة؟

لمحت عيسى مبتسمًا هو الآخر وهو ينظر إليّ.

- إيه؟ فيه إيه؟

قلتها وأنا أضحك في وجهه.

- إنتي حلوة يا عايدة.

شعرت بالدم يصعد لوجهي، فنظرت في المرآة لأجده قد عاد جميلًا. هربت بعيني بعيدًا، أحلم بأشياء لم أجرؤ على التفكير بها، قبل أن أستعيد سيطرتي على أفكاري. اهدئي يا فتاة، كل ما قاله لكِ حازم هو أنه عائد. نظرت مرةً أخرى لعيسى لأجده يلتقط صورة بالكاميرا البولارويد التي صارت جزءًا من تكوينه، التقطها لشحاذ يقف عند مطب صناعي، مفتقد إحدى ذراعيه.

- بيمثل يا عيسى، دراعه مش مقطوع ولا حاجة.

- لا مقطوع يا عايدة.

- يا حبيبي تلاقيه حاطُّه ورا ضهره ولا جوّة كُمّ الجلابية.

- ما هو كدا يبقى مقطوع يا عايدة.

وكعادته مؤخرًا، ينطق عيسى بأشياء غير مفهومة تبدو للوهلة الأولى بلا معنى، لكنها تستقر في الذهن بطعم مختلف ومعنى أعمق. تُرى، هل يقصد أنه مبتور الذراع في ذهنه أم أمام الناس؟ أم هي كلمة لا يدرك معناها؟

لكن ما قاله وفعله بعدها كان أغرب من كل ما سبق.

- اخترت الرسمة اللي هتدخل بها المسابقة؟

- مش هلحق.

- ليه؟ ده إنت عندك لوحات حلوة قوي. كفاية بتاعة الطفلة الأمريكانية.

- مش هلحق.

كررها مرةً أخرى وكنا قد وصلنا للبيت. فما كان منه سوى أن التفت للكنبة الخلفية وقال:

- حاضر.

ضغطت المكابح بعد أن عبرت بوابة الڤيلا، والتفتُّ كالملسوعة لأنظر إلى الأريكة، التي كانت خاوية كما توقعت.

- بتكلم مين يا عيسى؟

كان قد انغمس في دفتر رسوماته وانعزل في شرنقته. وأول ما بدأ به هو ذلك الطيف الأدْكَن، يظلله بالقلم الرصاص ويمعن في تفاصيله التي لا تزال صعبة التمييز.

***

- بقولِّك تصرفاته بقت غريبة جدًّا يا نهلة. ده كان بيكلم نفسه. ودي مش أول مرة. وبعدين رسوماته بقت مقلقة، فيها خيال غريب كدا في خلفيتها كلها. خايفة تكون مشكلة في نظره.

سكتت محدثتي لوهلة، تفكر. انتهزت الفرصة كي أغلق زجاج باب السيارة حتى لا يسمعني عيسى الذي ترجل من السيارة في اللحظة التي توقفت فيها. اتجه مباشرةً لماما تيسير، في مكانها المفضل: البقعة التي كانت تزرعها مع أطفال رجب، رحمهم الله.

كانت شبه نائمة على كرسيها الطبي. مائلة على جنبها وفي يدها المعول الصغير الذي لا يترك يديها، يكاد ينفلت من بين أناملها. قام عيسى بدفعها برفق كي لا تسقط، فاستيقظت وابتسمت بملء فيها حين رأته أمامها. أمسك بدفتره وأخذ يريها رسوماته بفخر. رفعت يديها الهزيلة المرتعشة وتحسست وجهها الدائري البشوش دون أن تنطق. اعتصرت يدٌ باردة قلبي حين رأيت تأثير الشلل الرعاش عليها، الذي اتحد مع ألزهايمر ليحيل تلك المحاربة القديمة إلى وعاءٍ خاوٍ.

لم تستمر صحوتها سوى ثوانٍ، انغلقت بعدها عيناها رغمًا عنها، وسقطت يدها مرةً أخرى وانفلت المعول. تأملها عيسى للحظة دون أن تفتر ابتسامته قبل أن يستدير ليتركها ويدخل الفيلا.

- تحبي أسأل سليم؟

هكذا قالت نهلة لتعيدني إلى المحادثة. توقعت أن تعرض عليَّ هذا الأمر وكنت قد قررت أن أوافق لو فعلت، فلم أعد أسيرة لا مبالاة مستر جراي وثباته، فشتان بين السور الذي بناه حول نفسه ليحميها والقلعة التي شيدها حازم حولي ليحميني. لكني وجدت نفسي اليوم أرفض عودة سليم لقمان إلى حياتنا. فأنا أريد أن أنساه وأنسى الوحش الآدمي الذي كان سبب تعارفنا. أريد أن أنسى أن عيسى

بالنسبة لمستر جراي كان مجرد تَحدٍّ، قطعة من "بازل" تحيره، عقله باب قبو مصفح يريد أن يعرف ما وراءه. والأهم من هذا أنني أريد أن أمهد قلبي للنبتة التي أريد زرعها به.

- مفيش دكتور تاني؟

- سليم أشطر دكتور مخ وأعصاب حالياً. رغم إنه مبقاش بيمارس رسميًا بس الناس والجامعات ودكاترة كبار بيطلبوا رأيه لغاية دلوقتي. عمومًا خليني أشوف وأرجعلك. قوليلي بياخد أدوية إيه بانتظام؟ عايدة؟ ألو؟

أخفضت الهاتف لا شعوريًا وأنا أراقب حازم الذي ظهر لتوِّه من بين الشجيرات. كعادته يأتي ويذهب كالطيف من البوابة الخلفية، متعمدًا ألا يلتقي بأحد منا. لكنه اليوم لم يسرع بالاختباء في غرفته.

- آآآ.. معلش يا نهلة. هبعتلك لِستِة الأدوية. سلام دلوقتي. حازم رجع.

أنهيت المكالمة وأنا أتابع نظرات حازم لمشهد أمه التي انكمشت في كرسيها كالطفل الرضيع. تلك النظرة التي يعطيها لأمه النائمة، كأنه يستعذب المشهد، يعيشه بكل وجدانه، لا يريد أن يطرف له رمش أو تفوته لحظة واحدة. لكنه لم يكتفِ بمراقبتها هذه المرة، بل خرج من وسط الشجيرات متوكئًا على عصاه وذهب إليها. تحسس شعرها الفضي الناعم ووضع عكازه بجوارها ثم انحنى ليجلس القرفصاء أمامها. طفق يتأمل ملامحها. تلألأت عيناه للحظة قبل أن تجفَّا في أقل من ثانية ومد يده ليحيط أمه بذراعيه الهائلتين

ويحملها كأنها بلا وزن، يضمها إلى صدره بحنان. ثم نهض، متحاملًا على أوجاعه، ودخل بها الفيلا.

أغمضت عيني للحظة كي أتحكم في مشاعري المتضاربة. من بين فرح لعودته إلينا وألم بسبب كسرة قلبه على أمه. ترجلت من السيارة وهرعت إلى غرفتها لأجده جالسًا على الأرض بجوار فراشها. شعرت به يناجيها. فتحت عينيها للحظة ورفعت حاجبيها بابتسامة صامتة حين رأته قبل أن تسقط جفونها مرة أخرى.

دخلت الغرفة لكنه لم يلتفت إليّ، اكتفى بنصف استدارة من رأسه، معلنًا أنه شعر بوجودي، قبل أن ينظر لأمه مرة أخرى.

- كان نفسي تسامحني.

- هي مسامحاك يا حازم. ابتسامتها في وشك أكبر دليل.

سكت للحظة قبل أن يقول:

- ابتسامتها دي مش علشاني، علشان صورة ابنها اللي فاكراه. حازم بتاع زمان مش دلوقتي. حازم اللي ما سابش رجب وعياله يموتوا في القطر علشان كان مستخسر يعمل مكالمة تليفون. حازم اللي متخلاش عن مطاردة المايسترو وساب منعم يروح يموت بداله. ودلوقتي حتى الغفران مش هقدر أطلبه منها ولا هي تقدر تديهولي.

التقط الغطاء ليدثرها به، ثم أمسك كفها وأغلق عليها كفيه الهائلتين فذهبت إليه ووقفت وراءه. أردت أن أحتضنه لكن الصوت جاء من خلفي:

- كويس إنتوا لقيتوا بعض.

التفتّ لأرى عيسى ينظر إلينا. ثم رفع عينيه لنقطة ما فوقي. رفعت رأسي لكني لم أرَ شيئًا.

- حاضر.

هكذا كرر عيسى الكلمة غير المفهومة وهرع خارجًا من الغرفة. انتبه حازم للحوار فنهض ليستدير إليّ، شبح ابتسامة منكسرة تجاهد للظهور.

- حازم...

بترت جملتي فأطرق للحظة مفكرًا قبل أن يرفع رأسه بابتسامة حقيقية قائلًا:

- خلاص يا عايدة. اللي أنا كنت خايف منه خلاص.. مبقاش موجود.

- المايسترو؟

للحظة كادت ابتسامته أن تختفي لكنه نجح في الاحتفاظ بها وهو يقول:

- مش مهم. المهم إنه راح.

فتحت فمي لأسأله عما كان يفعل طيلة الشهور والأعوام الماضية، تلك الأفعال التي كانت تجعله محاطًا بهالة سوداء من الغضب والعنف، لكنه وضع إصبعه على شفتيّ ثم سحبها بمنتهى الرقة قائلًا:

- متسأليش، الأهم من كل اللي فات إنك متسأليش. أنا في رقبتي دين وأخطاء كبيرة قوي. إديني فرصة أصلحهم.

أمسكت يده التي أنزلها من فوق شفتيّ، بالكاد أحيط إصبعيه بكفِّي، وجال بخاطري واقع مؤلم: كلنا غرباء. أنا وحازم وسليم وعيسى. حتى نهلة وحِجّي، كلنا نسير وحدنا وسط الزحام.

- ساعدني أشيل الحمل معاك. بلاش تقولِّي كنت بتعمل إيه السنتين اللي فاتوا، إحساسي بيقولي بلاش أعرف. بس على الأقل قولِّي إيه اللي حصلَّك زمان. إيه اللي غيّر حازم وهبة وكسره كدا؟ إيه اللي حصل في المهمة إياها يا حازم؟

هــو

يصل إلى مطار شارل ديجول بباريس آلاف المسافرين كل ساعة، لكن هذا المسافر الأشقر الذي يرتدي معطف صوف أسود بالتحديد... كان مختلفًا. ليس بسبب عدم وجود أية حقائب معه ولا متعلقات ولا حتى هاتف محمول، بل لأنه ما إن نزل من الطائرة وخرج من الممر الطويل الذي يصل مبنى السفر إلى الجوازات، حتى توقف عن الحركة تمامًا. لا، لم يتسمر مكانه كالتمثال أو أصابه شلل ما، فقد كان يتلفت حوله بطريقة عادية، كأنه في ردهة منزله ومن حوله هم الدخلاء عليه. لكنه فرد كفيه بجواره ليلمس كل من يمر به، ويجول بنظره في الصالة المزدحمة محدقًا في وجوه الناس بطريقة غير مريحة لهم. ولهذا السبب تقدمت إحدى المسافرات لتشكوه لأحد الضباط.

ذهب إليه الضابط وسأله بإنجليزية ذات لكنة باريسية واضحة:

- لماذا تقف هكذا؟

لكن المسافر الأربعيني الأشقر لم يُجِب، بل ظل محدقًا به بلا أدنى تفاعل. ينظر مباشرة في عينيه.

- أرني جواز سفرك.

للمرة الثانية لم يرد المسافر. لفت الموقف انتباه المسافرين، والتفتوا ليتابعوه باهتمام، وخصوصًا أن الضابط قد أشار لأحد زملائه أن ينضم إليه. امتثل الضابط الأصغر سنًا للطلب وتقدم من

خلف الغريب واضعًا يديه على سلاحه. وما إن تأكد الضابط الأعلى رتبةً من تأمين زميله للمسافر المريب، حتى صاح وهو يمد يده ليتحسس سلاحه هو الآخر.

- للمرة الأخيرة، أرنا جواز سفرك!

هكذا صاح الضابط الذي جاء من الخلف، ليلتفت له الغريب ويبتسم. هنا فاض الكيل بالضابط الأول، وهب ليمسك بيده، وفعل الضابط الآخر الشيء نفسه. لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ قليلة، حتى أصبح تحت السيطرة، بعد أن جاء ضباط آخرون ليدعموا زميليهم. حدث كل هذا دون أن يتخلى المسافر المريب عن ابتسامته، حتى طُرح أرضًا وقُيّد معصماه وراء ظهره. ثم تسمرا مكانهما. فهذه ليست المرة الأولى التي يريان فيها هذا الوشم العجيب المنقوش على رقبته...

... رمز الموسيقى الأسود الملتحم بالقلب الأحمر.

سليم

لم أكن منتبهًا لحديث نهلة الذي انطلق ليرجّ مطبخي الأمريكي، وهذا لأنني كنت شاردًا في تلك الأشياء التي تظهر للمحة من البصر في طرف رؤيتي، تتساقط كأنها أوراق أشجار سوداء وقت الخريف. وما إن نزعت النظارة عديمة العدسات عن وجهي حتى اختفت من مجال الرؤية. قلبت النظارة في يدي محتارًا قبل أن أستسلم متجاهلًا الظاهرة، أحد الألغاز والرسائل الغامضة التي يرسلها الجماد ولم أجد لها تفسير حتى الآن.

كم يستفزني هذا. تنهدت وحولت بصري عن النظارة إلى جهاز تحضير القهوة الآلية المستقر أمامي على كاونتر المطبخ الأمريكي، في حين خرج صوت نهلة عبر مكبر صوت الهاتف الموضوع بجانبي.

- ده واحد مجنون وفاكر نفسه نبي ولَّا إله، أستغفر الله العظيم، وكان بيقتل الناس علشان، قال إيه، يرحمهم من العذاب اللي في حياتهم. علاقة إيه بس اللي بتربطك بيه؟

تأملت كفِّي التي وضعتُها على باب شقة عايدة، اللحظة التي كنت فيها أقرب ما يكون لعازف الأقدار بعد أن شعرت أنه فعل المثل من الناحية الأخرى. سكتت نهلة للحظة ثم أضافت بنبرة أكثر رزانة:

- مش هتلاقي معاه الإجابة اللي بتدور عليها يا سليم، ده لو كان لسه عايش. مش بعيد يخلي بوصلتك تبوظ وتتوه زي ما هو تايه في الضلمة. سيبك بقى من القضايا الغريبة اللي بيجبهالك الظابط جحا ولا حِجِّي ولا اسمه إيه ده. الناس عايزينك يا سليم. متضيعش

حياتك بتطارد فكرة واحدة.

- أنا قلتلك يا نهلة إني حاسس إن...

- إن فيه حاجة جاية. عارفة. بقالك قُرب التلت سنين بتقول ده ومفيش حاجة بتحصل. وحتى لو المايسترو عايز يعمل مصيبة تانية زي بتاعة محطة مصر مستحيل نعرف فين وازاي. الباب ده اتقفل خلاص يا سليم، متفتحوش تاني.

كان هذا شعوري الحقيقي، عد تنازلي لعين أشعر به خافتًا في خلفية أحداث حياتي، إحساسٌ طاغٍ أن هناك كارثة ستحدث قريبًا... تسونامي سيهجم على شواطئنا ليجعل الحياة ركامًا. تسونامي يسبقه هدوء مخيف. الأصوات حولي صار لها صدى كأن الموجودات كلها قد بدأت تتلاشى تدريجيًا تاركة وراءها خواءً عظيمًا.

هل أنهى عازف الأقدار عمله؟ لا أظن، فقد وعد بسيمفونية يسمعها العالم بأكمله، وليس من هم مثله من ينقضون عهدهم. وهو على قيد الحياة أنا موقن من هذا.. لا أزال أشعر به. وبحسبة بسيطة، استنادًا على ما قاله المقدم منعم – رحمه الله – فهو كان في الستينات منذ ثلاثة أعوام، ولهذا فهو الآن في أواخرها أو بداية السبعينات.

إن وقته ينفد...

- ساعات الباب بيتقفل لما حد بيفتح شباك قصاده يا نهلة.

- يووه. مش هخلص من فلسفتك دي. بص، انسى بقى الموضوع ده، أنا غلطانة إني فتحته. أنا بكلمك علشان أستشيرك في حاجة،

بس خايفة تتضايق.

أصدر الجهاز أزيزه معلنًا انتهاءَه من تحضير القهوة، فصببتها لنفسي في فنجان وذهبت لأجلس على الأريكة أمام النافذة العريضة، أتأمل الشارع والحديقة بالأسفل التي انهمرت الأمطار لتحيلهما إلى بحيرات.

- قولي يا نهلة. مش هَتضَّايق لو جبتي سيرة عايدة. مش عارف ليه إنتِ مقتنعة إني متيم بها.

- مش القصد... المهم. هوصفلك حالة عيسى وتقولِّي رأيك.

عايدة... الشقراء الفاتنة ذات العيون الخضراء التي جاءت لتشعرني كم هي رمادية حياتي. لشهور وأعوام تفاديت حتى التفكير فيها، تناسيت ما حدث في محطة مصر، تفاديت ذكراها وهي تركض هنا وهناك، بين الضحايا، تقوم بشيء لا أستطيع حتى تخيله. كنت أداوي أجسادهم، كما تعلمت في الكتب وعلى طاولات غرف العمليات، أنجح مع حالات وأخفق مع أخرى، تهزمني حتمية النيران وقوانين الطبيعة القاسية.

لكنها كانت تداوي أرواحهم، وليس هناك فشل في هذا، ليس هناك هزيمة لمن يطيب النفوس.

هي دومًا منتصرة، بينما أنجح أنا... أحيانًا.

انتبهت لكلام نهلة بكل تركيز قبل أن أقول:

- شكله إيه الخيال ده؟

- عايدة معرفتش توصفه. هبعتلك صورة. رؤية حاجات مش موجودة ممكن تكون مشكلة جهاز عصبي، مش كدة؟ بس بيكلم نفسه ليه؟

نهضت لأذهب إلى غرفتي لآتي باللوحة التي كان عيسى قد رسمها لي منذ أكثر من عامين. قمت بفردها على المكتب وتأملت هيئتي بالبالطو الأبيض والشارب الرفيع وأنا أحتضن تمثالًا من الثلج على شاطئ البحر الهائج. سماء المنظر غائمة ملبدة بالغيوم وحولي، مئات من أزواج البشر، رجالًا ونساءً، مكررين بأكثر من صورة وهيئة ومنتشرين فوق الرمال والتلال. مشهد كل ما فيه يشي أنه نهاية العالم، حيث يلجأ كل محب لحبيبه وألجأ أنا... لتمثال من الثلج.

لوحة في منتهى القسوة، لوحة هزتني كما لم يفعل شيء من قبل، وكانت نقطة تحول في حياتي. كانت اللحظة التي شعرت فيها أن الدنيا تتعامل مع من هم مثل عيسى بغير حياديتها وأن منظورهم مختلف عن الطريقة التي نرى بها الأشياء، له ذبذبة أو تردد مخالف لقدرة البشر العادية.

قارنت المشهد بالصورة التي بعثتها لي وانتبهت إلى شيء...

هذه الهالة الدَّكْناء حولي في لوحة عيسى، إنه نفس الخيال الذي رأيته على جدار العجوزين ضحيَّتَىْ ابنهما.. الظل الذي كان حِجِّي يقف أمامه واضعًا ذراعيه في وسطه.

ثم دق جرس الإنتركوم.

- إنت طالب حاجة؟

- لأ. هشوف مين وأكلمك تاني يا نهلة. سلام.

أنهيت المكالمة وأنا أدقق النظر في ذلك الظل الضخم الذي يحيط بي في اللوحة دونًا عن غيري، والذي يشبه إلى حد كبير خلفية لوحة الطفلة التي أرسلتها لي نهلة. أدرت اللوحة لأنظر إليها من زوايا مختلفة في محاولة لفك طلاسم الأحجية العجيبة التي أراها أمامي. هي ليست أوساخًا أو شخبطة بل...

هل هذان... جناحان؟

تزاحمت في رأسي التحليلات والتفسيرات حتى كادت أن تتعقد، فأرجأت الأمر وذهبت للإنتركوم.

- مين؟

- دكتور سليم، أنا دكتور عاطف المُلّا.

عاطف المُلّا؟ اعتصرت ذاكرتي حتى تذكَّرت الاسم.. إنه من درست معه الفيزياء الكونية.

- دكتور عاطف، يا أهلًا بيك.

***

"آرثر كونان دويل!" هكذا هتفت لينفتح باب الشقة بصوتي.

استقبلت زميلي الممتلئ القصير، ومعه ضيف لم أرَهُ من قبل: أربعيني رفيع، طويل القامة، كثيف الشعر، أسوده، ذو حاجب كث، وأكتاف عريضة، وشارب ملتحم مع ذقنه المنمق. لكن المميز فيه

– بالإضافة لكونه يرتدي بذلة قرمزية ذات طراز باكستاني – هما عيناه، إذ لديه عين أصغر من الأخرى.

دعوتهما للدخول لكن، قبل أن أغلق باب الشقة، لمحت فردتَي حذاء جلدي أسود أمام المصعد. تخشبت يدي الممسكة بالباب للحظة وأنا أحاول استنتاج سبب وجودهما هناك، فشقتي هي الوحيدة في الطابق الأخير، لكن عاطف قطع تفكيري حين قال بالإنجليزية:

- الدكتور عازر.. بالتأكيد تعرفه.. شركة جولدنفيلر.

هكذا عرَّفه عاطف، فأومأت له مؤكدًا ما قال، وأغلقت باب الشقة وأنا أرمق فردتيَ الحذاء في شك.

لقد أرسل لي المُلا إيميل منذ فترة ليخبرني عن رغبة هذا الـ "عازر" في الحديث معي. لم يخبرني بهويته سوى أنه عالِم ما، وكنت قد نسيت الأمر برمته. دعوتهما إلى الصالة، وذهبت لأخلي لهما مكانًا بين الأوراق والكتب التي اختفت تحتها الأريكة.

- دكتور سليم، سعدت برؤيتك أخيرًا.

قالها الضيف بإنجليزية ذات لكنة خنفاء عجيبة، وهو يختلس النظر للأوراق التي رفعتها ووضعتها على المكتب. رأيت أن له بالفعل لازمة يفعلها بعينيه، يضيّق واحدة ويعبس بالأخرى، كأن هناك دُخانًا يضايقه. وما إن جلس حيث أفسحت له وأخرج غليونه، حتى فهمت أنه يضيق إحدى عينيه بسبب الدخان.

- رجاء، لا يوجد لديّ منفضة سجائر.

فهم مقصدي، فوضع غليونه أمامه على الطاولة الرمادية القصيرة، قبل أن يجول بعينيه في الشقة، كأنه يبحث عن شيء.

- بيت دكتور سليم لقمان، "مستر جراي" الشهير. هذا مثير، مثير للغاية.

نظرت له من فوق النظارة عديمة العدسات، ثم رمقت دكتور عاطف لأجده يفعل مثل زميله.

- ما المثير في شقتي؟

- كل شيء. اللون الرمادي الغالب على كل شيء، أنيق، بسيط، سهل، بل يمكن القول إنه سهل لدرجة العبقرية. لون يجعل كل الخيارات متاحة، كل الطرق محتملة، لون بلا ندم، يحير أعداءك.

قالها عازر فبادرته بنفاد صبر:

- هو مجرد لون، ليس إلا.

أطلق ضحكة قصيرة لوى فيها شفتيه قبل أن يقول:

- لا يوجد شيء معك هو "مجرد" و"ليس إلا". أنت أعمق من هذا يا دكتور. هذه شقة تليق فعلًا بـ "مستر جراي"، العبقري الذي يستطيع أن يمرر يده فوق أحجية فتحل نفسها. ألم تساعد الشرطة هنا في حل جرائم عديدة، أبرزها قضية عازف الأقدار الشهيرة؟

التفتُّ لعاطف بتعبيرٍ حائرٍ ملولٍ من كثرة ألغاز هذا الشيء، تعبير لا يمكن لعاطف الخطأ في قراءته فبادرني قائلًا:

- آآآ.. دكتور عازر من أشد المعجبين بأبحاثك وأفكارك يا دكتور سليم، وبالأخص الفترة الأخيرة. الحقيقة...

حككت شاربي بأسناني السفلية مغتاظًا من كل هذه المقدمات والاستخفاف بعقلي، وفيما يبدو أن عازر قد شعر بهذا، فرفع إصبعه ليُسكِت عاطف في تصرف ذكي، ليخبرني من المسيطر هنا، قبل أن يقول:

- دكتور سليم، دعنا نتكلم مباشرةً كي لا نضيع وقتك الثمين. مؤخرًا... (قالها ووضع ساقًا فوق الأخرى ليظهر حذاءه البُني المصنوع من جلد الثعبان) مؤخرًا كانت كل أبحاثك ومقالاتك ولقاءاتك تدور حول أشياء.. حسنًا، دعنا نقول إنها "مثيرة".

عضضت شفتي مغتاظًا من طريقته المسرحية فأسرع ليوضح:

- مثيرة بمعنى أنها تدور في فلك لا هو علمي ولا هو ماورائي ولا حتى فلسفي، بل مزيج من الثلاثة. منظور ثلاثي الأبعاد وهو – إحقاقًا للحق – منظورٌ نادرٌ و... خطير.

جاء دوري لأرجع بظهري وأستند على الكرسي الوثير المقابل له قائلًا:

- خطير؟

ابتسم للحظة تبادلنا فيها نظرة طويلة، قبل أن يشير بإبهامه لعاطف الذي التقط حقيبته وأخرج منها ملفًا ليعطيه إياه.

- نعم، خطير. خطير لدرجة أنه لفت انتباهنا وجاء بي لأدق على

بابك.

تصفَّح الملف لوهلة، يقلب بين أوراقه قبل أن يرفع عينيه غير المتناسقتين إليّ ويضيِّقهما قائلًا:

- الطاقة المظلمة، نظرية التطور، النسبية... وغيرها الكثير من الحقائق العلمية التي تعاملت معها بمنظورك ثلاثي الأبعاد المختلف هذا. هذا بالطبع خلاف أفكارك ونظرياتك الخاصة بالزمن والتي فاجأتَ بها الجميع. تقول إن الزمن هو الوجود نفسه... مثير.

قطَّبت حاجبيّ مستغربًا فما قاله لتوِّه كنت قد قلته قبلها بساعات قليلة. حاول تخفيف التوتر باستخدام نبرة مرحة قائلًا:

- ثم بلغت من "الشجاعة" أو "التهور" أنك قلت – في أحد لقاءاتك الشهيرة المنتشرة على الإنترنت – إن العلم لن يتمكن من إجابة الأسئلة الأهم في جميع المجالات.

صمت بعدها كأنه ينتظر تعليقي أو دفاعي عن وجهة نظري، لكني كنت منشغلًا عنه بتلك الأشياء التي كانت تتساقط كالمطر في طرف رؤيتي. نظر عازر حوله، كذلك فعل دكتور عاطف، لكنهما لم يجدا شيئًا بطبيعة الحال. نزعت نظارة سالم عديمة العدسات لتختفي الأشياء المتساقطة من حولنا، ويذهب عني توتري. تبادلا نظرة استغراب قبل أن يستطرد عازر محاولًا تجاهل انشغالي عنه:

- دكتور سليم...

- تقبَّل اعتذاري، فبالي مشغول.

قلتها عائدًا للواقع. هذه الأشياء، لا بد أن لها نمطًا. أعرف أنها تظهر حين أرتدي النظارة وأنه مجرد إطار بلاستيكي أسود، ليس له قدرات خارقة، لكن هذا لو كنا في ظروف عادية، ليس بعد أن تكلم الميكروفون من تلقاء نفسه، وبكت الجدران، وتحركت الدُّمَى. نعم لا بد لها من نمط، أو... غرض ما، مثل بقية الجمادات التي دبت فيها الحياة. انتبهت لعازر حين قال:

- لا بأس. كنت أريد أن أقول إن لدينا عرضًا لك.

قالها وهو يمد يده إليّ بورقة ما، ثم استطرد بفخر:

- هذه اتفاقية تعاون بيننا وبينك، نقدم لك فيها كل ما تحتاجه في أبحاثك في معاملنا.

قالها بابتسامة قرأت فحواها بسهولة، هذا الشخص لم يَعْتد الرفض. تجاهلته وجلت ببصري في بنود الاتفاقية على عجالة.

التوقيت.. إنه عجيب.. لا، بل مخيف.

- مذكور هنا أن الأولوية ستكون للعمل على عُقَّار جديد. ما هو هذا العقار؟ وماذا تعنون بالأولوية؟

- هذه مفاجأتنا لك يا دكتوري العزيز. عقار سيغير خريطة العالم. أبحاثك الخاصة بالنيروسيكولوجي كانت وستظل مصدر إلهام للأفكار والمجهودات العلمية في هذا المجال. هل قرأت كم سيكون التعويض المادي السنوي؟

- لكن أبحاثي وأوراقي العلمية كلها أقوم بنشرها مجانًا على أكثر

من موقع. لماذا تريدون دفع ثمن شيء مجاني؟

- نريد أن نساعد فقط، ونساعد أنفسنا في نفس الوقت. هل لديك أبحاث أخرى تود نشرها؟

وضعت الورقة على الطاولة، وبللت شفتيّ قبل أن أحُكَّ شاربي بأسناني وأقول متجاهلًا سؤاله وتطرقه للجانب المادي تمامًا:

- والأولوية؟ هل تعني أنني يجب أن أؤجل أبحاثي من أجل العمل على عقاركم هذا؟

- بالطبع لا. نحن مهتمون بأبحاثك كلها، بل ونعتقد أنها ستصب في مصلحة عملنا. لكن، أعتقد أنه سيتعين عليك إرجاء التوغل في النواحي الفلسفية حتى نحقق نجاحًا على أرض الواقع.

قالها بحماس فهززت رأسي رافضًا وأنا أقول:

- وبهذا تعني أن أبحاثي ذات "الأبعاد الثلاثية" كما وصفتها هي خيالية لا تمتُّ للواقع بصلة. أليس كذلك؟

تبادل مع رفيقه نظرة خاطفة وقال:

- دعنا نتكلم بجدية يا دكتور سليم.. أم تريدني أن أخاطبك بـ"مستر جراي"؟

- سليم يكفي.

- حسنًا سليم. العلم سيبقى هو المحرك الأساسي لتطور الحضارة البشرية، أما الجانب الفلسفي فهو يصلح للكتب والمنتديات العلمية

ليس إلا. الكلمات التي تداعب بها مشاعر المتفرجين والأفكار الرومانسية التي تنشرها وتستخدمها تصلح فقط كي تجعلك تسطع في سماء الإعلام وتكون مشهورًا. أما في الواقع، فالشيء الذي بإمكانه مساعدة البشرية للتقدم والبناء.. هو العلم، والعلم فقط، بلا فلسفة ولا "روحانيات".

حانت مني نصف ابتسامة بعد أن فهمت ما يحدث، ثم أطرقت مفكرًا للحظة قبل أن أرفع عينَيَّ لأجدهما يحدجانني بكل تركيز، وأقول:

- دعني أسألك شيئًا. لقد نجح "العلم" في القفز بالتطور الحضاري والتكنولوجي في المائة عام الأخيرة كما لم يفعل طيلة المائتَي ألف سنة التي عاشها البشر. سؤالي هنا هو: بعد هذا الكَمِّ من الاختراعات والتطور المذهل، هل صارت حياة الإنسان أفضل؟ وبأفضل أعني هل نجح التطور العلمي في جعلنا سعداء؟

عقد عازر حاجبيه الكَثَّيْن مستنكرًا وقال:

- بل جعل حياتنا أسهل. انظر كم من الأشياء التي يمكنك فعلها في يوم واحد، أشياء كان يمكنها أن تأخذ منك دهرًا دون التكنولوجيا الحديثة. انظر لتطور الطب والاتصالات، انظر لتطور الكمبيوتر والانتقالات. أنا لا أدري عما تتحدث بالضبط.

زادت ابتسامتي عرضًا وتوقفت عن محاولتي إظهار التواضع. هذا رجل سمج وأغراضه واضحة لدرجة الغباء.

- أنا لم أضع "أسهل" في سؤالي. الغرض الأساسي من كل ما نفعله

هو أن نحيا سعداء، أليس كذلك؟ فلا معنى من حياة سريعة متقنة.. وتعيسة. بل أعتقد أنك مخطئ في اختيار هذه الكلمة، فحياتنا قد أصبحت "أعقد" لا "أسهل". لا أعتقد أن التوصل إلى كمبيوتر يعمل بفيزياء الكَمّ هو هدفنا الأسمى، بل أن نعيش في راحة نفسية في ظل حياة بسيطة خالية من التعقيدات.

- هذا تفكير طفولي،

لم يكمل كلامه لأنني صحت بأعلى صوتي:

- آرثر كونان دويل!

لينفتح باب الشقة بعدها، وأنهض لأذهب وأقف أمامه. تبادل ضيفاي غير المرغوب فيهما نظرة خاطفة قبل أن ينهض عازر قائلًا:

- حسنًا دكتور سليم. لقد أوضحت وجهة نظرك. أرجو فقط التفكير في الأمر. إن مصادرنا لا نهاية لها...

- وكذلك أطماعكم. سعدت برؤيتكما.

أنهيت كلامي وأنا أمد يدي إليه بورقة الاتفاقية. أخذها بعنف وخرج من باب الشقة صائحًا:

- آطف (عاطف)، قادم؟!

لكن عاطف انحنى عليّ، قبل أن يلحق به ويقول بوجه هرب منه الدم:

- فكر بس يا صديقي. الناس دي مينفعش ترفض لهم طلب.

ثم لمح سيده يرميه بنظرة نارية، فهُرع إليه ليدخل معه المصعد.
لا أنكر أن كلام عازر قد أصابني ببعض الغضب، يا للصفاقة والغرور. يظنون أنهم ملوك العالم، يظنون أن معهم عصا موسى.

أغلقت باب الشقة بعنف متجاهلًا نقطة اختفاء الحذاء الأسود من أمام المصعد. فما يحدث خطير وهذا لأن ما ذكره ضيفي المريب لتوّه قلته قبلها بساعات قليلة فقط. ففي هذا الصباح كان الفيديو كونفرنس الأسبوعي مع بروفيسور ريتشارد ستيفنز مثيرًا. لكني لم أتوقع أن يأتي بهذا التأثير.

لم أتوقع أن يكون الشرارة التي تشعل فتيل المعركة ويأتي "بهم" بهذه السرعة إلى بابي...

***

رغم دسامة الوجبة العلمية وتعقيدها لكني تذكرت أنني لمحت عدد المتابعين للبث الحي، فوجدته يتعدى السبعة آلاف. رقم مخيف، خصوصًا لو أدركنا أنه سيتضاعف عشرات المرات بمجرد أن ينتهي البث المباشر ويشاركه من كان يشاهده مع أصدقائه.

- ما الغريب فيما أقوله دكتور ستيفنز؟ الطاقة، سواء كانت مظلمة، أو منيرة، أو قرمزية حتى، فهي لا يمكن أن توجد دون زمن. وحدة قياس الطاقة بها "ثوانٍ" يا ريتشارد، ألا تعلم هذا؟ وهذا يصل بنا إلى أن قبل الزمن ليست هناك إمكانية لوجود أية طاقة. هذا لو كنت مُصِرًّا على استخدام العلم للوصول لسبب وجود العلم نفسه. لقد قلت لك من قبل: لا شيء يُوجِد نفسه، لا بد من شيء "أعلى" منه،

أكثر تطورًا، كي يخلقه.

هكذا قلت لمحدثي فظهرت ابتسامة صفراء أسفل شاربه الأشقر، وانتفخ وجهه الدائري الأحمر كما لو كان قد تجرع نصف زجاجة نبيذ، وقال:

- أكاد أشعر أنك قد كفرت بالعلم يا زميلي "العالِم"؟ كيف تريد أن نتخذ طريقًا غيره للوصول للحقيقة؟ ماذا لو اكتشفنا يومًا ما خطأ نظرية الانفجار العظيم؟ أهي كتاب مُنَزَّل مثل الكتب السماوية ولا يمكنه الخطأ؟ ماذا لو لم يظهر الزمن والمادة معًا في التوقيت نفسه؟ ماذا لو كان الزمن لا نهائيًا؟ كلها احتمالات حقيقية يمكنها ضرب نظرية الانفجار العظيم في مقتل.

كنت أعلم أنه يريد استفزازي، لكني لديَّ مناعة لمثل هذه المحاولات. فأنا لا أريد مكسبًا شخصيًا ولا أريد سحق أحد، لقد أمضيت عامين في دراسة الفيزياء الكونية وميكانيكا الكم وكيمياء الفضاء، لكني لا أسعى للحصول على شهادات ولا إبهار أحد. كل ما توصلت إليه، كل أبحاثي وأفكاري، أضعها مجانية للجميع على أكثر من موقع.

بأكثر نبرات صوتي تواضعًا أجبته:

- لأن الزمن ببساطة لا معنى له بدون بداية. أعلم أنها نقطة صعبة التخيل، لكن لو كان الزمن منذ الأبد، ولم تكن له نقطة انطلاق، لما حدثت هذه اللحظة التي أتكلم فيها معك، ولفقد الزمن معناه. هذا لأنه لو كان الزمن لا نهائيًا، لاستغرق الأمر وقتًا لا نهائيًا كي يحدث

أي شيء. فكر فيها فقط يا صديقي، الزمن لا بد له من بداية يبدأ منها عد الثواني. ولو اتفقنا أن الزمن له بداية، فالمادة والمكان لا بد أن يظهرا في نفس التوقيت. وهذا لأنه لو وُجد الزمن والمادة بدون المكان، فأين سيوجدان؟ ولو وُجدت المادة والمكان وحدهما، فمتى سيوجدان. ولو وجد الزمن والمكان بدون المادة يا أستاذي الفاضل فما الذي سيُوجد؟

ازداد احتقان وجهه مع كلماتي التي تشبه الألغاز، ونظر لمكان ما خلف شاشته، شيء لفت انتباهه هناك وأربكه. لكني استطردت:

- نظرية الانفجار العظيم لا غبار عليها يا ريتشارد، يمكننا أن نتوسع منها، لكن لا يمكن هدمها. لو اتفقنا على حتمية توافق هذا الثالوث، لبلغنا العنصر الأخير والأهم في هذا الكون.. وهو الوعي... ذلك الشيء المهيب الذي جعلنا ندرك هذه المكونات الثلاثة للحياة ونستوعبها. الإدراك يا عزيزي ريتشارد.. هو السر الأعظم. هو الشيء الذي خُلقت من أجله هذه العناصر الثلاثة.

عاد بسرعة لينظر إليّ ويقول:

- ومن أعطانا هذا الإدراك؟ وأين يذهب بعد موتنا يا دكتور سليم؟

أطرقت للحظة تجلى فيها وجه سالم أمامي، لحظة جعلته يبتسم في زهو ساخرًا:

- لهذا يجب أن يوجد خالق.. أليس كذلك؟

رفعت عينيّ لأحدق بوجهه بقوة وأجيبه:

- أهذا هو كل ما يهمك؟ أن تدحض وجود الخالق؟ أنا أسير معك خطوة بخطوة كي نصل للحقيقة، لكنك تصر على التمرد بلا داعٍ. لماذا تسبق الأحداث؟ ما الذي يخيفك لهذه الدرجة من الطريق الذي نسير فيه؟ كل ما قلته هو أننا لا نفهم الزمن بما يكفي.

اقتربت من الشاشة أكثر لأنهي كلامي بالقنبلة:

- الزمن يا زميلي العزيز ليس بُعدًا رابعًا كما تقولون، بل هو الوجود نفسه.

قلتها وأنا أراقب عدد المشاهدين، عشرون ألفًا، وعدد لا حصر له من التعليقات، بعضها منبهر بما أقول، والبعض مستخف به، والجزء الأخير يبدو حياديًا، يحاول استيعاب هذه الطلاسم، أو غير مهتم سوى بتعبيرات وجه ريتشارد المحتدمة، وهدوئي الذي يستفزه.

- أنت تتحدث عن الزمن بمنتهى الجرأة يا دكتور سليم، كأنك تعرف شيئًا لا نعرفه. ألهذا علاقة بموضوع بحثك الذي شوقتنا إليه؟ ألم يَحِن الوقت لتخبرنا به؟

شردت للحظة وزاغت عيناي بعيدًا بعد أن داعبت ذهني فكرة أن أخبره بما رأيت في مقهى الخمسة وعشرين.

- أتعلم يا ريتشارد أن اليوم ليس 24 ساعة.

رفع نصف شفتيه العليا مستنكرًا ولم يعلق، فعدت لأنظر إلى الشاشة قائلًا:

- أعلم أنك تدرك أن السنة الفعلية أكثر من ثلاثمائة وخمسة

وستين يومًا، ولهذا فنحن نعوضها بيوم زائد كل أربعة أعوام. لكن تلك السويعات التي نتجاهلها كل عام لا تنتظر حتى يأتي التاسع والعشرون من فبراير لكي تحدث، بل هي موجودة كل عام، وهذا يعني أننا نبدأ العام الجديد دون أن ينتهي القديم.

اقتربت من الشاشة لأضيف:

- والآن تخيل، فقط تخيل، أن هناك مكانًا ما، لا يخضع لتلك القاعدة التي وضعناها، مكان به العام كما هو... 365 يومًا وربع اليوم.

- مكان؟ أي مكان هذا؟ أشعر أنك قد أكثرت من مشاهدة أفلام الخيال العلمي يا دكتور.

داعبت لحيتي القصيرة الشعثاء، ونزعت نظارتي عديمة العدسات وأنا أرجع بظهري للوراء. هذه فكرة سيئة يا سليم، قلتها لنفسي، هم ليسوا مستعدين بعد.

- دعنا أولًا نصل إلى محطة يمكن لأفكارنا أن تلتقي بها، حينها يمكن أن تفهمني.

- طريقة لطيفة جدًا تقول بها إنك أفضل مني. أنا لست غبيًا يا دكتور سليم! أنا رئيس قسم الفيزياء بجامعة هارفارد! معي ثلاث رسائل دكتوراه ورسالتان للماجستير، فلا تَستهِنْ بذكائي، كُفَّ عن تعاليك المستفز هذا...

صمت للحظة قبل أن يتدارك نفسه ويسترد هدوءه بغتة.. حتمًا هناك من كان يلقنه من وراء الكاميرا. هذا عجيب، من يلقن ريتشارد

ستيفنز؟ مع من أتبارز في الحقيقة؟

- عمومًا، أنا كلي شوق لمناقشة بحثك الجديد دكتور سليم. وأتمنى أن تكون قد درست الأمر جيدًا قبل القفز لاستنتاجات خيالية. تحياتي.

قالها وأنهى الحوار كما أراد، يظن أنه قد يسبقني بخطوة.

ثم يأتي هذا العازر بعدها بساعات بعرضه هذا.

لا... لقد دخلت في معركة يا سليم دون أن تدري.

لكن... مع من؟

حازم

الثاني من مارس عام 2010 كان يومًا جميلًا، على الأقل في بدايته. الفرقة الأشهَر في قطاع مكافحة الإرهاب الدولي، عشرة ضباط تم انتقاؤهم وتدريبهم بمنتهى العناية، في طريقهم لمد العون للشرطة في القبض على جاسوس خطير.

كنا في قمة تأهبنا، في ميكروباص من النوع الذي يُستَخدم في النقل العام كيلا نلفت الانتباه. تَخفٍّ متقنٌ لدرجة أنه في إحدى الإشارات وجدنا أحدهم يفتح الباب ويصعد ليجلس أمامي. كهل في الخمسين، أغلق الباب خلفه وأخرج من جيبه ورقة مالية ليعطيها للسائق، والذي كان بالطبع زميلي النقيب منعم الكاشف.

- نفر واحد، هنزل في "عبود".

كان هناك أكثر من طريقة يمكن لمنعم، الذي كان أقدمنا وقائد وحدتنا، أن يتخلص من المسكين الذي لا يعلم الخطر الذي وضع نفسه فيه، لكن لسبب ما طرأ لمنعم أن يجاري الرجل. رأيناه يمد يده ليلتقط الورقة المالية ويضعها في جيبه قبل أن يُغيّر وضع ناقل الحركة ويتحرك بالميكروباص. لاحظت أن عينَي الرجل قد التصقتا برقبة منعم المكتنزة بالعضلات ومنكبيه العريضين كلاعبي كمال الأجسام، قبل أن ينقل بصره إلى زميلي الجالس عن يساره.

كنا قد فهمنا ما الذي يفعله منعم، وقررنا المشاركة. من دون أن نتبادل كلمة واحدة، سددنا نظرة لا حياة فيها عبر الزجاج الأمامي، ورسمنا تعبيرًا صارمًا أقرب للأصنام. ابتلع الراكب ريقه حين وقعت

عيناه على مينا وخالد الجالسين بجواره كتمثالين في زي أسود، قبل أن ينظر إلى حسين ورمزي الجالسين أمامه بلا حراك في نفس الزي.

دون أن ينبس ببنت شفة، جال ببصره في الميكروباص ليجد عشرة تماثيل صامتة كأن الزمن قد توقف من حوله وجعل منا أصنامًا مهيبة. ثم جاءت اللحظة التي انتظرها رفقائي حين وقع بصره على شخصي المتواضع. رفع عينيه لينظر إلى وجهي الذي كاد أن يلتصق بسقف السيارة من فرط طولي، وتسمر على هذا الوضع. انفلتت ضحكة خافتة من ورائي، لكنها لم تشتت انتباه المسكين عني، حتى شعرت أنه كاد أن يبكي. استمر على وضعه هذا للحظات لم أحول عيني فيها عن الطريق أمامنا، قبل أن يستدير لينظر حوله مرة أخرى.

- هنـ.. هنزل هنـ.. هنا...

قالها بصوت مبحوح وهو يمد يده بآلية لمقبض الباب الجرار. تجاهله منعم واستمر في طريقه، فجال الراكب ببصره مرة أخرى في السيارة وقد هرب الدم من وجهه. حاول أن يفتح الباب، لكنه كان موصدًا، فاستجمع شجاعته وقال بصوت رفيع كالفراخ:

- معـ... معلش.. نزلني هنا بـ.. بـ.. بعد إذنك.

هنا ضغط منعم المكابح لتقف السيارة بغتة، وحرر قفل الباب مركزيًا، لنفاجأ بالرجل يفتحه ويلقي بنفسه على الأسفلت.

حين انطلق منعم بالميكروباص مرةً أخرى، هتف أحد زملائي:

- يا وهبة يا مرعب.

هنا فقط انفجرنا ضاحكين.

كما قلت.. كان يومًا جميلًا... على الأقل في بدايته.

وصلنا منطقة شعبية على الحدود بين المدينة والريف، مساحات واسعة من الرقعة الزراعية، تتخللها تجمعات من العمارات المبنية بالطوب الأحمر. بنايات عشوائية الارتفاعات والأحجام والتوزيع، مجرد صفوف وجدران من الطوب الأحمر والقليل من الخرسانة بالكاد تمنعها من الانهيار. لا تشبه عمارة الأخرى، تباين فوضوي مُؤذٍ للنظر. اختلافات في الزوايا واتجاهات الشوارع تضاهي في تباينها اختلاف بصمات سكانها. بنايات بالطوب الأحمر يعطيها هيئة المواطن المعدم منزوع اللحم.

مهمتنا كانت تبدو سهلة، الجاسوس كان صاحب دكان كبير يحتل الطابق الأرضي بعمارة على الطريق الزراعي مباشرةً. كانت الشرطة المصرية قد نشرت مخبريها في المنطقة على مسافة آمنة من عقار المشتبه به. كل شيء كان كما قال الكتاب؛ انتشارنا حول الهدف، تأمين المكان من نقاط مرتفعة عن طريق قناصينا، والمواقع المدروسة التي تحَصّنَّا بها في ستار عن الأعين.

لكني رأيت أن هناك ثغرة خطيرة: المدنيين. المنطقة كانت كثيفة السكان وهناك عدد لا بأس به يتجولون في الشوارع والحارات، يمارسون حياتهم اليومية بلا أدنى شك فيما يحدث حولهم. لا يدرون أن هناك قوة أمنية مسلحة بأحدث الأسلحة منتظرة الإشارة

كي ينقضُّوا كالوحوش على هدفهم.

تبادلت مع منعم، رفيقي في السلاح، نظرة طويلة أخبرته فيها بما يقلقني. كل فرد من قوات مكافحة الإرهاب الدولي يتم تعيين رفيق له، أو ما يسمونه في فرق مكافحة الإرهاب بـ "البادي"، يرافقك في كل مهامك مثل ظلك، يؤمّن ظهرك ويحميك أكثر مما يحمي نفسه، وتفعل له المثل. ومنعم كان هذا الرفيق، أقرب إليّ من أخي، ولذلك فقد فهم ما كان يعتمل بصدري من قلق، وخصوصًا وجود هاتين الطفلتين في المدق الترابي الذي يحيط بالعمارة.

أومأ لي أن أطمئن، وألا أشتت تركيزي، كي لا أعرض حياتهما للخطر. لكن ما إن التحم أفراد وحدتي مع الهدف وأتباعه، حتى تحققت أكبر مخاوفي.

بعد إشارة الهجوم بأقل من دقيقة كنا قد سيطرنا على المبنى الذي اتضح أنه مركز قيادة لعمليات الجاسوس. العشرات من أتباعه، خونة باعوا بلدهم بالرخيص وتلقوا تدريباتهم في جبل ما، لا يقلُّ تسليحهم ولا شراستهم عنا.

لا أتذكر الكثير عن تفاصيل العملية نفسها، فقد كنت أدخل في حالة تأهب عالية تستحوذ على تفكيري كله في اللحظة التي ألتحم فيها مع العدو. قلما كنت أرتكب أخطاء، سرعتي لا تُضاهَى، ودقتي في التصويب - سواء بالمسدس كاتم الصوت أو بالسلاح الأبيض - يُشاد بها. تركت ورائي عددًا لا بأس به من الجثث حتى بلغت الطابق الأخير، حيث يتحصن الجاسوس، بينما ظل أفراد وحدتي يتعاملون

مع عناصر التنظيم في المبنى وخارجه، وقد بدا لنا أن هناك قوات احتياطية لهم في العمارات المحيطة. تبادلنا معهم إطلاق النار عبر طوابق المبنى، وأسقطنا عددًا لا بأس به، حتى اضطر الباقون أن يحتموا خلف العواميد الخرسانية لعدم جدوى الجدران الطوبية أمام طلقاتنا.

وقفنا بباب الشقة الأخيرة التي اختبأ بها الجاسوس، وأمره ضابط الشرطة أن يستسلم ويخرج دون سلاحه. أجابه بوابل من النيران عبر الجدار، فأصاب الضابط في ساقه. نظرت لمنعم بما يعني أن دورنا قد جاء.

رفع رفيق سلاحي الترس المعدني الثقيل بيمناه القوية، وسدد مسدسه بيسراه عبر فتحته الضيقة. وبما أن طولي الفاره كان مثاليًا لهذا التكتيك، فقد وضعت كفي فوق كتفه، وفوهة سلاحي فوق ترس الحماية الذي كان بطول منعم، ثم دققت بطرف إبهامي على رقبته المكتنزة بالعضلات بالإشارة ليقتحم الغرفة. وما إن فعلنا حتى استقبلتنا النيران من كل الاتجاهات.

في أقل من عشر ثوانٍ كنا قد أسقطنا العناصر الأربعة، ووصلنا للجاسوس نفسه. تحرك منعم يسارًا بحركة محسوبة، لأنطلق من خلف الترس كالإعصار في اتجاه الجاسوس الذي كان قد أخرج مُدْية حربية حادة، واستعد للقائي بسباب ووعيد.

تعامل منعم بسرعة مع من كان لا يزال على قيد الحياة من المساعدين، وأفقدهم وعيهم بضربات متتالية من الترس هائل

الحجم، بينما انقضضتُ على زعيمهم واعترضت بِيُمْناي مُدْيته التي كانت في طريقها لجانبي الأيسر. أمسكت بيده التي كانت تحمل السلاح، ودرت حول نفسي دورة كاملة ليلتوي ذراعه فوق كتفي ويصدر طقطقة عالية.

صرخ متألمًا لكنه اضطر أن يطيع حركتي كي لا ينفصل ذراعه عن كتفه، وانتهى به الأمر منسحقًا على الأرض. لويت ذراعه وثَبَّتّه على وجهه، بينما انغرست ركبتي في ظهره لتُشَلّ حركته تمامًا. وما إن تأكدت من إحكام سيطرتي عليه، حتى انتبهت لمشهد سلبني قوتي.

كنّا في الطابق الخامس، في شقة لم يتم الانتهاء من تنفيذها، وظلت على الطوب الأحمر، مفتقدة نوافذها وإطارات أبوابها، ولذلك فقد كان من السهل رؤية ما يحدث في الشارع بالأسفل. وقد كان المنظر الذي غَيّر حياتي بأكملها...

ففي منتصف المدق الترابي الذي يفصل بين العمارات، ارتمت الطفلتان مضرجتَيْن في دمائهما.

- منعم!

ناديته، فأحكم تقييد من كان مغشيًا عليه من العناصر، وهبَّ إليّ. لمح ما أنظر إليه، فأمسك بالجاسوس بيدين ككلابتين وهتف:

- انزل لهم. بسرعة، أنا مسيطر عليه.

أومأت إليه بصرامة وحزم، وانطلقت نازلًا الدَّرَج كل نصف طابق بقفزة، حتى بلغت الطابق الأرضي. تجاهلت نظرات زملائي الحائرة،

وعند باب العمارة، جاءني أمر مدير العمليات عبر سماعة الأذن.

- محدش يطلع من المبنى، مفيش تأمين.

- فيه ضحايا مدنيين في نص الشارع. بنتين صغيرين سيادتك!

كان ردي وأنا أدقق النظر في الطفلتين، إحداهما لا تتحرك، بينما تتلوى الأخرى ألمًا، وأنينها الواهن بالكاد يصل إلى أذني ليحرقني.

- تبليغ عن حالة الهدف.

- تحت السيطرة سيادتك. أطلب السماح بالخروج للبنتين سيادتك!

- خليك مكانك.

- حد يتدخل ويروح يجيبهم.

بعد ثوانٍ رأيت ضابط داخلية يحاول الخروج من وراء سيارة الأمن المركزي. رفع راية بيضاء ووضع سلاحه أرضًا، ثم تقدم في اتجاه الطفلتين، لكن تم تصفيته على الفور.

- يا ولاد الكلب! يا ولاد الكلب!

هكذا سمعت سباب زملائي عبر السماعة.

- قتلوه! كان رايح ينقذ البنتين وقتلوه.

- كان رافع راية بيضا.

- دول سايبين البنتين فخ. ولاد الكلب!!

كان صراخ زملائي فهتفت بحرقة وأنا أنقل بصري بين الضابط

الشهيد والطفلتين.

- سيادتك عايز الضوء الأخضر سيادتك!

- ضوء أخضر إيه يا ح1؟ مفيش تأمين بقولّك. أمّنوا الهدف وخليكم في المبنى.

بعدها خفتت الأصوات كلها في أذني، ولم أشعر بدموعي وهي تسيل على وجنتيّ لتبلل سلاحي وتتبخر على فوهته الساخنة.

لم ولن أنسَ مشهد الضابط وهو يحاول إيقاف الطوفان الأحمر الذي انفجر من عنقه، قبل أن يسقط متخبطًا في بركة من دمائه وهو يمد يده للطفلة كأنه يعتذر لها.

لم ولن أنسى عينَي الفتاة والحياة تنسحب منها ببطء. رأسها راقد على التراب، الكرة في يدها الملطخة بالدماء، تنظر إليّ، كأنها تقول:

"هذا الألم... لماذا؟"

قبل أن تنغلق عيناها للأبد.

عايـدة

دون أن أتمكن من تحريك عضلة، راقبت حازم وهو يبتعد ويخرج من الغرفة بعد أن أنهى حكايته. توقف عند الباب لكنه لم يستدر إليّ، طأطأ رأسه للحظة، ثم رفعه وأكمل طريقه. أكاد أن أرى الجبل الذي يحمله فوق كتفه وهو يسير في الردهة، يعرج بسبب جراح لم تلتئم، ينزل السلم ويخرج من باب الڤيلا. هرعت لأنظر من النافذة، قلبي ينفطر وأنا أراه متجهًا للبيت الذي يسكنه في نهاية الحديقة. ظللت على وضعي أمام النافذة، واضعة كفي على فمي لأمنع نفسي من الشهيق بحرقة والانهيار بالبكاء وأنا أتابع العملاق الرقيق الذي ابتلعه الظلام.

إذن هذا هو سرك. هذا هو ما كان ينفخ النار في صدرك لشهور وأعوام، ما شَوَّهك من الداخل وجعلك تعامل الدنيا بنفس قسوتها. هذا هو ما جعلك تتخلى عن مبادئك ضاربًا بها عُرْض الحائط. أنت لم تكن تسعى لإنقاذي أنا وأخي فقط، بل لإنقاذ الفتاتين أيضًا... لإنقاذ حازم وهبة.

أغلق حازم عليه الباب وتركني لأبكي في صمت.

وهكذا انتهى اليوم الكئيب كما يجب.

وفي الصباح، كانت الدنيا أكثر إشراقًا، صباح مثالي كالذي يأتي بعد ليلة عاصفة غسلت فيها الأمطار كل الأحزان.

***

للمرّة الأولى منذ أن نزلنا ضيفين على ڤيلا وهبة أنا وأخي، جلسنا جميعًا حول مائدة الإفطار في التراس. وزعت الأطباق قبل أن أجلس في مقابلة حازم وعلى وجهي ابتسامة رضا، لا أول لها ولا آخر. تأملتهم فردًا فردًا، ماما تيسير التي جاهدت لتُبقي عينيها مفتوحتين.. حازم الذي ارتفع بنصف متر فوق الطاولة.. وعيسى الذي كان منغمسًا في كراس الرسم الخاص به.

كان حازم قد حلق لحيته، فبات كنجم سينمائي. ينظر حوله، يحاول أن يختزن اللحظة في ذاكرته بكل عناصرها، كأنه يرانا للمرّة الأولى. أغمضت عينيّ لأستشعر النسمة الخريفية المعتدلة، ثم فتحتهما لأملأهما باللون الأخضر المنعكس عن الأشجار حولنا، أملأ أذنيّ بضحكات عيسى التي حلقت في الحديقة كسرب من الفراشات. ملمس الحشائش الرطبة بين أصابع قدمي، حتى زقزقة العصافير، لم تَبدُ لي كليشيةَ مبتذلًا، وهي تحط على الأفرع بجوارنا.

- ده... أنا؟

هكذا قال حازم وهو يميل على رسمة عيسى.

- أيوة، بالظبط.

أجابه عيسى فرفع حازم عينيه إليّ مبتسمًا.

- ودي عايدة؟

نهضت لأرى ما رسمه عيسى، لأجد إحدى رسوماته التجريدية. بالفعل، هذه أنا، نفس الفستان الأخضر الذي كنت أرتديه بالأمس،

وهذا العملاق طويل اللحية الذي يرقد بجوار الفراش، لا يمكن أن أخطئه.

لكن هذا الظل العجيب الذي يحوم فوقه...

- بترسم حلو قوي ما شاء اللـه.

قالها حازم لكن عيسى اعترض:

- أنا بحِسّ مش "بَنْسِم".

تبادلت مع حازم ابتسامة إعجاب قبل أن نسمع صوتًا واهنًا يقول:

- حازم، أنت رجعت؟

انتفض حازم واقفًا وهُرع لأمه التي ألقت السؤال السابق وهي مائلة على كرسيها، فأعادها لوضعها.

- رجعت يا أمي، رجعت.

زادت ابتسامتها عرضًا ورفعت إصبعها المرتعشة لتشير إليّ قائلة:

- مش هتريحني بقى يا حازم وتعمل اللي أنا قلتلك عليه.

لم أرَ وجنتي، لكن بالتأكيد قد صارتا حمراء كالدم بعد أن استنتجت مقصدها. لم يلتفت حازم إليّ وقال لها:

- وهتسامحيني يا أمي.

- أسامحك؟ على إيه؟

أطرق رأسه ليحدق في الحشائش التي جلس فوقها القرفصاء،

وبدا لي أنه يجاهد كي يتحكم في مشاعره. سقطت جفون تيسير رغمًا عنها، ففتح فمه لينطق، لكني وضعت يدي على كتفه بسرعة.

- بلاش يا حازم، كفاية.

وضع يده على كفي والتقط أناملي، قبل أن ينهض ليرتفع فوقي بنصف متر ويستدير ليواجهني.

- يبقى عمرها ما هتسامحني يا عايدة. عمري ما هنال المغفرة دي. هيفضل ذنب رجب واللي عملته...

انقبض قلبي وشعرت أن اللحظات السعيدة عمرها شديد القِصَر معنا.

- أرجوك...

ابتسم ورفع يدي إلى وجهه لأكتشف أنها لا تزال في جوف كفه. حاولت أن أجذبها لكنه ضغط برقة عليها وقال:

- عايدة.. أنا...

- دكتونة عايدة..

التفتنا لعيسى الذي قال كلمته وهو واقف بجوارنا. عادت البسمة لوجه حازم وأشرق وجهي للحظة، قبل أن أنجح في جذب يدي وعدت لأجلس مكاني قائلة:

- تاني؟ أنا مش دكتورة يا عيسى.

ضحك عيسى هو الآخر، لكنها لم تكن لي ولا لحازم، بل كان ينظر

للمسافة الخالية التي تفصل شجرتين، كأن هناك من يقف بينهما ولا نراه. نظرت لحازم لأجده قاطبًا حاجبيه وهو يحدق بنفس البقعة، قبل أن يرمقني ويهز رأسه إليّ كي أتجاهل الأمر.

لكني كنت أريد أن أسأل عيسى شيئًا آخر، سؤال ظل يؤرقني لشهور وأعوام.

- عيسى... ممكن أن أسألك حاجة؟

التفت إليّ.

- إنت قلت ليه للراجل اللي كان عايز يئذينا في بيت مستر جراي؟ لما سألك مش عايز ترتاح؟

نظر إليّ بعينيه الخضراوَيْن المشقوقتين وقال بكل براءة:

- قلت له أنا لسه مختننتش.

"لسه مخترتش"؟ ردٌّ أضاف غموضًا على مشهد فيه ما يكفيه منه. رَدٌّ لا يمكن لأحد أن يفسره سوى رجل رمادي أتمنى أن أنساه.

***

مرت الأيام كحلم لا أريد الاستيقاظ منه. لم يتركني حازم لحظة، كان في حالة سلام وهدوء تمنيت ألا تكون مؤقتة، ألا تكون استراحة محارب يعود بعدها ليختفي من حياتي كما فعل طيلة السنوات الأخيرة. كان لا يتكلم كثيرًا، يراقب من بعيد، يهيم في واديه للحظات طويلة، لكنه يعود ليحوم حولي، يحيطني بوجوده. وهذا كان كل ما كنت أحتاجه.

... وقررت في نفسي شيئًا.

هــو

وقف الألوسي في شرفة قصره بمنطقة عرابي، يراقب الموكب العجيب الذي دخل لتوّه من البوابة الهائلة. العشرات من الشحاذين والمساكين يحيطون بسيارة يعرفها جيدًا، فيات بيضاء موديل أوائل التسعينيّات، يقودها الشخص الوحيد الذي صار يبغضه فوق الوصف ويرهبه في نفس الوقت وبنفس القوة. طفق يتابع السيارة وهي تسير ببطء حتى يتمكن الناس من اللحاق بها، يدقون على زجاجها، يلوحون لقائدها، يشيرون إلى أفواههم وبطونهم، يتمنون، يترجون.

لكنه كان يدرك أنهم يفعلون ذلك مع الشخص الخطأ تمامًا.

تدحرج جبلٌ صغير ليقف بجوار الألوسي.

- مصر كلها نورت يا باشا. غيبتك الطويلة دي أثرت فينا كلنا. خسرنا كتير، كتير قوي سعادتك.

لم ينظر إليه الألوسي، بل أحكم الروب المنزلي الوثير حول جسده الذي صار نحيلًا بعد عز، وتحسس ملامحه التي انكمشت، وعينيه التي انطفأت، وهو يقول:

- ولسه يا غاياتي، ولسه.

- سعادتك حازم وهبة ده بهدلنا. خسرنا كل مخازنّا وأوكارنا. ده غير إن الجماعات التانية، المنافسين والألاضيش اللي كانوا تحت جناحنا، الكل عليّ علينا، فوضى كبيرة قوي سعادتك حصلت في غيابك.

- مش مــ... مهم.

قالها الألوسي وهو يسعل بقوة ويبصق دمًا في منديله، ثم عاد ليتابع سائق الفيات البيضاء التي توقف بها صاحبها أمام القصر، بعد أن دار حول النافورة. حولها وفي أنحاء الحديقة الهائلة، تراصت العشرات من الموائد، فوقها ما لذ وطاب، ومن بينها سار رجال في ملابس متباينة، يرتدون جميعهم معاطف سوداء. مثل الروبوتات كانوا يتجولون وسط المأدبة الضخمة بأطباق الطعام وأباريق الشراب بينما اتخذ المساكين والشحاذون مقاعدهم.

نزل المايسترو من السيارة، طويل ذو هيبة اقشعر لها بدن الغاياتي، قبل أن يستدير ليستقبل دعوات المساكين له بابتسامة. رفع عينيه ناظرًا إلى الألوسي، ودخل الفيلا، فيما استدار الأخير ليواجه مدخل الشرفة وهو يرمق الغاياتي قائلًا:

- في حاجات أهم ممكن نخسرها. الراجل ده لو عمل حاجة صح في حياته هتكون إنه رتب لي أولوياتي.

ثم قطَّب حاجبيه الأشقرين حين رأى وجه الغاياتي دقيق الملامح كالعصافير يهرب منه الدم وهو يحدق بالمأدبة العظيمة بالأسفل. للحظة ظل الألوسي يفكر في سبب ذعر الغاياتي المفاجئ قبل أن يستنتج شيئًا ويقول:

- عملت أنهي مصيبة؟ قولّي عملت إيه؟

انتفض الغاياتي وتراجع منكس الرأس في نفس اللحظة التي انفتح فيها باب الشرفة. وقف المايسترو ممسكًا بالشيش المزدوج يحدج الألوسي بنظرة ثاقبة جعلته يرتعد ويقول:

- حمدالله على السلامة.

تجاهلهما المايسترو وذهب لينظر من الشرفة. لوَّح لمن بالأسفل كأنه يملك الخلاص بالفعل، ويردونها عليه بهتافات شكر وعرفان. تقهقر الألوسي ليقترب من الغاياتي الذي كان يحدق بالأرض كالمشدوه وهمس له من بين أسنانه:

- الراجل ده خلاك تعمل إيه؟

مستسلمًا، أخرج الغاياتي عبوة بلاستيكية من جيبه، علبة صغيرة اختطفها الألوسي وقرأ عليها: "زرنيخ". مصعوقًا، رفع الأخير رأسه لينظر إلى المايسترو، الذي كان يعطيه ظهره.

قبل أن يسمع صوت العذاب وهو ينفتح بالأسفل.

صرخة ألم، ثم أخرى، طفل صغير، ثم امرأة، ثم رجل، ثم تشابكت الصرخات وامتزجت حتى صارت سيمفونية تليق بجحيم عازف الأقدار.

أراد الألوسي أن يتقدم لينظر لكن قدميه لم تطيعاه، فتقهقر مبتعدًا عن سور الشرفة.

- رايح فين؟ طلّع موبايلك وصوَّر.

قالها المايسترو دون أن يستدير، فخرج صوت الألوسي متحشرجًا.

- أصور؟ أصور إيه؟

التفت له المايسترو نصف التفاتة، ولم يكرر طلبه. بيد مرتعشة

أخرج الألوسي هاتفه من جيب الروب وتقدم ليقف عند السور، بمسافة آمنة من المايسترو. جحظت عيناه وهو يرى العشرات يتلوون على الأرض، يبكون دمًا وقهرًا، يحاولون الهرب، لكن أتباع عازف الأقدار، زبانية الرحمة، كانوا قد سدوا النوافذ والأبواب. سمع الطرقات على منافذ القصر، لمحهم يتسلقون جدرانه، لكنهم لا يصلون. البوابة الرئيسية بعيدة، أبعد من أن يصمد أحدهم حتى يخرج منها.

في نور شمس الأصيل الدامية، شاهد الألوسي الممر الشجري – الذي كان يقود من عالم البشر إلى جنته – يمتلئ بأجساد متشنجة وأخرى هامدة، وأدرك لحظتها أن جنته قد صارت جهنم...

وصار هو من ملائكة العذاب.

عيناه الدامعتان لم تجرؤان على النظر إلى أكثر من كره في حياته، لكنه كان يلمحه بطرف عينيه، يلوح بأصابعه مغمض العينين كأنه يستمع لموسيقى عذبة.

استمر في التصوير حتى انتهى العرض، وانتهى معه ما تبقى من آدميته.

علم لحظتها أنه قد أسهم في خلق آخر وحش سيواجهه البشر... الوحش الذي سيلتهم الجميع.

سليم

لم تمرَّ بضعة أيام وكان حِجّي أمام باب شقتي مرةً أخرى. هذه المرة جاءني ببنطال أسود وسترة حمراء، أما حذاؤه، فلن أعلق. سمحت له بالدخول وأغلقت الباب قائلًا:

- متقولّيش إن فيه قضية جديدة، أنا لسه يدوبك ابتديت أنتظم على المهدئات.

- المهدئات مش هتروح في حتة، دلوقتي فيه حاجات أهم.

أطلقت زفيرًا ملولًا وأشرت للصالة داعيًا إياه. عقد يديه خلف ظهره وسار وسط أوراقي المبعثرة في الصالة، ومتعلقات القضايا، وما يتعلق بالمايسترو. أخذ يتفقد الملصقات ومقتطفات الصحف التي طبعتها وثبتُّها على الجدران، كأنه مفتش جاء ليتمم على عهدتي.

- لسه الصورة الكبيرة مش واضحة؟

أشار لخريطة القاهرة المثبتة على الجدار، في نفس المكان الذي كانت به صورة أينشتاين وهو يُخرج لسانه. كان بها دبابيس في الأماكن التي حدثت فيها الظواهر العجيبة وبها دبوس أسود مميز على أطراف القاهرة، مكتوب تحته "مقهى الخمسة وعشرين". لم أُجب سؤاله الفضولي.

- ممكن يكون التفسير قصادك من الأول على فكرة، ما قرأتش قصص بوليسية قبل كدا؟ الحل غالبًا بيبقى حواليك في كل حتة.

قالها قبل أن يتوقف أمام رسمة عيسى التي احتضن فيها تمثال ثلج والموضوعة على مكتبي. قصص بوليسية؟ هل يأخذ معلوماته وخبرته من القصص البوليسية؟ لم أعلق حفاظًا على مرارتي، فأشار إلى اللوحة وقال بمنتهى النباهة:

- رسم تجريدي جميل. والجناحات أجمل.

- دي رسمة عادية خالص. خير يا حِجّي بيه؟ هو مفيش عندكم غيري؟

سألت بنفاد صبر وأنا أحك شاربي بأسناني السفلى، فتنحنح قائلًا:

- إحنا شرطة، مش سحرة ولا عندنا قدرات خارقة زيك. وبعدين دي أمانة يا دكتور، أمانة سابهالك المقدم منعم الله يرحمه ووثق فيك. زيك زي حازم وهبة. هبات ربنا ادهالكم علشان يشوف هتعملوا بها إيه.

تأملته لوهلة... عجيب كلامك، تتفوه بترهات معظم الوقت، ثم تنطق بحكم عظيمة مثل هذه في أوقات أخرى. تُرى ما هدفك أنت يا حِجّي باشا؟

لكنه محق. لا يجب أن أفوّت فرصة يتحدث فيها الجماد، وهذا لأنني مقتنع أنها كلها جزء من رسالة واحدة، وليست حالات فردية. جزء من لوحة سوداء أقف في منتصفها مع عازف الأقدار. استدرت ذاهبًا لغرفتي لأغير ملابسي قائلًا:

- أمري لله.

***

جلست في كرسي السيارة الأمامي، بجوار حِجّي الذي سألني للمرة العاشرة عن نهلة وسبب عدم زواجها حتى الآن، وما الأشياء التي تحبها، إلى آخره من الأسئلة التي لا يسألها سوى عاشق متيم. وعندما استفسرت عن عدم تقدمه لخطبتها حتى الآن، احمرّ وجهه وأجابني أنه حاول أكثر من مرة، لكنها أغلقت السكة في وجهه مرتين، وشتمته في الثالثة. ثم أضاف بابتسامة ولهانة أنه هكذا يتصرف العشاق، "يتمنعن وهن الراغبات"، قالها بأسلوب الفنان عبد الفتاح القصري.

لم أُرِد أن أصيبه باليأس أو أجرح قلبه "الأخضر" كلون حذائه. اكتفيت بهز رأسي، فأنا أعرف نهلة، وهي قد كرست نفسها للعلم والطب، ولو "أفطرت" بعد صيامها هذا يومًا ما، فلن يكون على ذكر سحلية الصحراء هذا.

عند مديرية الأمن لاحظت شيئًا عجيبًا. فقد أوقف حِجّي سيارة الشرطة بالضبط أمام زوج من الأحذية كانت تنتظرنا على الرصيف حين وصلنا، كأن هناك من اعتلى الرصيف وخلع نعليه وتركهما هنا. للحظة شعرت أن حِجّي قد تعمد الوقوف في هذا المكان بالذات، وهذا بعد أن قال:

- إيه حكاية الجزم دي؟ لغز جديد ماشي وراك؟

أخبرته أنني لا أفهم إلام يرمي، وتفاديت بالطبع ذكر حذاء سالم، فآخر ما أريده هو أن يصبح الأمر "شخصي". لكني رميت الحذاء

بنظرة خاطفة، لغز جديد "ماشي ورايا"؟ بكل تأكيد.

بعد صعودنا، قادني حِجّي مباشرة لمكتب مساعد الوزير، اللواء المشدّ. توقفت أمام الباب انتظرت كي يفتحه لي. نظر لي حِجّي غير مصدق قبل أن يستسلم ويفتحه لي. دخلت بخطوات غير واثقة لأجد الأخير بجسده الممشوق، كلاعب جمباز، يراقبني بعينين ثاقبتين. لأجد اللواء المشدّ جالسًا بهيئته التي شعرت أنها تزداد ضخامةً مع كل ترقية. عض على شفته السفلى مغتاظًا حين رآني، وتقلصت ملامحه الغليظة قرفًا، كأن من دخل لتوّه حيوانٌ رخويٌّ لزجٌ مزعج الرائحة فشل مرارًا في سحقه.

- أعوذ بالله.. أبو نضارة فاضية رجع تاني.

هكذا زمجر من بين أسنانه، لكن اللواء المشدّ رحب بي بنبرة قوية، رجع بكرسيه للوراء وشبك أصابعه أمامه قائلًا:

- سمعت إنك بقيت ولا شيرلوك هولمز يا دكتور. اسم "مستر جراي" بقى بيقترن بأصعب القضايا اللي عجز أشطر المحققين إنه يفك لغزها. الحقيقة... (صمت للحظة) كان مفروض نسمع وجهة نظرك من الأول، كان مفروض نسمع كلام منعم الله يرحمه. اتفضلوا اقعدوا.

***

- ودي مش الحادثة الوحيدة.

هكذا قال اللواء المشدّ بعد أن أنهي ملخصًا سريعًا لما حدث في مطار شارل ديجول. التقط بعدها الملف الرابض فوق مكتبه، ليُخرج

منه أوراقًا وتقارير بلغات مختلفة من شتى بقاع الأرض، تصفحها على عجالة قائلًا:

- ما لا يقل عن 200 حالة، من شرق الدنيا وغربها، كلها نفس الشيء. يوصلوا المطار، ويقفوا في وسط أكبر صالة.

أنهى كلامه ورفع عينيه إليّ قائلًا:

- وبس على كدا.. ولا أي حاجة.. ولا قنبلة ولا تهديد ولا حتى سكينة مطبخ.. مش معاهم حتى تليفونات.

رميت حجي بنظرة خاطفة لأجده يحاول اصطياد بذرة ليمون من كوبه، فالتفتُّ لأسأل داعيًا ربي ألا يراه اللواء الشناوي:

- وطبعًا الباسبورات كلها طالعة من بلد واحد، أو فيها بلد مشتركة كانوا كلهم فيها قريب.. مش كدا؟

زمجر الشناوي مرةً أخرى، وخرج من أنفه خوار كثور يستعد للهجوم وهو يقول:

- مبلاش منظرة فارغة.

لكن المشدّ علق بابتسامة:

- برافو، كلامك مظبوط. جنسيات وأعمار مختلفة، خرجوا كلهم من إنجلترا الشهر اللي فات، في نفس التوقيت. كلهم لابسين بالطو أسود، والعلامة دي منقوشة على رقابهم.

ضغط زرًّا في جهاز التحكم ليظهر على الشاشة الضخمة المعلقة

على الحائط المقابل لمكتبه رمز عبارة عن مزيج من علامة الموسيقى ممتزجة مع قلب أحمر. رغم أنني لم أرَهُ من قبل لكني شعرت بالدم يهرب من وجهي للحظة.

- كلامك وكلام منعم الكاشف كان صح. المايسترو ظهر تاني وده الرمز بتاعه، لوجو الصفحة اللي عملها في الدَّارْك ويب وبيصطاد بيها الناس اللي عايزة تنتحر. ودلوقتي...

هكذا فسر اللواء المشدّ لتنقبض عضلاتي كلها ويرتفع مؤشر التوتر إلى قمته. وللمرة الأولى لم تُسعدني صحة توقعاتي، إن "هو" لا يزال حيًّا يرزق.

أشار المشدّ إلى الشاشة:

- الفيديو اللي هتشوفه ده متصور في مصر وعرضه المايسترو عبر قناته على الصفحة بتاعته. طلع للنور على منصات التواصل واليوتيوب النهارده الصبح وقلب الدنيا. عايز قلبك يجمد، اللي هتشوفه صعب.

***

لقد رأيت الكثير في حياتي. مشاهد مؤلمة يقشعرُّ لها الأبدان، حتى ما مررت به في محطة مصر وجثث المساكين التي انسابت كالطوفان بين أروقة المستشفى، لكن لا شيء يضاهي قسوة مشهد تسميم الشحاذين. المزيج المقبض من التوسلات والصرخات مع برود المايسترو وهو يراقبهم من الشرفة العالية، لم يظهر منه سوى كتفه اليُسرَى، لم يظهر منه سوى قسوته، بينما كانت يد المصور

ترتعش. مشهد بلا آدمية، صُنع في قلب الجحيم.

هكذا جال بخاطري وأنا أدخل لأقف كالصنم بجوار اللواء المشدّ واللواء الشناوي وحجي في الغرفة المخيفة، أمام الحامل الخرساني الذي يرقد فوقه دفتر أعرفه جيدًا. غلافه من الجلد البُني المحروق، تزينه نقوش لوجه امرأة وغزني في صدري، وجه عايدة ناعوت.

طنين خفيف أصاب أذني وارتباك أقلق أمعائي، أعراض مقاومة شرسة بين مشاعري المتضاربة التي ضربها أكثر من إعصار مدمر خلال دقائق. لكن السور المنيع الذي بناه المهدئ حولي صمد أمام الهجوم وحماني من الانزلاق في بئر الحزن.

تناسيت الفيديو ووجه عايدة وتماسكت بسرعة لأتجول في الغرفة الفسيحة، أتأمل متحف المايسترو الخاص، قبل أن التفت إلى الدفتر. هو كما أذكره: صفحاته بيضاء مصفرة على اليمين، سوداء جرباء على اليسار. مفتوح على صفحة بيضاء بعينها، بها أربعة أسطر اقشعرّ بدني حين لمحتُها. فأنا أتذكر من كتبها ومتى، وما الذي فعله بكل وحشية.

- ده... في كلمة مشطوب عليها.

- ما شاء الله على النباهة.

هكذا غمغم الشناوي بينما هز المشدّ رأسه بوقار. قرأت البيت غير المكتمل، قبل أن أستقيم وأنظر لمساعد الوزير.

- طبعًا محدش شاف اللي عمل كدا.

- وعرفت منين يا أبو العريف؟

هكذا جاء صوت اللواء الشناوي الغليظ الذي يملؤه الشك والسخط من كل ما أقوله، بل من الموقف برمته.

- لأن محدش عمل كدا يا سيادة اللوا. ده الدفتر نفسه. الدفتر اللي محدش عرف يكتب فيه غير عازف الأقدار.

أجبته مشيرًا لأبيات الشعر ثم أضفت في شرود:

- إحنا في آخر محطة لينا.

تبادل اللواء الشناوي مع اللواء المشدّ نظرة ذات مغزى، نظرة لم يكن فيها أيٌّ من سخطه ولا تذمره ولا رفضه لما أقول. نظرة لم يكن فيها سوى القلق، والقلق العارم. هنا فرد المشدّ قامته قائلًا:

- دكتور سليم، إنت دلوقتي مُكلَّف رسميًا من وزارة الداخلية بالمساعدة في الوصول للمايسترو.

- سيادة اللواء... أنا عندي معارك كفاية، مش هقدر أفتح جبهة تانية.

قلتها متذكرًا عازر ومن يقف وراءه، تذكرت رحلتي خلف الأجوبة.

- كله يستنى.. المعركة دي لها الأولوية لأننا لو خسرناها يبقى خسرنا كل المعارك.

هكذا حسم الأمر قبل أن يلتفت إلى حِجِّي:

- وآنسة عايدة، دورها تحل لغز الدفتر ده، هتاخده ليها وهيفضل

عهدتك.

- تحت أمرك سيادتك.

هتف بها حِجّي بحماس وهو يرفع يده بالتحية، قبل أن يتقدم إلى الدفتر. صاح به اللواء الشناوي:

- رايح فين يا بني آدم؟

- آخد العهدة.

- عهدة إيه؟

- الدفتر.

عض اللواء الشناوي على أسنانه حتى طالت أذني أصوات طحن ضروسه، بينما وقف أمامه حجي مرتبكًا.

- هو مش فيه أجهزة إنذار واصلة به وإجراءات لازم نعملها قبل ما تتنيل تاخد الزفت؟

- هو ده الوحيد اللي فاضل في وحدة منعم يا شناوي؟

سأله المشد مستاء ليجيبه الشناوي:

- تصدق سيادتك؟ هيودينا في داهية بدماغه دي. اسمح لي سيادتك، بس اختيارك له مكنش موفق.

- ومين قال إن أنا اللي اخترته؟ تعيين وحدة منعم الكاشف جاي من فوق. حِجّي، اركز كدا وامشي زي الكتاب ما بيقول. متضيعش كل اللي عمله منعم الكاشف وتضيعنا كلنا معاك.

هكذا قال اللواء المشد برزانته ورباطة جأشه الجديرة بالاحترام، قبل أن يحول بصره للواء الشناوي:

- المايسترو فيه حد بيساعده يا شناوي، مش ممكن يكون بيعمل كل ده ومسيطر على ناس بالعدد ده لوحده. ومستحيل يكون الألوسي هو الحد ده وهو وعصابته بعد كل اللي عمله حازم وهبة فيهم. وده دوركم. اعرف لنا مين يا شناوي.

أومأ اللواء الشناوي موافقًا، وتقهقر خارجًا دون أن يحيد بنظرته النارية عن حِجّي. تبعه الأخير مدليًا ذراعيه بجواره كتلميذ مذنب. انتظر مساعد الوزير حتى صرنا وحدنا ليقول:

- إيه اللي بيحصل يا دكتور سليم؟ الدفتر والقضايا اللي بتحلها زي السحر دي، عايز أفهم.

تخللت لحيتي الشعثاء بأصابعي قبل أن أقول:

- الدنيا يا سيادة اللوا بقى فيها كمية ألم وقهر لدرجة إن الجماد ابتدى يحس. الجمادات اللي بتتحرك وبتدب فيها الروح بتبقى اختزنت حزن ووجع رهيب، وبتطلعه بطريقتها.

امتلأت عيناه بحزن دفين، فاحترمت خصوصيته، الجرح الذي تذكره لتوِّه، فمن منا بلا أوجاع. تركت له كل الوقت الذي يحتاجه كي يعود إلى اللحظة ويلتفت إليّ قائــلًا بحزم:

- دكتور سليم، إحنا بقالنا سنتين محققناش أي إنجاز في قضية عازف الأقدار. أنت الوحيد اللي قربت منه وقدرت تحبط واحدة من

عملياته: عملية الترزي. الاحتمالات قصادنا لا نهائية، والخيوط اللي معانا حبالها طويلة. مش بس خطر المصيبة اللي بيحضر لها، تأثير الفيديوهات اللي بيعرضها على قناته رهيب واللي إنت شفته ده آخر فيديو بس. الوقت بيجري ومؤيدينه بقوا بالآلاف على أقل تقدير. محبتش أقول الكلام ده قصاد الشناوي، بس سواء كان فعلًا الجماد بقى بيحس أو إن عندك مخ جبار بيشوف اللي مش بنشوفه، أنا مقتنع إنك أملنا الوحيد.

حدقت بوجهه مصدومًا. الكابوس الذي كنت أخشى حدوثه يتحقق أمامي. فبدون التحايل على المنطق والمعقول، بدون طريق مختصر، لن نتمكن أن نلحق به. فهو لا يختار ضحاياه بسابق معرفة ولا تسلسل منطقي، يختارهم مساكين، مرضى، ضعافًا، مبتلين، وهؤلاء في كل بقاع العالم، وهو ما يجعل ملاحقة الشرطة له شبه مستحيلة.

هنا أدركت أن الحل الوحيد كي أنتصر على عازف الأقدار هو أن أخرج من قلعتي لأواجهه.

فهو قادم... بكل قوته.

عايـدة

"هناك صفحات تأتي لنذكرها، وصفحات تطوى فننساها".

هكذا قرأت في دفتر ناعوت ذات مرة، كلمات تركها لي أبي ليرشدني. لكن... عندما نكتب، هل نحن من يختار الكلمات؟ أم أن لها إرادة خاصة بها؟

أريد أن أعبر بما أشعر به الآن، لكن الحروف تعاندني، تتراقص أمامي على الصفحة، تأبى أن تطيعني. ربما لأن ما أريد أن أكتبه الآن مختلف عن كل ما جادت به أقلامي. ربما لأن الأوراق لم تَعْتد الابتسام على وقع نغماتها ولم يَنْسَب الحبر من قبل منها بهذا الدفء.

ربما لأنني قبل هذه اللحظة كنت مكسورة، بكل شكل وكل صورة.

يقولون إن هناك من يتألم من الوحدة، وهناك من يتلوى حسرةً من الفراق. يقولون إن الخيانة قد سفكت دماءً وانتزعت قلوبًا من صدور بلا عناء. يقولون إن المرض أذل ناس، وإن القسوة قد قتلت الإحساس.

الواحدة من تلك الآلام قادرة أن تحيل الجبل ردمًا، أن تحيل المُلك عدمًا.

وأنا... قد عانيت منها جميعًا.

لكني على استعداد للنسيان، على استعداد أن أغفر للدنيا كل هذا. أنا مكتملة الآن، ببقائي مع ماما تيسير في غربتها، باختياري عيسى دونًا عن الدنيا كلها، بإيماني أن ذلك العملاق المخيف لديه قلب أرق

من درع حريري.

أراقبه من بعيد، يمازح عيسى في الحديقة، يلاعب الأطفال وذوي الهمم في الجمعية، يضع ملعقة الطعام في فم أمه نصف النائمة. أراه يبتسم... وينظر إليّ.

- سيبني أصلح اللي انكسر جواك يا حازم.

قلتها له في ليلة قمرية ونحن جالسان في الحديقة. أطرق للحظة قبل أن يرفع عينيه العميقتين إليّ.

- مش عايزك تبقي الدكتورة بتاعتي يا عايدة.

- ليه؟

- مش عايزك تشوفي اللي جوايا.

- أنا شايفة اللي جواك يا حازم. شايفة اللي إنت مش شايفه.

يشيح ببصره بعيدًا قبل أن يلتفت إليّ ويمد يده ليداعب أناملي برقة. تركتها مكانها وحبست أنفاسي. للحظة لمحت عينيه تتلألآن، واحمر طرف أنفه كعادته عندما يكون على شفا البكاء، فأنا أدرى بتلك اللحظات... أنا الوحيدة التي أرى حازم وهبة كما لم يره أحد.

سحب يده عندما ظهر عيسى أعلى التراس، ومعه ثلاث لوحات مطويات في شكل أسطواني. جاء ليجلس بيننا ويفتحها ولسانه خارج فمه قائلًا.

- اختانوا معايا واحدة.. بسْثعَة.

تعجبت لاستعجاله ولاختياراته، فكلها لأشخاص كان بهم علة ما، لكنه رسمهم بدونها. الطفلة السمراء الجميلة، الرجل الذي لم تَعُد ذراعه مبتورة و... ماما تيسير وهي تضحك له. نظرت لحازم لأجده يبتسم بانكسار وهو يرمق أمه كما كانت منذ أقل من السنة.

- دول علشان المسابقة؟

- فاضل واحدة... عند مِسْتَرْ جِنَاي.

تبادلت مع حازم نظرة خاطفة لكنه تخطاها بسرعة وسأله:

- إنت عايز تدخل بأنهي واحدة يا عيسى؟

ينهار كل شيء حين يجيبه عيسى وهو يقلب في الرسومات.

- لأ.. أنا قلتلك مش هلحق. إنتوا اختارنوا.

ثم دارت عيناه في مقلتيهما... وسقط مغشيًّا عليه.

***

يا ربي، لا تحرمني من أخي. لو كان هناك ما يمنعني من الاستسلام لليأس في هذه الحياة فهو عيسى. لقد عانيت كثيرًا، فرحماك يا ربي.

انقلبت حياتي رأسًا على عقب. أطباء وإخصائيون، تحاليل وأشعة، فحوصات وكشف منزلي وفي المستشفيات، ثم تحقق أقوى كوابيسي: قلب عيسى الضعيف كان قد اكتفى. أخبروني أن بعض المصابين بمتلازمة داون لديهم تشوهات في القلب والأجهزة العصبية، وأن احتمالية إصابتهم بسكتات قلبية كبير. كنت أعرف كل

هذا، كنت متعايشة معه، تعودت على هذا الخوف، ألفته، تصالحت معه، حتى نسيته. نسيت أن في أي لحظة سينهار العضو الذي يضخ عيسى بالحياة، ويضخني أنا بها قبله.

حاول حازم استغلال ما لديه من نفوذ ليتم علاج عيسى في مستشفى الشرطة، لكنه لم يكن كافيًا. وبما أنه قد استنفد كل ثروته في جمعية ترياق فقد وجدت نفسي مضطرة أن أُخرج عيسى من المستشفى التخصصي الذي ظل به لبضعة أيام متصلًا بشبكة عنكبوتية من الأسلاك والخراطيم. عدت به إلى البيت وعكفت على رعايته بجانب ماما تيسير، التي لم تكن أفضل حالًا منه.

ضاقت بنا السبل وتدهورت حالة عيسى ووصلنا إلى طريق مسدود، حينها فقط... دق هاتفي.

رقم غير مسجل، أجبته وجلست على الفراش لأسأله عن هويته. وللحظة طويلة لم يُجِبني. ثم...

- لسه متعبتيش يا عايدة؟

للوهلة الأولى لم أدرك إلام يشير.

- مين معايا؟

- لسه شايفة إن الدنيا دي فيها أمل؟ لسه شايفة علاج للوجع اللي فيها يا "دكتورة" عايدة؟

تيَبّست يدي الممسكة بالهاتف وانعقد لساني.

- لسه شايفة إن عيسى يستاهل الألم اللي هو فيه؟ إن إنتي

تستاهلي الألم اللي إنتي فيه؟

أردت أن أنهي المكالمة، أن أقذف بالهاتف لأهشمه ألف قطعة، أن أصرخ بكل ما بي من مشاعر دامية، وأحرق من يقف على الطرف الآخر.

- مسكين. بيتألم في صمت. لو فعلًا دخلنا دماغه هنلاقيه بيصرخ طالب الخلاص. وأنا موجود يا عايدة. ولسه عند وعدي. لسه بقوم بدوري. لو عايزة الخلاص أنا موجود. عارف أنه صعب إنك تعمليها، كل اللي عليكي إنك تطلبي.

سالت دموعي وأنا أسمعه يقول:

- كلمة واحدة بس يا عايدة عايز أسمعها: كفاية. وهترتاحي إنتي وعيسى. هتروحي الجنة زي ما إنتي بتتخيلي... وسيبيلي أنا النار.

لم أشعر بنفسي وأنا أصرخ بكل قوتي.. صرخت وصرخت وصرخت... حتى أيقظت الموتى وأوقفت الزمن.

أنهى المايسترو المكالمة، بعد أن قال كل ما يريد.

وقتلني.

هــو

فيديو قصير. فتاتان فلسطينيتان تقول إحداهما للمراسل إن أباهما كان يأتي لهم بالحطب ليدفئهم، ويقيهم من صقيع الشتاء. وتتساءل - بينما تبكي أختها الصغرى في صمت - هل كل الأطفال يعانون مثلنا؟ ثم انتهت اللقطة بقولها: "ليت أبي أخذنا معه".

سواد...

ثم يظهر جزء آخر تم دمجه مع السابق، يظهر فيه مشهد داخلي لبيت مدمر ممتلئ بحطام حياة. في الكادر يظهر رجل في معطف ثقيل أسود، وهو يسدل ستارة على الباب ليعزل البيت المكشوف جدرانه عن المذابح التي تحدث بالخارج. تهتز الكاميرا للحظة قبل أن تستقر على الفتاتين المنكمشتين في خوف. صوت هادئ رزين يتكلم من وراء الكاميرا بلهجة مصرية. الترجمة بالإنجليزية تظهر أسفل الشاشة.

- "سلام" و"رحمة"، اسمكم جميل. اسمكم غالي جدًّا. بابا سابكم إمتى يا سلام؟

- مات في تشرين.. هو وأمي ماتوا من القنابل.

هكذا ردت الكبرى وهي تنظر للمتحدث في حيرة، وتنقل عيونها الواسعة بينه وبين صاحب المعطف الأسود الذي يقف وراءهما. تسأل الصغرى ببراءة وهي تلوح بدُمْيتها المتسخة:

- إنت قلت إنك هتخلينا نروح لبابا؟

- أيوة يا رحمة. هتروحي حتة دفا وفيها أكل كتير وألعاب وكل حاجة نفسك فيها. وبابا مستنيكم.

الفتاتان بنفس الوقت:

- أيوة، عايزين نروح عند بابا.

- وأنا جاي آخدكم هناك.

ظهرت كتف المتحدث طويل القامة في الكادر، بينما يمسك تابعه ذو المعطف الأسود بالفتاتين كي يحقنهما بمادة ما. صرخت الصغيرة وتأوهت الكبيرة. ثم اختفى الخوف من ملامحهما الجميلة المتسخة تدريجيًا، ويتبدل بتعبير واهن. سقطت الدُمْية من يد الصغيرة التي مالت على جانبها لتهمد حركتها. قاومت الكبرى غلق عينيها بصعوبة وهي ترى أختها الصغيرة تتلاشى أمامها.

- نامي يا سلام.

قالها المايسترو، فيما تنخفض الكاميرا لتظهر قدمه فقط وهو يجلس بجوارها القرفصاء.

- نامي.. في سلام. نامي وسيبي وراكي عالم قاسي.. سيبي جوع ومرض وخوف.. سيبي أنانية وقسوة.. سيبي طمع وقهر.. نامي يا سلام. خليني آخد بإيدك وأوديكي الجنة... وأروح بنفسي للنار.

نهض ليلتفت إلى الكاميرا التي ارتفعت إلى رقبته، قبل أن يستطرد بالإنجليزية:

- أيها العالم... أنا عازف الأقدار... وأنا قادم إليكم.

انتهى البث بشاشة بيضاء بها رمز هو مزيج من علامة الموسيقى وقلب أحمر مكتوب أسفله:

"The Last Beat"

"النبضة الأخيرة"

سليم

هذه خطتك إذن.. السيمفونية المزعومة التي ستوقظ بها العالم، المعزوفة الأخيرة التي ستقتل من يسمعها.

ألقيت بالهاتف المحمول بجواري بعد أن انتهى مقطع الطفلتين الفلسطينيتين، مغتاظًا من الغباء. كيف يظن أن هذا هو الحل؟ هل علاج كل إصابة هو البَتْر؟ ومغتاظًا أكثر لفشلي في الوصول لدليل دامغ على هذا الغباء، فشلي في الوصول لتفسير لكل هذه الآلام. وإن لم أصل إليه، سيصعد عازف الأقدار فوق جثث المليارات... منتصرًا.

أيًا كانت الخطة التي نسجها عقله المريض، لكن المايسترو خرج بصفحته من الإنترنت المظلم. خرج إلى النور، وبدأ ينشر أفلامه القصيرة على اليوتيوب، الإحماء الذي يسبق عزف الأوركسترا. ورغم أن المنصة نفسها تقوم بحذف المقاطع بعد أيام، فإنه وقت كافٍ كي تصل إلى الملايين. أغلبية الناس تُبدي اشمئزازها واعتراضها الشديد على عرض مشهد كهذا، وهناك بعض المشككين في حقيقته.

لكن المخيف هو ظهور العشرات من التعليقات التي تؤيد ما يفعله، بل وتمدحه. أناس فاض بهم الكيل ووجدوا غايتهم في عازف الأقدار، الذي يصرخ بما لم يستطيعوا البوح به ولو همسًا. مطالبات له بإنقاذهم، توسلات كي يرحم الجميع، كي ينهي هذا الكابوس الذي يسمونه الحياة.

هو سباق إذن، من يصل للناس أولًا، أنا أم المايسترو؟ المعركة الحقيقية بيننا ستكون في رؤوس البشر، نتنازع على أرض بور

فقدت ماءها ومرعاها، أرض عصفت بها الآلام حتى صارت خاوية، لا زرع فيها ولا زارع. أرض لا تنتظر مطرًا ولا شمسًا.

لكن... كيف أقنع الناس بالحياة وأنا أهرب منها؟

لم يعد أمامي خيار. يجب أن أتوقف تمامًا عن المهدئات، يجب أن أنزع عني درعي وأعود كما كنت، إنسان ضعيف، مذعور. وبعد مرور أيام قليلة أخرى من دون دوائي، كان لا بد أن أقوم باختبار بسيط. لم يكن أمامي خيط أبدأ من طرفه سوى المكان الوحيد الذي كنت فيه أقرب ما يكون لعازف الأقدار.

***

كنت في قمة عطشي حين وقفت أمام أطلال مقهى "الخمسة وعشرين"، العَرَض الذي يأتيني وأنا على أعتاب ملحمة مشاعر اختزنها جماد ما. قُبيل غروب الشمس بدقائق، وقفت على بعد خطوات من المبنى المهجور الذي تآكلت جدرانه، وتساقط الدهان الأخضر الباهت من فوقها. أذكره جيدًا، فقد كان ملحقًا بخيمة المقهى، وقد وجدت الشرطة في إحدى غرفه الأربع بقايا 32 جثة.

بخطوات غير واثقة، سرت في المساحة المفتوحة أمامه، والتي كانت تظللها الخيمة في وقت ما، وجلت ببصري في محيطي. لقد تغير كثيرًا في الأعوام الماضية، فقد تضاعفت المباني البعيدة، وتقلصت الأراضي الزراعية حوله في دائرة واسعة، كأنه مصدر وباء ما يتحاشاه العمران والزراعات. دققت في المساحة الترابية الواسعة التي تحيط به كحلقة سباق، باحثًا عن آثار الكراسي والطاولات التي

كانت تملأ المكان. بالطبع لم أجد شيئًا، فالزمن قادر على أن يمحي الذكرى، حتى من قلب الصخور.

تأملت المبنى المكون من مدخل بلا إطار، عليه يافطة مائلة مكتوب عليها بلون أبيض قارَب على الزوال: "قهوة الخمسة وعشرين.. خدمة 25 ساعة". أسفل اللافتة تنسدل ستارة صفراء باهتة مهترئة. الشمس تراقبني بفضول من بين السحب، والنسمات تلعب بالأتربة والأكياس حولي، وهناك بعض الكلاب تنبح من بعيد، وبعض المارة لا يهتمون بي ولا بالمقهى المهجور.

ساعدني ضوء الغروب الخافت أن أرى من بين ثقوب الستار ممرًا ضيقًا ينفتح يمينًا لغرفة أذكر أنها كانت مطبخًا من قبل، يليها المرحاض، ثم غرفة مبيت العمال، وأخيرًا ينتهي بباب خشبي. حتمًا هو باب الغرفة الرابعة التي سمعت عنها، المقبرة الخاصة بعازف الأقدار.

أحكمت أزرار البدلة الكتان الرمادية الخفيفة اتقاء لسعة البرد، ثم تسمرت مكاني، فقد لمحت لتوّي نورًا خافتًا في نهاية الممر، كأن هناك جذوة مشتعلة، جذوة أذكرها جيدًا، تخص "الجوزة" التي كان يدخنها صاحب المقهى في شراهة.

- معلم راضي؟

هكذا هتفت بشجاعة زائفة، فخرج صوتي رفيعًا مثيرًا للشفقة، قبل أن يخفت ضوء الجذوة. سكتّ لعله يجيبني، لكنه ظل على صمته المريب. ثم عادت الجذوة للسطوع بقوة وينير ضوؤها ملامح

مستترة: شارب أشهب كَثّ، ينعكس على عينَيْ ذئب عجوز ضيقتين. وللحظة تخيلت أنه قد مد يده ليزيح جزءًا من الستار ليدعوني للدخول... أم كانت حركة الهواء هي ما خدع نظري؟

رغم غرابة وجوده في هذه الأطلال المهجورة بعد كل هذه المدة، فإنني تقدمت خطوة تجاه الممر المظلم، مترددًا. كنت أريد أن أفهم، أتوق بكل وجداني أن أفك شفرة ما رأيته منذ ثلاثة أعوام حين دقت الساعة الخامسة والعشرين في هذا المكان. فأنا أعتقد أن حل لغز ما يحدث يبدأ هنا. أو ينتهي.

الستارة المهترئة تتلوى بجنون مع حركة الهواء لتعيق الرؤية. كم أكره الأبواب المغلقة، حتى لو كان عبارة عن ستارة قديمة مليئة بالثقوب. وهذا الهسيس الغاضب، كأن هناك إعصارًا خلفها يخلق أمواجًا عملاقة تضرب الصخور ويصدي صوتها كالرعد.

نظرت حولي لأجد أن الشمس قد غربت بالفعل، والنهار يتسلل هاربًا. لا يوجد أمامي وقت، لو كنت أريد أن أفهم، يجب أن أتقدم... وأزيح الستارة لأدخل الممر.

تجاهلت ظمئي الذي كان يزداد، وتقدمت. لكن قبل أن ألمس الستار، أمسك أحدهم بذراعي وجذبني بعيدًا عنه. التفتّ مذعورًا، لأجد أمامي آخر شخص أتوقعه.

- حِجِّي؟

***

وقفت على بعد مسافة آمنة من المبنى ذي الطابق الواحد والغرف الأربع، بعد إصرار حِجِّي الذي دخل بنفسه - وبشجاعة لا تتماشى مع مظهره إطلاقًا - ليستكشف محتوى الأطلال. انتظرت لدقائق بدت كالدهر، ناديت عليه خلالها أكثر من مرة، لكنه لم يرد، قبل أن يخرج لي بعد أن سيطر الليل تمامًا على المكان، ولم يعد ينيره سوى عمود شارع بائس على بُعد أكثر من خمسين مترًا. هز رأسه لي بما معناه أنه لم يجد أحدًا.

- بتهز دماغك ليه؟ بقالك ساعة جوة وطالع تهز دماغك؟

- المكان مهجور تمامًا.. مفيهوش غير فيران وحشرات يا دكتور.

- بقولّك راضي كان في الممر الضلمة. هخترع القصة دي ليه؟

سألني وهو يضيق عينيه:

- أنت بَطَّلت أدوية؟

- أنا مش بهذي يا حجي!

قلتها بعصبية فبادرني بصبر:

- إيه اللي جايبك هنا يا مستر جراي؟

أخذت شهيقًا عميقًا وأجبته دون أن أحيد بنظري عن الممر المظلم من بين ثقوب الستارة:

- جاي علشان أفهم. علشان أفتكر.

- تفهم إيه وتفتكر إيه؟

- مش هتصدقني. إذا كان أنا نفسي مش عارف لو كان اللي شفته هنا من تلت سنين حقيقة ولَّا خيال.

أجبته ليقول بنفس ابتسامته المستفزة وهدوئه الأكثر استفزازًا:

- جربني.

شيءٌ ما في عينيه جعلني أتراجع عن سخريتي. يا لك من ضابط غريب الأطوار، كل ما يحيط بك متناقض. حكيت له كل شيء.. بدءًا من المانيكان التي قادتني للمقهى هذا وانتهاءً بالكاميرا التي تسرق الابتسامات. أنصت لي بإمعان ثم مط شفتيه وقال ببرود:

- إنت بس اللي ذكي زيادة، زي اللوا المشدّ ما قالَّك، ودي الطريقة اللي مخك بيفسرها بيها. أنا شايف إن كل حاجة من الحاجات دي ليها تفسير منطقي.

- منطقي إيه وهباب إيه؟ المانيكان جات لوحدها ازاي؟ والميكرفون اتكلم لوحده ازاي؟ والحيطان والكاميرا و.. و.. وتقولِّي منطقي! ده أنا عندي في بيتي جبل من الحاجات اللي دبت فيها الروح فجأة وبقت لها إرادة.

ابتسم وقال:

- مش يمكن إنت اللي عايز تفسرها كدا؟ يمكن إنت اللي عايز تفتح باب الغيب وتبص ورا الستار، عايز تعرف اللي في آخر الممر الضلمة. يمكن جواك ألم رهيب وعايز تصدق الكلام ده.

- كل اللي أعرفه إنه من سنتين، في يوم 31 ديسمبر دخلت المكان

ده - أيام ما كان لسه قهوة – الساعة 11:55. طلبت مشروب اسمه بتهوفن – واللي في الأغلب كان مجرد مياه – وانتظرت لغاية 11:59:59 وشربتها. وبعدها اليوم استمر للساعة الـ 25.

- أعراض انسحاب المهدئات مثلًا؟

- بعد 8 شهور؟ مستحيل.

- طب إيه اللي حصل بعد كدا؟ حاول تفتكر أي حاجة.

أخذت شهيقًا آخر أكثر عمقًا وقلت:

- ذكرى ضبابية، مشهد كأن الدنيا كانت فاضية من الناس... مش الدنيا بتاعتنا، لأ، عالم تاني. عالم كان فيه أطياف واقفة في مكانها زي التماثيل. كلهم بيبصوا في اتجاه واحد. وكان فيه حد... أيوة، واتكلم معايا.

- حد؟ قالّك إيه؟

حاولت التذكر لكن الذكرى كانت أكثر خبثًا مني، اختبأت في جحر عميق في ثنايا عقلي، أعطتني القليل مما يجعلني أقف في منتصف المسافة بين اليقين والنكران.

- قالّي إنه وهبنا حاجة من العالم بتاعه، حاجة تدلنا لبر النجاة وسط البحر الضلمة اللي إحنا مسافرين فيه، قبل... "الوقت" ما ينتهى أو "المهلة" ما تخلص. مش فاكر.

التفتّ إليه منتزعًا نفسي من شرودي وقلت:

- شكلي فعلاً بهلوس.

لم يعلق حِجّي على ما قلته فرميت الستارة بنظرة متفحصة، قبل أن أستطرد:

- يظهر إني محتاج فترة أطول من غير دوا.

نظرت إليه لأجده ينظر معي للممر، قبل أن يلتفت إليّ قائلًا:

- عمومًا فيه حاجة مبشرة بالخير في كل اللي إنت قلته ده.

- هي إيه إن شاء اللـه؟

انحنى ليهمس لي:

- واضح إن فيه حد بيساعدكم.

- بيساعدنا؟ إحنا مين؟

قلتها من بين أسناني بعصبية، ثم حككت شاربي بشفتَيّ مغتاظًا من غموضه وتلاعبه بي.

- وبعدين أنا مش مقتنع بسبب وجودك هنا بصراحة يا حجي. ظهورك في التوقيت ده بالذات. إيه، كنت بتراقبني؟ مش عايزني أدخل ورا الستارة ليه؟

انتظرت بكل إصرار أن يجيبني عن سؤالي، فلو أقسم على الماء ليتجمد أمام عيني لن أصدق أنه جاء ورائي بناء على تعليمات اللواء المشدّ. لكنه أجابني بكل ثقة:

- صدقني، أنا بالفعل دوري أراقبك وأحميك.

حماية؟ أنا أشك أن هذا الضابط الهزيل قادر على حماية نفسه من كلب ضال. لكنه استطرد:

- ولو اضطرتني أحميك من نفسك هعمل كدا. إنت دلوقتي عهدة زيك زي دفتر ناعوت.

ثم استطرد كأنه انتبه لشيء:

- فكّرتني. يالّا بينا.

قالها واستدار ليركب سيارته.

- يالا بينا؟ على فين؟

- هنودي دفتر ناعوت لصاحبته.

يا إلهي. حِجّي هذا حتمًا يستدرجني... لهلاكي.

***

نعم هلاكي.

فأنا سليم لقمان، أنا من يستند عليه الجدار كي لا يقع، من يخفي مشاعره بكل إتقان كي لا يفزع أهل المرضى.

أنا من كان يرى الموت كل يوم بأبشع صوره.

أنا من كان هناك، لحظة الانفجار، من كان هناك في لحظات الصمود والانهيار... أرتعش حين رأيتها أمامي في المستشفى.

فأنا أعلم معنى تلك الابتسامة التي لاح شبحها على شفتيها.

ابتسامة ليست لي، بل له هو.

تقدمت لتختفي بين ذراعَيْ حازم وهبة الهائلتين.. وتذوب فيهما، وتذوب معها ابتسامتها لتنهمر الدموع.

يحتويها، يحميها، يغمرها بما لا أملك أن أعطيها، يعطيها ما تستحق.

تُرى، هل يمكن للعلم أن يفسر ما أشعر به؟ هل يمكنك يا دكتور عازر أن تفسر لماذا عايدة بالأخص؟

لو كنا مجرد تفاعل كيميائي كما تقولون، لو كنا مجرد مادة لا تحركها روح، فما الذي يسرق أنفاسي الآن؟

نعم، سواء على يد عازف الأقدار أو عيون عايدة ناعوت، فخروجي من قلعتي هذه المرة... سينتهي بهلاكي.

عايـدة

تأملت وجهه للحظة، أحاول التأكد أنني أرى سليم لقمان بالفعل، قبل أن أنسحب من عناق حازم وأفرد قامتي في إباء. حاولت السيطرة على مشاعري لكنها تسللت من وراء درعي، غرغرة في عينيَّ ورعشة في شفتيَّ وأنا أقول، كأنني ألومه:

- عيسى يا سليم، عيسى...

***

أنهى سليم قراءة التقرير المعلق على فراش عيسى النائم كالملاك، لكنه ظل يطالعه، لا يريد أن يرفع عينيه عنه. كان يشعر بعينيَّ الملتصقتين بوجهه، متشبثتين به، متشبثة بأي أمل. لكن يبدو أن التقرير لا يحمل في طياته أي أمل.

- خير يا عايدة.. خير. التقرير مش موضح تفاصيل كتير. هروح أسأل طبيب الحالة.

رميت نهلة – التي كانت تقف بجوار سليم وهو يقرأ التقرير واضعة يديها في جيوب المعطف الطبي – بنظرة خاطفة، لأجد وجهها الدائري محتقنًا أكثر من المعتاد. أشار سليم إلى شيء ما مكتوب بالتقرير لتقرأه نهلة، ثم بلع الغُصَّة التي علقت بحلقه، وعانى كي يبتسم وهو يعيد التقرير إلى مكانه.

- الوضع سيئ قوي كدا؟

هكذا سألت سليم ليثبت في مكانه، وينظر لنهلة التي أخذت نَفَسًا

عميقًا وقالت:

- المصابين بمتلازمة داون فرصة إصابتهم بأمراض القلب كبيرة، بس عيسى مكنش عنده أي مؤشرات. وده يخلينا متطمنين.

- سليم، خليك صريح معايا، عيسى ماله؟

سألته ليلتفت إلى نهلة مستنجدًا، فتقدمت بشجاعة تحسد عليها، وفردت جسدها وقالت متقمصة دور الطبيبة المتمرسة:

- عايدة، قلب عيسى... محتاج عملية.

***

عملية جراحية معقدة تنتظر شقيقي ومركز حياتي، هذا ما شعرت به رغم محاولات سليم ونهلة إيهامي بالعكس. كنت أظن أن عيسى هو من يتعلق بي، أنني الأرض التي يقف عليها، لكني كنت واهمة، فأنا من يدور في فلكه.

وجدت الرائد حِجّي أمامي. لمحته في الردهة ومعه كيس بلاستيكي أبيض، وصينية حلوى. يقرأ أرقام الغرف، يسير في طرقات المستشفى، يتأمل ما يحدث حوله في فضول، كأنه زائر يتجول في متحف. توقف بدون مقدمات كي ينظر داخل إحدى الغرف، يتأمل من ينام بها ويتأمل من يزوره. ابتسم، ثم أكمل طريقه ليقف بعدها بأمتار، أمام غرفة أخرى، ويشرد للحظة في محتواها. عبس، وأطرق مفكرًا قبل أن يجدد حماسه. أشرق وجهه بالأمل، فعاود السير... حتى رآني.

ازداد وجهه إشراقًا وأسرع من خطوته. تأملته للحظات، هذا الجسد الهزيل والعيون الكحيلة الجاحظة، وتلك الألوان الزاهية المتناقضة، لا تبدو لي عشوائية. ففي نهاية الأمر هذا عملي، أن ألمح النمط في الملابس واللوحات والقطع الفنية العتيقة، وما يرتديه حِجّي هذا يبدو لي كتشكيلة من ثقافات مختلفة. نوبي على أفريقي على بحر أوسطي، لوحة مجمعة من بلاد شتى، لكن الأمر بالتأكيد أبسط وأتفه من هذا مع حِجّي. خرجت من غرفة عيسى لأستقبله. توقف أمامي وأفزعني حين ضرب بحذائه بلاط المستشفى بطريقة عسكرية، ثم أومأ برأسه كمن يُحَيِّي فردًا من عائلة ملكية وقال بصوت فخيم وأسلوب درامي:

- آنسة عايدة، تحياتي.

- سيادة الرائد، اتفضل.

ابتسم بملء فيه، أعاد هندمة قميصه البنفسجي، وتقدم ليعطيني الصينية.

- مدا... أستا... آنسة عايدة، أخبار أستاذ عيسى إيه؟

قطّبت حاجبَيّ بقوة حين رأيت محتويات الصينية، وكدت أن أبتسم لولا قتامة الموقف. من يأتي بصينية "مِشَبِّك" لمريض؟

دعوته للدخول لكنه قال:

- لا معلش. أنا مستأذن ساعة ولازم أرجع الشغل.

سكت بعدها وعيناه تدوران في مقلتيهما باحثتين عن شيء

فبادرته قائلة:

- دكتورة نهلة جاية كمان شوية.

ضحك محرجًا وضاقت عيناه مثل إسماعيل ياسين قبل أن يقول:

- تيجي بألف سلامة. خلاص هقعد معاكم شوية.

استدرت لأدخل قبل أن أفعلها وأضحك، ثم ذهبت لأضع صينية المشَبِّك على الطاولة. وحين استدرت وجدته منحنيًا يهمس في أذن عيسى.

راقبته للحظات محاولة التقاط ما يقول، لكنه اعتدل وفرد قامته ليلتفت لي قائلًا:

- خلي عيسي يرسمني أنا كمان. بيقولوا إني جوتوفينيك.

ضحكت رغمًا عني فبحلق في وجهي متعجبًا.

- علشان المسابقة بتاعته. أنا بقترح بس.

- فينيك إيه يا سيادة الرائد؟ اسمها فوتوجينيك.

قطَّب حاجبيه محاولًا التذكر، ثم مط شفتيه وهز كتفيه بلا مبالاة قبل أن يتدارك شيئًا. رفع يده بالكيس البلاستيكي قائلًا:

- آه صحيح. اتفضلي. دفتر ناعوت.

تسمرت مكاني حين أخرجه من الكيس. عاصفة من المشاعر انهالت عليّ وتضاربت حتى كادت أن تُفقدني صوابي. تذكرت رائحة أبي عليه وكلماته التي تركها لي على صفحاته، المصباح الوحيد

في ليل بحر هائج حالك السواد. تذكرت عناد الدفتر معي ورفضه كلماتي... تذكرت الوحيد الذي نجح في الكتابة فيه بعد والدي... القاتل الرحيم الذي سكن أقوى كوابيسي.

دفتر به كلمات تركها أكثر من أحببت وأخرى تركها أكثر من بغضت.

ها هو ذا أمامي مرة أخرى، بغلافه الجلدي الأدْكَن، وعنوانه المكتوب بالأحمر القاني. وفي تلك اللحظة شعرت بالسكون التام، كأنني انعزلت تمامًا عما يحدث حولي، وأنا أتحسس جلد الغلاف الطبيعي بوجهي المنقوش عليه في الاتجاهات الأربعة. رفعته وضممته إلى صدري وكأنني احتضنت أبي... كأنني أسمع همساته.

رفعت عينيّ عن الدفتر لأحدق بوجه حِجّي، لأجد على وجهه ابتسامة أبوية، بعد أن كان كالطفل البريء المراهق قبلها بثوانٍ، تحول إلى حكيم عاش ألف عام.

- عايدة هانم، إنتي الوحيدة اللي ممكن تحلي لغز الدفتر. فيه كلمة من كلمات المايسترو اتشطب عليها، ومن غير ما حد يقرب منه.

فتحه لي على قصيدة عازف الأقدار لأجد كلامه صحيحًا.

- دي مش كلمة واحدة. "في بضع سنين" وكلمة "في يوم" الاتنين مشطوب عليهم.

التفت إليّ بسرعة البرق وعيناه جاحظتان.

- إيه؟ وريني كدا؟

أعطيته الدفتر متوجسة فالتقطه بلهفة وقرأ القصيدة ثم رفع

عينيه إليَّ، أخذ نَفَسًا عميقًا وتدبر قليلًا قبل أن يعطيني الدفتر ويقول:

- ده فعلًا فيه كلمة تانية اختفت. عن إذنك.

قالها وابتعد ليتحدث في المحمول.

***

مرت أيام كبرت فيها أعوامًا. ساعات طويلة لا تنتهي نسيت فيها الدفتر وحجي والمايسترو والدنيا كلها.

ضغطة خفيفة على ذراعي جعلتني أرفع رأسي الذي أسندته على الحائط ورائي في صالة الانتظار، كف أعرف صاحبها جيدًا، فليس هناك الكثير ممن لديهم يد بهذه الضخامة. فتحت عينيّ اللتين خانتاني وانغلقتا من شدة الإرهاق، لأجد حازم يقف أمامي بكوبين من الورق المقوى يكادان يختفيان في كفيه ويخرج منهما البخار. حارس عملاق صامت يختزن الرعد في صدره، ولا يجرؤ على الزئير به.

أومأ برأسه، ففهمت، لقد حان الوقت.

ظهر وجه سليم خلفه، يسير مع نهلة في نهاية الردهة وحولهم كوكبة من الأطباء. المرة الأولى التي أرى فيها سليم بالبالطو الأبيض منذ زمن، اللون الوحيد المختلف عن الرمادي الذي يصبغ وجوده.

وضع حازم كوبه، وذهب إليهم ليتبادل مع سليم حديثًا قصيرًا، متعمدًا أن يعطيني ظهره ليسد عليّ رؤية وجوههم الثلاثة.

- قالك إيه يا حازم؟

سألته حين عاد ليقف بجواري. جلس بعدها وعقد ساعديه أمام صدره، يراقب الحشد الذي عبر لتوِّه الباب المزدوج إلى غرفة العمليات.

- كله بإيد ربنا يا عايدة.

كنت على وشك أن أصيح فيه وأصب عليه كل توتري، لكني رأيت طاقم التمريض يخرج من المصعد بالترولي الذي يرقد فوقه عيسى مبتسمًا. هُرعت إليه واحتضنت كفه وأنا أتخلل شعره الأشقر، قبل أن يضعوا فوقه الطاقية الطبية الشفافة.

ضحك وقال وهو يرفع لي إبهامه بحركة النصر:

- متنسيش "نُسُوماتي" عايدة. "المغْنَض" هيبقى كدا.

تعجبت من هدوئه، هو ذكي بما يكفي ليعرف ما هو ذاهب إليه، وقد كان ذكيًا أيضًا حين كان المايسترو على وشك أن يقتلنا نحن الاثنين.

وكان يجب أن أسأله:

- عيسى... هو إنت مش بتخاف؟

عيسى

أنا لا أخاف.

***

لا أذكر أمي، لا أذكر سوى نبضات نور... وجه منير، قلب ساطع، روح مضيئة. دفء، ضحكة، لمسة، حضن... شمس. كانت جزءًا من حياتي، قبل أن أبدأ في اختزان الذكريات والمشاعر.

بعدها، لا يوجد إلا وجهك أنت يا عايدة. أنت من جاء ليحل محل شمس أمي التي غربت.

أعشق أوقاتنا معًا يا عايدة، منذ صغري. ويجب أن تعرفي أني أريد بكل كياني أن أصيح بحبي لكِ.. وامتناني.

أنا بخير يا عايدة، لا تجزعي، طيلة عمري كنت بخير، خوفك عليَّ كله كان بلا داعٍ.

بل إنني محظوظ.

لأنني لا أخاف.

فلديَّ أنت ليحبني.

وحازم ليحميني.

ومستر جراي الذي يسعى بكل طاقته أن يفهمني.

لكني لست لغزًا يا عايدة. أنا أبسط مما يمكن لعقولكم المنهكة أن

تستوعبه.

فأنا لا أخاف.

ليس كما يخاف الناس مني.

أعلم أنني مختلف يا عايدة، قالها لي عازف البيانو الحزين، ذلك الذي زارنا في بيت مستر جراي وجعلك تبكين. قال لي إنني عبء عليك، عبء على الدنيا، إنني ثقل ينوء به ظهرك.

سألني القاتل الباكي إن كنت قد اكتفيت، إن كنت أريد الخلاص من... لا أدري من ماذا، من نعمة الانتظار؟

حاول أن يُفهمني مقصده، لكنني أعطيته إجابتي الوحيدة دون أن أنتظر.

أخبرته أنكم جميعًا مالكون لقَدَركم، تزرعون وتحصدون، لكني لم أختر أن أولَد هكذا.

بل لم أختر شيئًا على الإطلاق.

في تلك اللحظة، كان الوحش الذي يلتهم البراءة والضعف بلا رحمة، الغول الذي أرهب بلدًا بأكملها.. أضعف مني.

أعلم أنني لست جميلًا مثلك يا عايدة، ولا ذكيًا مثلك يا سليم ولا قويًا مثلك يا حازم. أدرك هذا، رغم محاولاتكم أن تُشعروني أنني مثلكم. يؤلمني هذا، يرهق عقلي وروحي، فأنا لا أستطيع أن أفعل ما تفعلون.

أنا لست مثلكم. أنا فقط.. محظوظ.

فالدنيا عندي أبسط من دنياكم. هي عندي حُبٌّ أو ألمٌ، فقط. لا أستوعب تلك الكلمة: "كراهية"، لا أفهمها ولا أريد أن أفعل. أنسى سريعًا كل ما يؤلمني حين أرى من أحب، وأتألم كثيرًا لو تركوني.

ولهذا فأنا لا أخاف.

تدَّعون أنكم مكتملون، ولهذا تظنون أن معكم الإجابات.

لكنكم لا ترون الصورة مكتملة.

فقط من هم لديهم "وجود" أكثر هدوءًا ونقاءً مثلي يمكنهم رؤيتها.

فهناك نغمة خافتة تطوف أنحاء الدنيا، تصل كل شيء وكل شخص.

هناك أشياء بين الحقيقة والخيال، لا أفهمها لكني أراها، وأنتم لا ترونها.

نحن نراها لأننا لسنا هنا، ليس بنفس صورتكم، بل أجزاء منا فقط هي من جاء إلى هذا العالم.

وبقيتنا تنتظرنا.. هناك، حين تكتمل النواقص.

صلتنا بكم، بهذه الحياة، أكثر "رقة".

ولهذا فأنا محظوظ.

محظوظ لأني أرى منها ما يكفي، أقف على المسافة المثالية، كي أرى جمال الصورة، وليس عيوبها.

أما أنت يا عايدة، فأنا أرثي لحالك، فأنت يجب أن تري عيوب الصورة، حتى تَرَيْ كمالها.

أنت وحازم ومستر جراي، مساكين.

تختبرون كل شيء، بمنتهى الدقة والاستيعاب، تحملون على عاتقكم ما ليس لكم أن تحملوه.

عايدة، أتظنين أنني أخشى الرحيل؟

لا يا عايدة.

فأنا... لا أخاف.

سليم

صباح يوم العملية، جاءني إيميل مثير للقلق، رسالة من ريتشارد.

"صديقي سليم، كيف حالك؟

بلغني من البروفسور عازر أنك متردد في قبول عرضه، ولهذا فأنا أبعث لك كي أطمئنك – من عالِم لعالِم – وأؤكد لك أنه عرض لا يُفَوَّت. سيكون أمامك فرصة لا تعوض كي تطور أبحاثك وتنهي مشروعك العلمي والإنساني.

أرجو التفكير مليًا في هذا العرض وأتمنى رؤيتك في فنلندا كي نعمل معًا".

لا، لم يكن عرضًا مريحًا يا ريتشارد، بل مريبًا لأقصى حد، وتوقيته أكثر ريبة. ورسالتك هذه تؤكد ظنوني، فأنا لم أكن أبدًا "صديقك".

"الدكتور المحترم ريتشارد،

تحياتي...

أود أن أشكرك على اهتمامك، وأخبرك أني متوقف عن أبحاثي في الفترة الراهنة لاهتمامي بمشروع أضخم بكثير، وأعتقد أنك قد أدركت ماهيته من خلال صولاتنا وجولاتنا التي خضناها أونلاين. ولهذا فإنني لا أعتقد أنني سأقبل بعرض الدكتور عازر – أيًا كانت نيته.

ولك مني كل الشكر والتقدير".

ظللت مبحلقًا بالشاشة، أحاول أن أصل الخيوط، متجاهلًا نهلة التي كانت جالسة أمامي تبكي وهي تتابع مقطعًا على اليوتيوب، فيديو مدته دقيقة شاركته عايدة معها. أخذت تكرره مرارًا حتى حفظته: طفلة تقول بالإنجليزية: "أنا قبيحة للغاية". تنظر إليَّ كي أشاركها مأساتها، لكن عينيَّ الملتصقتين بشاشة الكمبيوتر أصابتاها بالإحباط.

- إنت مش بطلت زفت أدوية؟

سألتني لأجيبها دون أن أنظر إليها، أرتب أفكاري:

- أيوة.

- أومال مالك تِنِح ليه كدا؟

قالتها بغيظ فالتفتُّ إليها مبتسمًا.

- هو لازم أقعد أعيط جنبك علشان مكنش تِنِح؟ وريني يا ستي.

- والله أبدًا.

قالتها ووضعت هاتفها في جيب البالطو وهي تنهض قائلة:

- واتفضل يالَّا. العملية جاهزة.

وهكذا وجدت نفسي بعدها بدقائق، أراقب "وداع" عايدة لشقيقها. نعم في نظري كان وداعًا، برغم أمنيتي أن أكون مخطئًا في حساباتي، أن يكون هناك أمل حقيقيّ، أن تكون الدنيا قائمة على شيء أكبر من "حساباتي" تلك.

تفاديت نظرات عايدة واكتفيت بطمأنة حازم، حين جاء ليسألني عن الوضع. دلفت بعدها إلى غرفة العمليات لأجد عيسى مبتسمًا لي وهو يتلقى إبرة "الكنيولا" في ذراعه. ذهبت إليه وربّتّ على ذراعه مشجعًا لكنه كان هو الذي قال:

- متخفش مستن جناي.

ثم مد يده لي بقلم حبر أبيض كان يخبئه وغمز لي. أخذت القلم وتأملته للحظة قبل أن أضعه في جيبي ثم حدقت بعيسى مبهوتًا من فرط شجاعته، كم كنت ضئيلًا حينها. لمحت لسان عيسى مدلى خارج فمه كعادته فاقتربت منه لأسأله:

- عطشان يا عيسى؟

- مش متضايق.

قالها ببساطة مبتسمًا فبادرته مستغربًا:

- إشمعنى يعني؟

- أصل المياه بقى طعمها تحفة.

رفع إبهامه بعلامة الجودة لتسطع في ذهني فكرة قلبت كل الموازين.

هـو

لوجو أسود مميز يتوسط الشاشة العريضة، رمز على شكل نغمة موسيقية بها قلب أحمر. تصميم عبقري، خصوصًا إذا أضفنا إليه اسم القناة المكتوب تحته بخط إنجليزي أنيق: **The Last Beat**. والذي بدوره يشير إلى النغمة أو نبضة القلب الأخيرة على حد سواء.

يبتعد اللوجو كي يسمح للمتفرج أن يرى المقطع الذي تم تصويره بكاميرا متحركة. تظهر ردهة منزل مظلمة إلا من نور الكاميرا التي تنقل صوت حركة حاملها، وهمس خافت غير واضح.

تصل الكاميرا إلى باب غرفة ويمد حاملها يده ليفتحه. ذراع في معطف أسود وساعة جلدية. يدخل حامل الكاميرا الغرفة ويذهب إلى فراش صغير ترقد عليه طفلة سمراء لا تتعدى السنوات الأربع. تقترب الكاميرا من وجهها في نفس اللحظة التي يجلس فيها شخص من الناحية الأخرى من الفراش، بجوار الطفلة.

ينقطع البث ليظهر مقطع للطفلة مع أمها. تصف نفسها بالقبيحة، قبل أن تحتضنها الأخيرة وينتهي المقطع لنعود للبث المباشر.

يهمس المايسترو بالإنجليزية، لكن صوته واضح في التسجيل:

- كم منا يدرك أنه لن يتقدم في هذه الحياة مهما فعل؟

كم منا يرى نفسه قبيحًا، بلا وصف براق زائف؟ يعلم في قرارة نفسه أنه لن يحصل على من يحب؟ أنه سيعيش وحيدًا؟

كم منا يدرك أن مصيره أن يسمع الأغاني فقط، أن يشاهد الأفلام

فقط، أن يرى أحلامه يعيشها الآخرون.. فقط؟

تقترب الكاميرا من الطفلة البريئة، أرق من الأنغام.

- كم منا يعلم أنه ليس بالذكاء لينجح؟ ليس بالقوة ليهزم؟ ليس بالغنى ليحصل على ما يريد؟

كم منا يدرك تمامًا أنه سيعيش يحارب ويدمي ويبكي لياليَ طوالًا كي يصل إلى ما يملكه الآخرون بدون جهد؟

تذهب الكاميرا للمايسترو، تصعد على ساقه، إلى صدره، إلى ذقنه، تتحرك وهو يستطرد:

- أنا لا أدعي أني قادر على الحصول لكم على العدل، لا، ليس في عالم تأكل فيها الأنثى صغارها.

لا أدعي أني قادر على تغيير هذا الواقع المظلم، فأنا كائن من ظلام، لا أحمل في يدي شموعًا ولا أنتظر مجيء فجر. فالأصل هو الليل، والنهار دخيل عليه، ولو توهمتم أنه جاء، لو ظننتم أنه معكم الآن وأنكم قد ملكتم الدنيا، فاعلموا أن النهار لا يدوم.

تتحرك الكاميرا لتقف على وجنة المايسترو اليمنى، تنحدر دموعٌ فوق وجهه الهزيل كثير الشقوق والتعرجات، لكن لا تظهر بقية ملامحه.

- أنا لا أقول لكم ثوروا حتى لا يفاجئكم القدر بمدى سذاجتكم.

لا أقول لكم حاربوا، اصمدوا، انظروا للجانب المشرق، فهو أسطورة لا وجود لها.

بل إني حتى لا أقول لكم أن تتمنوا، فالأماني هي أكثر الكاذبين قسوة.

أقول لكم شيئًا واحدًا:

كفى.

فقط... كفى.

قولوها معي. اختاروا لهذه الطفلة.

هيا... أنا أسمعكم.

ينقل ميكروفون الكاميرا بكاء حاملها الخافت، يصمت المايسترو للحظات تعود فيها الكاميرا إلى وجه الطفلة.

- أنا أعدكم شيئًا واحدًا.

تظهر لقطة سريعة لعدد المعجبين بالفيديو، والذي كان يقفز بالعشرات في المرة الواحدة. على الرغم من قتامة ما يقوله المايسترو، فإنه يلاقي قبولًا عالميًا. تعليقات بالآلاف تؤيد ما يفعله.

- أنا... عازف الأقدار... أعدكم... الخلاص.

يمد يده ليكتم أنفاس الطفلة. يستطرد وهو يبكي:

- وقد اخترتموه لها.

شاشة سوداء... وينتهي الإرسال.

***

هبط صمتٌ مُدوٍّ ضيقًا ثقيلًا على مكتب اللواء المشدّ، الذي سيطر على غضبه وترك ذراع كرسيه قبل أن يكسره، ليلتفت إلى الشاشة التي كانت تعرض فيديو المايسترو. قُسّمت الشاشة بعد الفيديو لأربعة أجزاء، يطل منها أربعة وجوه: رجل آسيوي وآخر قوقازي وامرأتان، إحداهما ثلاثينية سمراء لاتينية، والأخرى أربعينية حمراء الشعر شديدة البياض كثيرة النمش.. والأخيرة كانت هي من كسر الصمت.

- سيادة اللواء، ما رأيناه الآن خطير... لا، بل هو مرعب.

استكمل الآسيوي كلامها:

- لقد صار لهذا المجنون أتباعٌ بالملايين. تحصد قناته على اليوتيوب مليارات المشاهدات.

- ليس فقط من المتعاطفين والمعجبين بكلامه وأفكاره، حالات الانتحار الجماعي انتشرت بشكل رهيب.

هكذا أضاف القوقازي بلكنة بريطانية جافة قبل أن تضيف المرأة اللاتينية:

- لقد صار الأمر ديانة، كارثة بكل المقاييس، كارثة لا نملك القدرة لردعها ولا الحق في ملاحقة معتنقيها. كارثة قادمة من عندكم يا سيادة اللواء.

صمت المشدّ للحظات مفكرًا قبل أن يقول:

- أيها السادة، لقد خرج المايسترو من مصر بكل تأكيد، لكنه خطؤنا

كلنا، ذنبنا جميعًا.

هتف البريطاني بعجرفة ونفاد صبر:

- ماذا تعني سيادة اللواء؟ هل تتنصل من المسئولية؟ إنها مشكلتك أنت وقد عادت إليك كما خرجت. صاحب هذه القناة والمدعو بالمايسترو موجود في مصر الآن. ماذا أنت بفاعل؟

- نحن لا نتنصل من شيء. أخبركم فقط أن المايسترو هذا صديد جرح تسببنا فيه جميعًا. الأمر سينتهي يا سادة. فقط أتمنى أن تنتهي معه المشكلة الأساسية.

هكذا أجابه المشدّ فتعلق حمراء الشعر:

- ماذا تعني؟

تنهد ليجيبها:

- أعني أنها ليست المشكلة الوحيدة. أتكلم عن الحوادث غير الطبيعية التي انتشرت في كل بقاع الأرض. أتكلم عن الجماد الذي بدأ يشعر والآلام التي بدأت تنطق. أتكلم عن حالنا، حال البشر.

سكت الأربعة مستغربين من كلامه، قبل أن تسأله حمراء الشعر:

- ألم تَقُل سيادتكم إن هناك من تم تكليفه بالفعل، محقق عبقري ما. أظنه لُقب بـ"مستر جراي"، كنت أظنها كنية عميل مخابراتي، لكن كلامك هذا يجعلني أشك أنكم استعنتم بمشعوذ.

مد يده لينهي الاتصال قائلًا:

- نعم.. لقد تم تكليفه بالفعل، ونعم هو عبقري وليس مشعوذ، وربما يكون أملنا الوحيد. لكن.. لا تعبئُوا بكلامي. إنها مجرد رؤية لأشياء لا تفهمونها. سنكون على اتصال.

أنهي المشدّ الاتصال ليرجع بعدها بظهره. التقط جهاز التحكم عن بُعد، وتصفح على الشاشة مقتطفات من جميع أنحاء العالم. لقطات انتحار على كباري، وتحت عجلات القطارات. ثم صور أخرى لحشود في ميادين وشوارع وحدائق عامة. بكل حماس يرفعون أعلامًا بيضاء عليها علامة المايسترو بجانبها لافتات تقول: "كفى".

أوقف عرض الصور على لافتة واضح عليها الرمز ليكبر الصورة حتى تصير بحجم الشاشة كلها. في اللحظة نفسها دخل عليه مدير مكتبه.

- الرائد حِجّي باشا سيادتك.

- خليه يدخل.

ظهر حِجّي ببدلته الميري، وأدّى تحية قوية على باب الغرفة.

- اقعد يا حِجّي.

جلس حِجّي ليقطب حاجبيه محدقًا في رمز قناة المايسترو، قبل أن يفزع حين يصيح به المشدّ:

- انطق يابني! فيه إيه؟

- أنطق أقول إيه؟ آه، معلش سيادتك. الدفتر.

- ماله؟ اخلص!

- اتشطب على كلمة تانية سعادتك. المهلة معاليك... قربت تخلص.

حازم

لسبع ساعات كاملة، ظل الأطباء داخل رأس عيسى المسكين، بينما عايدة تغط في النوم على الكرسي، رأسها مغروز في كتفي. كنت تقريبًا لا أتنفس كي لا أوقظها، حتى اهتز هاتفي باتصال ما. بمنتهى الرفق، أمسكت برأس عايدة ونهضت بحذر كي أميلها لتفرد نفسها على الأريكة. تململت لثوانٍ ولاكت الهواء في فمها، لكنني همست في أذنها أن تنام وربَّتُّ على رأسها، فابتسمت وأكملت نومها.

حين رأيت اسم عوني، نظرت لعايدة النائمة في سلام، مدركًا أن فترة الهدوء القصيرة في حياتي قد انتهت. أجبته فقال:

- طلبت مني أقولك لما المايسترو يظهر في مصر تاني.

***

لقد ظللت صامتًا أطول مما أحتمل، أطول من قدرتي على التسامح.

رأيت أمي تذبل أمامي. رأيت عايدة تتصدع كجبل تكالبت عليه المطارق. رأيت عيسى يبتسم في وجه الموت حتى أصابنا جميعًا بالخجل.

وظللت صامتًا...

رأيت نجوم أكتاف منعم متفحمة. رأيت بقايا رجب وأطفاله. رأيت المايسترو يقتل، والألوسي يقهر، وعوني يخون.

وظللت صامتًا...

لكن حين عرفت أن ألد أعدائي قد عاد إلى مصر... لم أَعُد أقوى على الصمت.. لا بد أن ينتهي هذا الكابوس.

لم أشعر بقدميّ وهما تقطعان بي الردهة، أقفز السلالم نزولًا على مرة واحدة، أشعر بها تتزلزل تحت قدمي. أتفادى الممرضين والمرضى والأطباء كي لا أسبب خسائر أكثر مما هم فيه.

لقد وعدت المسكينة التي ترقد بالأعلى أني سأتغير. لكنني سأجعل هذا العازف يدرك أن موسيقاه نشاز لا تقبلها نفس... حتى لو افترشت الجثث الأرض من هنا إلى...

***

قصر الألوسي أمامي.

سرت بحذاء السور المغطى بالأشجار والممتد بطول الشارع حتى ظهرت البوابة أمامي. قمت بتقييم الموقف وببعض الحسابات السريعة لأحدد الطريقة المثلى للدخول. كان يمكنني التسلل والوصول لصاحب القصر مهما كانت درجة تحصُّنه، وفي طريقي كنت سأحطم أذرعًا وسيقانًا ورقابًا عديدة، لكني وجدت البوابة مفتوحة.

دعوة؟ تَحدٍّ؟

ترددت للحظة وأعدت حساباتي، هذا الهدوء، أقوى من اللازم. أنوار السور غير مضاءة ولا وجود لرجال الأمن، عكس ما توقعت. هل

خدعني عوني؟

لا مفر. فردت جسدي وشحذت حواسي، ثم سرت في الممر الذي تحيط به الأشجار من الجانبين وتظلله كالأنبوب. ظلام دامس يحيط بي، ولولا الضوء الذي يأتي من نهاية الممر لفقدت إحساسي تمامًا بمحيطي. أزيد من سرعتي متجاهلًا ذلك الهاجس الذي كان يصرخ بي كي أتراجع، لكن الدافع الذي جاء بي هنا كان أقوى من قلقي.

الضوء كان مصدره جهاز كمبيوتر، يجلس أمامه رجل أشيَب منمَّق الشعر، يعطيني ظهره ويده اليسرى مستقرة على لوحة المفاتيح. جلت ببصري في المكان حولنا، ظلام دامس، حتى القصر نفسه، جميع غرفه وطوابقه وممراته وحدائقه لا ينير فيها مصباح واحد. هذا عجيب، لا شيء يقف بيني وبين أخطر رجل في مصر، عجيب لدرجة مقلقة. انتظرت لحظات كي يستدير ليواجهني لكنه لم يتحرك فتحكمت في أعصابي قبل أن أقول بنبرة محايدة:

- هو فين؟

لم يُجِبني أو حتى يغير من وضعه، فكررت عليه سؤالي بنبرة أقل صبرًا:

- المايسترو فين يا ألوسي؟

للمرة الثانية لم يأتني رده، بل لم يَبدُ عليه أنه سمعني من أساسه. شعرت بالأدرينالين يُضخ في عروقي، وارتفع الطنين في أذني لكني خطوت باتجاهه قائلًا من بين أسناني:

- إنت عارف إني هاخد منك الإجابة سواء بمزاجك أو غصب عنك.

درت حوله كي أرى تعبير وجهه، كي أرى الزعيم بنفسه، "اللهو الخفي" المسؤول عن ثلاثة أرباع الجرائم في البلد، اليد الخفية التي تقوم بأفعال قذرة لأباطرة الفساد في مصر والعالم العربي، رأس حربة جيش عازف الأقدار. وبالفعل رأيته...

غارقًا في دمائه.

تحولت فجأة إلى تمثال أصم.

يا لك من أحمق يا حازم. كيف سيطرت عليك الرغبة في الانتقام لهذه الدرجة حتى أنستك كل ما تعلمته وأتقنته؟ كيف جعلتك تتجاهل أجراس الإنذار التي كانت تصرخ منذ وطأت قدماك هذا القصر المهجور؟ كيف أغفلت المؤشرات الواضحة للعيان أن هناك خَطْبًا ما؟

هذه الظلال التي ألمحها، تلك الحركة الخفية التي صاحبتني من بداية الممر، واستترت خلف الأشجار المهملة التي تحيط به، غصن ينكسر تحت قدم هنا وفرع يزيحه ذراع عن طريقه هناك. تغاضيت عن كل هذا وأقنعت نفسك بطريقة ما أنه لو يُراد بك شَرّ، لكان استقبالهم مختلفًا تمامًا. لكنك لم تتوقع هذا المشهد الذي تراه أمامك.

والذي لا تستطيع تفسيره...

لماذا يقتلون زعيمهم؟ من فعلها، وكيف؟

- مش قلت لكم إننا مش محتاجين نولع أنوار البيت، كفاية نور

حازم باشا. ده إحنا النهارده في عيد يا جدعان.

التفتّ ببطء لقائل هذه الكلمات، متوقعًا رؤية دب قطبي مكدس العضلات ذي وجه طفولي ورأس صغير لا يتناسبان مع حجمه. وبالفعل، خرج الغاياتي من بين الشجيرات وفي يده سلاح نصف آلي يصوبه إليّ. استطرد وهو يشير لجثة الألوسي.

- لما عوني باشا قالّنا إنك هتيجي مصدقناش نفسنا، وقلنا لازم نعمل لك استقبال يليق بك. إيه رأيك؟

من ورائه ظهر عوني، بدون سلاح، فقط نفس الابتسامة الهازئة. رفعت رأسي وفردت جسدي في كبرياء بعد أن أحاط بي رجال مسلحون. جُلت ببصري فيهم لأجد أنهم ليسوا صبيان الغاياتي، بوجوههم المظلمة ولحاهم الطويلة وملبسهم الرث، بل رجال من جنسيات مختلفة، مهندمين في معاطف سوداء.

- مستغرب؟ إحنا في زمن جديد يا حازم باشا. الرجالة اتغيرت، الأهداف اتغيرت والزعيم نفسه اتغير.

- المايسترو؟

ابتسم الغاياتي ولوّح بسلاحه تجاه عوني قائلًا:

- ما هو مش عضلات بس أهوه يا عم عوني.

انمحت ابتسامة عوني حين ذكرت المايسترو فبادرته:

- وانت يا عوني؟ طيب الجاموس ده مخه على قده وممكن المايسترو يضحك عليه بكام ملطوش.. إنت بقى، ضحك عليك بإيه؟

زأر الغاياتي بصوت لا يتناسب إطلاقًا مع ملامحه الطفولية العصفورية:

- كام ملطوش؟؟ المايسترو ده معاه سر الدنيا اللي إحنا عايشين فيها دي! مع إنه مش بيحب أقول عليه نبي بس أنا مصمم إنه كدا. أقلّها ولي من الأولياء. نظرة واحدة في عينه تشفيك.

- تشفيك ولّا ترعبك؟ إنت خايف منه يا غاياتي، مذعور، زي الحيوانات لما تشوف اللي أقوى منها. الألوسي دوره خلص، تمام، ودي نهايته المنطقية. بس أنت بقى، فكرك هيعمل فيك إيه بعد ما يستفيد منك؟ وأنت يا عوني، نفس الشيء. تبقوا أغبيا لو توقعتوا إن السيناريو ده هيمشي لصالحكم.

تلعثم الغاياتي ونظر لعوني ليتبادلا نظرة قلقة. التفت بعدها لرجال المايسترو المحيطين بنا ليجدهم يحدقون بهما بمنتهى القوة، يقرؤون كل خلجة من خلجاتهما، ككلاب برية تحيط بضبعين وتقيس نقاط ضعفهما. وكما علمتني خبرتي العملية، فليس كل المعارك تكسبها بقوة الذراع. التفت لمن أحاط بنا وأشرت لعوني وللغاياتي مستطردًا:

- الاتنين دول معندهمش حاجة اسمها مبدأ. كل واحد فيهم خان الأمانة، ده خان سيده وده خان بلده. إنتم كمان تبقوا أغبياء لو فكرتم إنهم بنفس ولائكم.

قطع كلامي هتاف عوني الذي نطق للمرّة الأولى:

- يا جبروتك يا أخي! لك عين تتكلم عن الخيانة؟ واللي عملته لما كنت في القسم الإداري إياه؟ مين اللي خان الأمانة؟

ابتسمت منكسرًا وبدون مكابرة وافقته.

- خطيئة كفَّرت عنها لما اتبرعت بفلوسي كلها، حتى اللي ورثتها عن عيلتي. ولسه. هقعد طول عمري أكفر عنها و...

- وتتجوز عايدة السنيورة وتعيشوا في تبات ونبات وتخلفوا صبيان وبنات. مش كدا؟ لا يا وهبة بيه، إحنا مش في قصة من قصص سندريلّا. والذنب اللي أنت عملته مش هيروح بالندم. بس متقلقش، مش هتحتاج تكفر عنه! اللي خنتهم جايين بنفسهم علشان يقوموا بالدور ده بالنيابة عنك.

هكذا قاطعني مرة أخرى وهو يشير لشيء معلق أسفل البلكونة ومستتر بين أفرع الأشجار، والتي كانت كما استنتجت حين وقعت عيني عليها: كاميرا مراقبة. وقبل أن أفتح فمي سمعت سرينة سيارات الشرطة تقترب.

لم يكن مقتل الألوسي المفاجأة الوحيدة إذًا، وللمرة الثانية خانتني حواسي وشتتتها مشاعري المتضاربة. نسيت أبسط قواعد المواجهة.

والآن يجب عليّ أن أدفع الثمن، والخيارات أمامي لم يكن بها واحد ينتهي لصالحي. حولي ما يزيد على دستة من مريدي المايسترو المتعصبين والمستعدين عن التضحية بحياتهم لو طلبها منهم. يقودهم خرتيت بلا عقل، فحل طائش ليس له كلمة ولا ولاء. وفوق هذا كله هناك عوني، ضابط سابق مدرب على أعلى مستوى.

لو بادرت بالهجوم هناك احتمال أن أتمكن من التسبب في إصابات كثيرة، فغضبي وحده يكفي. لكني في الأغلب سألقَى حتفي في النهاية، وهو ما لم يكن ليهمني في شيء لولا من هم في حمايتي، من يعتمدون عليّ، من يجب أن أحميهم مما هو قادم.

في الوقت نفسه، لو استسلمت لألقت الشرطة القبض عليّ بتهمة التواطؤ مع الألوسي في قضية فساد كبرى، والتي اعترفت بها لتوِّي أمام الكاميرا. وربما اتهموني بقتله. الخيوط كلها متصلة الآن، محبوكة حولي، وقد علقت بها كالذبابة في شبكة العنكبوت.

كان القرار هو أن أعطي لكلٍّ من عوني وغاياتي نظرة أخيرة، بها وعد لن أحنث به ما دمت حيًّا، قبل أن أستدير بكل هدوء وأتجه للأشجار المتشابكة. وبينما كنت أذوب وسط أحراش حديقة قصر الألوسي المهملة، سمعت عوني يصيح:

- فكَّر كويس في اللي بتعمله يا وهبة! الدنيا كلها هتجري وراك! هتروح فين؟

أمي... عايدة... عيسى... لقد خذلتكم.

سليم

ما قاله عيسى رهيب... يقلب جميع الموازين، ولهذا فيجب أن أستعد.

***

اقتحمت مكتبي لألملم أشيائي استعدادًا للذهاب إلى بيتي، فقد كان لديَّ موعد مع عازف الأقدار لا يمكنني أن أخلفه.

- سليم...

التفت لنهلة التي وقفت كالتمثال عند الباب، عيناها الجاحظتان متسعتان خلف نظارتها العملاقة، أكثر من أي وقت مضى، البالطو الأبيض مفتوح، وفي يدها هاتفها المحمول. حاولت أن تتكلم لكنها لم تتمكن فأسرعت إليها لأرى ما يعرضه هاتفها. وما إن أمسكت به حتى نجحت في النطق:

- قتلها المجرم. قتل الطفلة السمراء يا سليم. هيدمر الدنيا، المخبول هيدمر الدنيا. هيفضل يقتل ويقتل ومحدش عارف يعملُّه حاجة.

***

كنت صامتًا طيلة الطريق إلى بيتي. المهمة المخيفة التي وكلني بها اللواء المشدّ قد صارت لتوّها أكثر هولًا. يجب عليَّ أن أنصت أكثر، أن أستشعر بكل حواسي بكامل بصيرتي، أن أحلق فوق المعركة الدامية المسماة بعالم البشر. فهو قد عاد من جديد، عاد ليناديني بأفعاله، عاد

ليتحداني أن أعثر عليه.

لكني لست مستعدًّا له بعد، فالمهدئات لا تزال تحول بيننا. يجب أن أصفي ذهني تمامًا، أن أنزع عنه درعه، أن أضعه في العراء، مكشوفًا، بلا حماية، حتى يخرج هو من مخبئه، حتى أسمع الأشياء وهي تناديني. سيأخذ الأمر وقتًا كي أتخلص من آثار المهدئ، لكنه الحل الوحيد. فأنا في سباق مع الزمن، وحليفي الوحيد هو شاب مصاب بمتلازمة داون... يرقد في غرفة الإنعاش.

وصلت إلى المنزل لأجد الأحذية في انتظاري، بالضبط في المكان الذي أنزلني فيه سائق التاكسي. تسمرت مكاني وأنا أحدق بهذا الزوج من الأحذية البنية الرابض فوق الرصيف. تلفّت حولي لأجد الناس بالشارع يمرون به غير عابئين.

هذه هي إذًا، العلامة، الجماد الذي بدأ لتوّه في مناجاتي، القصة الجديدة التي جاءت لتطرق بابي.

صعدت شقتي وتخلصت من عبوات الدواء كلها، مثلما كانت تفعل أَليِسْ، كلبتي ذهبية الشعر والذكرى، حتى لا أضعف في إحدى لحظات الوجع. ذهبت لغرفتها وألقيت عليها السلام عبر الباب وفعلت الشيء نفسه بغرفة سالم.

بعثت رسالة نصية إلى نهلة أنني سأضع هاتفي على وضع الصامت، وأن تواليني بأخبار عيسى وعايدة، عن طريق الرسائل. ألقيت بنفسي على فراشي، وذهبت في النوم فور ملامسة رأسي للوسادة. وكانت آخر أمنية قبل أن يتسرب وعيي مني هو أن يكون القادم هينًا،

فكل المؤشرات تقول إن ما ينتظرني بعد نفق التعافي من المهدئات سيكون مؤلمًا للغاية.

"طعم المياه بقى تحفة"...

أحسنت يا عيسى.

عـايـدة

بين جنبات المدن أسرارٌ... لكنَّا لِهَمْسِها لا ننصت

قصورها سجون لمن يَبْنِهَا ... أبوابها ألسنٌ لا تصمت.

هكذا قرأت في إحدى صفحات دفتر ناعوت السوداء، بعدها:

ما يُحزن حقًّا أننا أصبحنا نسمع لكن لا نعي.

نعلم ولا ندرك.

نشاهد ولا نبصر.

نهيم على وجوهنا من الصباح إلى المساء دون أن نحيا اليوم حقًّا، ثم حين تطوى صفحته ننظر إليها ونجزم أنه لم يمر بعد.

وفي الصفحة البيضاء المقابلة، كتب أبي، كأنه شعر أنني بحاجة لنصيحته فمد يده إليّ عبر الزمن ليكلمني من خلال دفتر ناعوت:

هناك عالم كامل يدور حولنا يا بِنَيَّتي، عالم لا نراه، عالم من الأحاسيس والمشاعر تتنقل فيما بينها عن طريق وسيط لا تدركه عقولنا.

العيون مثلًا، تظنين أنها وسيلة للرؤية فقط؟ أنت مخطئة، ففي حقيقة الأمر العيون هي أبرع لسان، أدق وأصدق ترجمان.

تخيلي معي لو نزعنا البشر من الوجود، وتركنا فقط أعينهم. ماذا سنرى؟

سنرى زوجًا من العيون يتبادلان السلام، يتصافحان.

سنرى زوجًا يتقاتلان، يطعنان بعضهما بلا رحمة، حتى يستسلم أحدهما ويخر راكعًا للآخر.

ربما سنرى زوجًا من العيون يتعانقان، يتلامسان، يتهامسان، في خجل يبتسمان.

وهناك زوج يلوذ أحدهما بالآخر، يحتمي به، ينكمش بين أحضان جفونه، بينما يحارب الآخر الدنيا كلها من أجله.

هناك عالم كامل بالفعل يا بنيتي، عالم الأحاسيس فيه لها إرادة ولغة وكيان.

عالم لا نراه.

شردت لدقائق طويلة، تائهة في كلمات أبي.

كيف؟ كيف نجح في وصف ما أشعر به تجاه حازم بهذه الدقة، تلك اللغة السامية التي تنتقل بيننا دون أن نتكلم؟ هل من الممكن بالفعل أن تكون المشاعر حية بصورة لا ندركها؟ هل هذا ما حرك المانيكان والميكروفون؟ هل هذا ما يجعل الجماد يئن؟

هل كان سليم لقمان على صواب؟

وجدت نفسي أقلب الصفحات لا إراديًا، حتى أصل لتلك التي نقش عليها المايسترو قصيدته. تأملت كلماته هو الآخر، كم هي قاتمة، قاتلة، قاسية، وبلا أقنعة.

سآخذ بيدك إلى الجنة ... وأذهب بنفسي إلى النار.

أي ألم مر به هذا العازف كي يكون بهذه الجرأة وهذا الكفر؟

هززت رأسي رافضةً رسالته، ليس هكذا تدور الدنيا، فهي بها نور كما بها ظلال.

مفعمة ببطاقة إيجابية مصدرها كلمات أبي، عكفت على ترتيب متعلقات عيسى في حقيبته تحسبًا لخروجه من الإنعاش في أية لحظة. أخرجت كراس رسوماته كي أحدد أيٌّ منها سيكون ملائمًا للاشتراك في المعرض.

تنقلت من وجوه المرضى وفرسان الإرادة الذين رسمهم أصحاء بلا ابتلاء، إلى المشاهد الحزينة المؤلمة التي تظهر فيها تلك الأجنحة كظلال هائلة سقطت على المشهد. ثم توقفت حين رأيت رسمة حازم منحنيًا على ماما تيسير. الظل كان واضحًا في هذه الرسمة أكثر من غيرها فقد كانت زاويته مختلفة عن باقي اللوحات، فمن هذه الزاوية كانت هيئة صاحب الأجنحة واضحة بلا أدنى شك.

تذكرت كلمة عيسى: "أنا بحس، مش برسم"، وتذكرت كلمات أبي، ثم نظرت للوحة مرة أخرى، بعين عيسى وبصيرة أبي... نظرت إليها بقلبي. وابتسمت حين وجدت الغمامة تنقشع لأرى اللوحة على حقيقتها. مثل الذي يدقق في السحب لفترة كافية حتى يرى الشكل الذي تتخذه. هناك من يحتضن حازم، كيان شبه آدمي يبكي في بُعد آخر. له جناحان هائلان ولا يراه أو يسمعه سوى الرسام أو الناظر للوحة.

تصفحت بقية اللوحات سريعًا لأتحقق من نظريتي، وما إن فعلت حتى... لمحت حركة ما. قمت بتصفح الكراس مرة أخرى بنفس الطريقة السريعة، كما كان عيسى يفعل بدفتر ناعوت، وهنا أدركت ما رأيته قبلها بثوانٍ، تلك الحركة السحرية: إن الظل نفسه هو ما يتحرك. ليس في اللوحة الواحدة، بل كان وضعه يتغير كلما تتوالى الصفحات لتوحي أن الشبح الذي كان يحتضن الناس قد توقف عن الصراخ الصامت في ألم، وأخفض رأسه لينظر... إليَّ.

ما الذي كنت تحاول قوله يا عيسى؟ ما الذي كنت تصرخ به ولم يسمعك أحد؟

نهضت تاركةً حقيبة عيسى وأشياءنا على الأريكة، وذهبت بدفتر ناعوت وكرّاس عيسى إلى الوحيدة التي يمكنني أن أتكلم معها.

لأجدها تبكي...

***

أغلقت باب مكتب نهلة وجلست أمامها، لكنها لم ترفع عينيها عن هاتفها الموضوع أمامها على المكتب وظلت محدقة في شاشته. وجهها أحمر محتقن ومنتفخ من أثر البكاء.

- إيه القسوة دي؟ إيه القسوة دي؟

أخذت تكرر بصوت متهدج فمددت يدي لأمسك كفها. رفعت عينيها، الدموع تقف على جفونها كموجة هائلة يحبسها سد. حاولَت أن تقول شيئًا لكن الوجع كان أقوى منها فانفجرت بالبكاء. وضعت

دفتر ناعوت وكراس رسومات عيسى على الطاولة الصغيرة، ونهضت مسرعة إليها، فألقت رأسها في أحضاني تنتحب وتنشج وتهتز، كما لو كانت طفلة تائهة منذ سنوات.

- فيه إيه يا حبيبتي؟ نهلة، فيه إيه؟

تركتها تُخرج شحنة المشاعر المحبوسة، وضممت رأسها إلى صدري وأنا أحدق في المقطع الذي يعرضه هاتفها. تسمرت يدي وتحولت إلى جسد بلا حياة وأنا أرى طفلة سمراء – أذكرها جيدًا – نائمة في فراشها، وأقرأ الكلام المترجم أسفل الشاشة. ثم شهقت حين رأيت اليد التي امتدت لتضع الوسادة على وجهها فانتزعت نهلة نفسها من عناقي ومدت يدها لتغلق هاتفها.

- لأ.. متشوفيش الفيديو ده. هيئذيكي يا عايدة، الفيديو ده مؤذي جدًّا.

تراجعت خطوة لأحدق بها عاجزة عن الكلام، وكانت هي أعجز مني. تبادلنا نظرة طويلة بها ألف سؤال، وليس لإحدانا إجابة واحدة. كلتانا بها ألف جرح فتحها هذا المقطع كلها دفعة واحدة.

انتقلت من هذا المقطع لمقاطع أخرى متصلة به، حالات انتحار يرفع مرتكبوها رمز الموسيقى ملتحمًا بقلب أحمر.

- الشيطان ظهر تاني يا عايدة، المجنون اللي بيموّت في الناس رجع يا عايدة.

كانت محققة في سؤالها: ما هذه القسوة؟ ما الذي حدث في الدنيا

كي يخرج لنا مارد شيطاني مثل هذا؟ ما الذي يحدث حتى يحصل على ملايين المعجبين والمؤيدين؟

كيف بلغ بنا اليأس لهذه الدرجة؟

- لا يا نهلة.. لأ. الدنيا مش قاسية كدا.. صدقيني. إنتِ أقوى من كدا. إنت أقوى واحدة فينا. مش فيديو زي ده اللي يكسرك.

في اللحظة نفسها دخلت إحدى الممرضات وعلى وجهها أعتى آيات القلق.

- دكتورة نهلة، حالة 107، فيها مشكلة.

- حالة 107؟ ده عيسى!

هتفت بها وهُرعت خارج الغرفة كالصاروخ.

حازم

لقد كنت واهمًا.

من هم مثلي لا يحصلون على السلام، يحترقون شوقاً إليه في صمت، لكنه سيظل هكذا... حلم. وهذه الدنيا لها عادة قبيحة، فهي يمكنها أن تعطيك أي شيء، كل شيء... إلا أكثر ما تتمناه.

السلام ليس لمن عاشوا كما عشت، وفعلوا ما فعلت، وشهدوا المعارك التي حاربت، على الأقل ليس في هذه الحياة.

نعم هربت...

هربت من الغاياتي قبل أن أنتزع قلبه بيديَّ العاريتين، من عوني قبل أن ألتهم قلبه الفاسد، من مريدي المايسترو المُغيَّبين قبل أن أهشِّم أدمغتهم الغبية، من رجال الداخلية الذين لن يروا سوى أدلة إدانتي، هربت من عدوِّي ابن كاري.. وهربت من عاري.

لكن عوني كان محقًّا، من كنت أخدع؟ أكنت أتصور أن تنسى الدنيا ما فعلت؟ أكنت أتوهم أن ما رأيته في مهمتي مع وحدة مكافحة الإرهاب، كان عذرًا كافيًا لأدفن رأسي في التراب، وأهين بدلتي ومبادئي دون عقاب؟ بدون أن أدفع الثمن؟ أنال الغفران وأتزوج الأميرة، وأحصل على السلام الذي أتوق إليه بكل وجداني؟ هل كنت ساذجًا لدرجة أني تخيلت نهاية سعيدة لتلك الحياة التي عشتها؟

الآن أدفع ثمن سذاجتي...

مدفوعًا بوقود لا ينضب من الغضب، ركضت بأسرع ما يمكنني،

غضب توهمت أنه اندفن أسفل أقدام عايدة لكنه كان راقدًا تحت الرماد. خرجت من بين كرمات العنب وأشجار التفاح لأجد نفسي وسط شواهد قبور في تلك البقعة المستترة من ضيعة الألوسي، حيث يرقد أعداؤه وأتباعه على حد سواء. رميت جسدي بكل قوتي على البوابة المعدنية الرابضة في نهاية المقابر، لتئِنّ معترضة، قبل أن تنهار بدوي هائل رجّ المنطقة المهجورة بأكملها. استسلمت البوابة كما تفعل الأشياء مؤخرًا أمام غضبي، كأن كل من ليس له قلب ينبض قد صار يرتعد أمام نيران ثورتي.

قطعت المسافة الخالية بين القصر وأقرب هيكل خرساني في ثوانٍ، وقفزت محتميًا في البدروم المظلم، دون مراعاة ما قد يكون بانتظاري بالأسفل من أسياخ معدنية وركام حاد. وما كدت أفعل، ففي نفس اللحظة سمعت سرينة سيارات الشرطة وهي تدور حول السور، لتحيط بجميع مداخل القصر، وأضاءت أنوارها الزرقاء والحمراء غابة الهياكل المعدنية المهجورة حولي.

أخفضت رأسي كي لا يروني ثم شعرت بألم في ساقي. تحسستها في الظلام لأجد قضيبًا معدنيًا مغروسًا فيها، فوق الركبة بالضبط فرفعت ساقي لأحررها منه دون عناء. لم يكن لديّ الوقت ولا الطاقة كي أتعجب من توقف القضيب الحاد عند هذا العمق دون أن ينغرس أكثر في لحمي. لم أتوقف أيضًا عند نقطة انحناء سن القضيب كأنه قد دُقّ في أرض صلبة، ولا ارتفاع سقطتي التي كانت لا بد أن تجعله يخترق ساقي ويخرج من الجهة الأخرى. لا بد أنه الأدرينالين.

نهضت غير مُبالٍ بجرحي، صاعدًا السلم الخرساني عديم السور،

حتى الطابق الثاني من الهيكل غير المكتمل. وهناك اقتربت من الحافة، فقط بما يكفي لأنظر من فوق أشجار القصر إلى مسرح الجريمة.

أحاط رجال الشرطة بالغاياتي الذي كان خانعًا مطأطئ الرأس، بينما كان عوني يشير لجثة الألوسي، ثم للاتجاه الذي هربت منه. لا بد أنه من قام بالإبلاغ.

لم أرَ أثرًا لرجال المايسترو، بل وجدت آخرين في معاطف طبية بيضاء يقومون بإنزال ترولّي المرضى من سيارة الإسعاف، واستنتجت أنهم نفس الأشخاص، خصوصًا أنهم بنفس العدد وهيئة الأجساد. أدركت خطتهم فنزلت مسرعًا وتسللت من المبنى، عابرًا بين الهياكل الخرسانية التي تحيط بالقصر لتعطيه ستارًا طبيعيًا، حتى خرجت إلى الطريق الرئيسي. لمحت سيارة نصف نقل رابضة بجوار دكان مغلق مبني بالطوب الأبيض. كسرت النافذة وفتحت الباب لأجلس أمام المقود.

متجاهلًا دمائي التي تسيل، وجسدي المنهك الذي بدأت أشعر بأنينه، قمت بتوصيل أسلاك التابلوه لأشعل المحرك. انتظرت بعدها أقل من دقيقة لأجد سيارة الإسعاف التي تنقل جسد الألوسي، تخرج من المدق الذي يقود لقصره، وتعتلي الطريق السريع. خلفها لمحت سيارة شرطة تتبعهم لحراسة جثة أكبر اسم في عالم الإجرام السفلي، لكني كنت متأكدًا أن رجال المايسترو سيتخلصون منهم بمنتهى السهولة. سيلقون بعدها بجسد الألوسي في مكان مهجور كي لا ينفي تقرير الطب الشرعي الاتهام عني بعد فحصه، ثم يذوبون في

شوارع المحروسة. ولو فعلوا، سأفقد الخيط الوحيد الذي يمكنه أن يقودني لمن أصبح أكثر من أبغض في هذه الدنيا... عازف الأقدار.

وأنا لن أسمح بهذا.

***

لم يكن ليخطر ببالي، ولو في أقوى كوابيسي، أن أصير طريدًا للعدالة. لم أكن أتخيل أن تتبدل الأدوار وأصير أنا الفريسة التي يطاردها رجال العالم السفلي والقانون في آنٍ واحد. تذكرت موقف سليم لقمان قبلها بثلاث سنوات، حين كنت أنا من يطارده. أعلم الآن أنه بريء، أعترف بهذا، لكنه الكِبر. كنت أكره تفوقه عليّ، هدوءه، بروده، ثباته، بينما كنت أنا عاصفة كارثية من التخبط والعناد.

الساعات الأولى كانت أصعبها. كدت أن أُجنّ قلقًا على من هم في كنفي ورعايتي، متخيلًا وقع الخبر عليهم: "ضابط بالداخلية يقتل رجل أعمال لتورطه معه في صفقات مشبوهة". لكن عايدة وأمي كلتاهما لديها ما يشغلها عن متابعة هذه الأخبار، فالمرض يحوم حولهما كغراب شؤم. وبما أنني لم أكن أستطيع أن أُغامر بفقدان أثر رجال المايسترو، فقد تجاهلت كل شيء عدا هذا الخيط، والتقطت طرفه حتى انتهى بي أمام مصنع مهجور في منطقة صناعية نائية، مبنى من ثلاثة طوابق هائلة اختفى فيه أتباع المايسترو.

أوقفت السيارة خلف هيكل أتوبيس مُهمَل وصدئ يربض على مسافة آمنة، وانتظرت. مرت الدقائق بطيئة، لم أرَ فيها شيئًا سوى خيالات تتحرك في ضوء مصابيح قليلة وخافتة. تارة أراهم عبر

نافذة عريضة في الطابق الثاني وتارة ألمح تحركاتهم غير المفهومة في الطابق الأرضي. لا أسمع لهم صوتًا، ولا يسمح لي الزجاج الأغبش المتسخ أن أرى ما يكفي لأستنتج ما يفعلون في هذا المبنى العريض المهجور.

وبعد مرور ما يقرب من الساعتين، لمحت أشكالًا تخرج من الأبواب العديدة للمصنع، مثل الصراصير حين ينغمر وكرها بالماء. انكمشت في مقعدي وأخفضت ظهره كي لا يروني، لكن دون أن أتركهم يغيبون عن نظري. العشرات من مرتدي المعاطف السوداء يضعون أيديهم في جيوبهم، وينطلقون في الشوارع المحيطة بالمصنع في كل الاتجاهات. مردة شياطين ينطلقون لتنفيذ أوامر إبليس.

كان لا بد من التصرف السريع. انتظرت حتى خرجت آخر دفعة منهم، واخترت أحدهم عشوائيًا، وأشعلت محرك السيارة النقل لأتبعه من بعيد. سرت وراءه حتى بلغ محطة نقل عام واستقل ميكروباص إلى سوق الخضار في العبور. أوقفت السيارة وترجلت لأدخل وراءه. كان تتبعه دون أن يلاحظني أمرًا يسيرًا بسبب معطفه. ثم توقف.. ثلاثيني طويل القامة يخفي ملامحه بقلنسوة، يجول ببصره في السوق كأنه يبحث عن شيء ما.

تحفزت عضلاتي مرةً أخرى وضممت قبضتي بقوة جعلتني أشعر بطنين واهتزاز في ساقي، كأن الأرض نفسها ترتعد. فقد طاف بخاطري هاجس مخيف، فكرة نسجها عقلي معتمدًا على مهنتي وخبرتي العملية. ماذا لو كان المايسترو مجرد زعيم إرهابي يجند انتحاريين، وهذا أحدهم أتى ليفجر نفسه وسط المئات؟

نظرت حولي. تأمين مكان مثل هذا شيء مستحيل، ولا يوجد وقت لفعل أي شيء سوى...

أخذت قراري وتقدمت إليه، أتابع كل لفتة من لفتاته، ينتقل نظري من يديه المختفيتين في جيبيه إلى تعبيرات وجهه الذي كان بالكاد يُرى أسفل قلنسوته. شفتاه مزمومتان، يحدق في الأرض، ساكنًا، بالضبط كتصرفات الانتحاري قبل تفجير نفسه... حياته كلها تمر أمام عينيه.

اقتربت منه، ليفسح الناس للقطار البشري الذي يسير بينهم كي لا يدهسهم. استعدت عضلاتي للنزال، فلن يكون أمامي سوى أقل من الثانية كي أسيطر عليه. انحرفت كي آتيه من الخلف، سأُدخل يديّ من أسفل إبطيه وأثبت كفيّ خلف رقبته لأرفع ذراعيه عاليًا. فقط أتمنى أن يكون المفجر في جيبه كما أظن. أما لو لمحته ملتصقًا بيده، فلن يكون أمامي حل سوى أن أدق عنقه في تلك اللحظة الخاطفة. وهو شيء شبه مستحيل.

هل ما زلت مؤهلًا بدنيًا لمثل هذه المواجهات؟ الغضب الذي يحركني كان يكفي جيشًا بأكمله، لكن الغضب أحيانًا يكون عدوًّا، وليس حليفًا.

ثم تحرك. أخرج يديه من جيبيه، وفرد مرفقيه كأنه يتأهب للطيران. اصطدم الناس به، لكنه لم يغير من وضعه. أبطأت سرعتي وقمت بتحليل حركاته بأسرع مما يمكن لعقلي أن يعمل، ثم انحرفت يسارًا مرة أخرى كي أتفادى عينيه، بعد أن دار حول نفسه دورة

كاملة فاردًا ذراعيه، ثم أخرى. ظل يدور حول نفسه كراقص التنورة وسط استغراب الناس ثم أنزل ذراعيه ووضع يديه في جيبيه مرة أخرى. راقبته يبتعد، فمشيت وراءه لأجده يخرج من السوق. ظللت وراءه مثل ظله حتى عاد إلى المصنع المهجور.

حين تتبعت آخرين مثله في الأيام القليلة التالية، كانوا يفعلون مثله بالضبط، يذهبون لأماكن عامة مزدحمة. يقفون فيها لدقائق، شاردين، يفردون أيديهم بجوارهم كأنهم يستقبلون أمطارًا وهمية، قبل أن يعودوا إلى المصنع مرة أخرى.

ولم أفهم شيئًا.

اسم بعينه سطع في ذهني... هو الوحيد الذي يمكنه أن يفهم هذه الأحجيات.

مستر جراي.

***

كان لا بد أن أتأقلم على الوضع الجديد، كوني طريدة وصيَّادًا. تعودت على العيش في العمارات المهجورة، متنقلًا بينها كل بضعة أيام، بعد أن قمت بسحب ما أقدر عليه من نقود باستخدام كارت الائتمان ثم تخلصت منه. ليالٍ طويلة قضيتها في شبه عراء، منقطعًا عن العالم، لا يحميني من العيون والبرد سوى جدران خرسانية متهالكة.

جدران ذكَّرتني بوصف عايدة لها.

شردت في النار التي أشعلتها في ركن مستتر في المبنى الخرساني البارد المهجور، وتذكرت تشبيه عايدة للعمارات الجديدة بشابة يافعة، كلها حماس وزهو. تقول ها أنا ذي، هَلمُّوا انظروا إليّ، طُوبَى لمن حمته جدراني ورفعته أعمدتي. وحين تكبر في السن، يتجعد جلدها وتذوب مساحيق التجميل التي تزين وجهها. تتهالك النوافذ، كأنها أعينٌ تحاول التغلب على ضعفها. وأبوابها تواجه نفس المصير، تصير كأقدام العجائز، لا تقوى على حمل ما تحمي من أسرار ولا درء أي محاولة حقيقية للاقتحام.

ثم أخبرتني أنها تشعر أن العمارات القديمة تكتسب حكمة، تسمو فوق ما هو مرئي وملموس، تدرك أن أثمن ما تحمل هو أحاسيس من عاش بها. تلك الآهات والضحكات، الهمسات والصيحات، أحلام ربما لا يتذكرها النائمون لكنها تتكدس بداخلها، تتراكم حتى تنوء بها عمدانها. ثم تتوالى السنون وتصير هياكل جاهزة للرحيل عن عالمنا.

"أما أكثر ما يحزنني يا حازم، هي تلك الهياكل التي لا تكتمل، كأنها فكرة ماتت قبل أن تولد، حياة كان يمكن أن تكون".

تذكرت كلماتها تلك بعد لحظة شرود طويلة قفزت فيها عيناها من عمارة لأخرى ونحن نسير بجوارها. تذكرتها لأنه كان شعوري بالضبط، كأنني بين ضلوع كائن أسطوري نافق، مختبئ داخل عظام "حياة كان يمكن أن تكون".

نفضت تلك الأفكار من رأسي، وعدت لأنتبه إلى راكية النار، والإبريق الراقد فوقها، لأتوه في سحر الشعلة. لم أعد أكره هذا

الشعور، لم أعد أخشى الحنين للسلام اللحظي الذي أشعر به وعايدة تحلق حولي، لم أعد أخشى من تسللت تحت جلدي وسبحت في عروقي. لكن خوفي وقلقي عليها وعلى أمي كان قادرًا أن يُضعفني.. فكان من الطبيعي أن أذهب إليهما. كان لا بد أن أفعل، مهما أضاف ذلك إلى حملي جبالًا، مهما زاد من وجعي. كان لا بد أن أراهم قبل أن أجنّ.

راقبتهما من بعيد، متفاديًا أعين رجال الشرطة المنتشرين حول بيتي وفي المستشفى، ينتظرون أن يلمحوا طرف العملاق الهارب لينقضوا عليه كالذئاب.

عبرت بسيارة أجرة أمام الفيلا، أخبرت السائق أن يهدئ من سرعته فقط بما يكفي كي أنظر من خلال قضبان البوابة. اختطفت نظرة لأمي وهي في الحديقة، تحاول الممرضة السمراء أن تجعلها تمسك المعول المفضل لديها، لكنها لم تعد قادرة على حمله، كأن عدم وجودي حولها قد أضاف لعمرها عشرات الأعوام.

أمرت سائق التاكسي أن يسرع كي لا يلاحظني الشرطيان الرابضان في سيارتهما أمام الفيلا. أمرته أن يسرع قبل أن أنهار وأضرب بكل شيء عُرْض الحائط وأذهب إلى أمي.. طالبًا الغفران.. طالبًا الأمان.

مرارًا كنت أقف متنكرًا ومستترًا خلف جدار بالمستشفى، ينفطر قلبي لرؤية عايدة وهي تجلس شاردة، محتقنة العينين منتفخة الوجه، في انتظار أي خبر بتحسن حالة شقيقها. رأيتها تنظر للوحات

عيسى الزيتية الملقاة بجوارها. تذهب إليها وتتحسسها. ثم أدركت أنها تتحسس لوحة بعينها، رسمة لي معها، عندما كنت جالس القرفصاء بجوار فراش أمي. رأيت أناملها تتحرك فوقي، رأيتها تغمض عينيها.

فأغمضت عينيَّ معها.

شعرت بألم في كَفِّ يدي، حرارة شديدة، ففتحت عيني لأجد عليها سوادًا. نظرت للحائط لأجد مكان كَفّ يدي محترقًا عليه.

وكان هذا أكثر مما أحتمل...

فاستدرت...

وابتعدت.

***

أيام طويلة ولم يظهر له طرف... السبب في كل الشرور، وكان لا بد أن أقترب أنا.

في المساء، بعد أن نامت القاهرة وسكنت الحياة، أخمدت الشعلة والتقطت عتادي وعنادي لأنزل الدرج الخرساني المظلم. ذهبت لأقف في بقعتي المفضلة أراقب المصنع. لقد صار لهم ليلتان كاملتان لم يخرج منهم أحد، ولولا أنني كنت ألمح تحركاتهم الخفية بالداخل لظننت أنهم رحلوا بطريقة ما. ثم لاحظت أنه لم يعد هناك حراسة حوله. كان لا بد من التصرف السريع، فما يحدث ليس طبيعيًا على الإطلاق.

مستترًا بالعتمة التي تحيط بالمنطقة، درت حول المبنى لأختلس النظر لما يحدث بداخله. ثلاثة طوابق مترامية الأطراف غارقة في ظلام والسكون، لا تساعد نوافذها المتسخة على رؤية ما يحدث بداخلها. تسللت من خلال إحداها بالطابق الأرضي واختبأت وراء وحش معدني صدئ، لأجيل ببصري في المساحة الواسعة وأرى العشرات غيره من الماكينات المهملة التي جعلت المكان يبدو كمقبرة معدنية. لمحت ضوءًا يأتي من باب في طرف الصالة الشمالي فذهبت إليه بكل حذر، منور سلم. هناك أصوات خافتة لا أستطيع تحديدها تأتي من أسفل. صرخ الأدرينالين في عروقي ونفرت عضلاتي وتحفزت، فقد كنت على بُعد خطوات من معرفة مخطط عازف الأقدار.

بأقل ضوضاء ممكنة نزلت السلم ناظرًا حولي في كل الاتجاهات، متوقعًا، هجومًا في أي لحظة، حتى وصلت البدروم. وكان ما رأيته عجيبًا. نظرة خاطفة كانت كافية لأتسمر بعدها محتميًا بالجدار الذي به باب السلم. قطّبت حاجبيّ مفكرًا، ما الذي رأيته لتوّي؟

أخرجت رأسي لألقي نظرة أخرى. بدروم ذو مساحة هائلة بطول المبنى مضاء بمصباحين كئيبين يتدليان من السقف المرتفع، كل واحد منهما مسئول عن إنارة نصفه، وبالكاد كان يفعل. أسفل المصباحين رقد أتباع المايسترو. راقدون، نائمون، ميتون، لم أدرِ، لكنهم كانوا بالعشرات. جيش صغير ساكن صامت. حركات خافتة تصدر هنا وهناك، وأصوات أكثر خفوتًا. سعال خفيف، آهة خاطفة، همسة هنا ومناجاة هناك.

وفجأة أضاء أحدهم السلم الذي كنت أربض بقاعه.

وكانت النتيجة حتمية... العشرات من العيون التصقت بي.

تخليت عن الحذر وانطلقت صاعدًا، بينما يركض ورائي العشرات من المتعصبين المجانين، يزومون ويزمجرون كالبرابرة. وليزداد الطين بِلَّة، سمعت آخرين يهبطون من الطوابق العليا لأصبح محاصرًا في السلم. تمنيت أن يكون أمامي فرصة ولو ضئيلة كي أصل للطابق الأرضي، قبل أن يطبقوا عليّ من كلا الاتجاهين، لكن من كانوا ينزلون من أعلى كانوا أسرع مني. لم يكن أمامي سوى أن أنزل سلاحي الآلي وأُحَيِّد من أقابله برصاصة دقيقة في ساقه أو كتفه. لكن ذلك لم يردعهم، بل زادهم جنونًا. بدءوا يقفزون عليّ من أعلى كالصقور، فقابلتهم بلكمات وركلات وضربات مدروسة. هشمت ضلوعًا وشججت رؤوسًا، كسرت أذرعًا وأنوفًا وسيقانًا، غرست قبضتي الحديدية في بطون ولويت رقابًا، كل من كنت ألمسه كان يخرج من السجال بلا عودة. لكن كل هذا لم يمنع النهاية الحتمية.

رقدت أسفل الجبل البشري غير قادر على الحركة. طبقات من الأجساد يصرخ أصحابها في وحشية وهم يحاولون شلّ أطرافي. تلقيت ضربات من العصي والقضبان كانت يمكنها أن تجعل ثورًا يفقد الوعي، لكن زئيري الغاضب ظل يرَجّ الجدران. استمر العراك لثوانٍ طويلة قضيتها في ظلام خانق حتى رأيت بصيص نور من بين الأجساد. ظننت أنه ملاذي، لكنه كان فتحة صنعوها خصيصًا كي يشق قضيب معدني غليظ طريقه بينهم ليرتطم بجبهتي.

لا أعلم ما الشيء المختلف في هذا القضيب عما سبقه، فقد كان مؤلمًا بطريقة لا توصف، كأنه قاطرة ارتطمت بجبهتي.

غمامة سوداء حجبت رؤيتي وشعرت بوعيي يتخلى عني. وكان آخر ما رأيته هو وجه من كان يحمل القضيب الأخير، عجوز أشيب لا أرى تفاصيله لاهتزاز الرؤية من شدة الضربة.

وكلمة نطق بها أفراد الجيش الصغير في إجلال أقرب إلى القدسية...

"عازف الأقدار".

عايـدة

عجيبة هي هذه الدنيا.. ففي اللحظة التي تشعرين فيها أنكِ امتلكتها، وأنها اكتفت من تعذيبك وقررت تعويضك عن كل ما رأيتِهِ، في اللحظة التي تتصورين فيها أن الوقت قد حان كي تمسحي فيها دموعك، وتبتسمين أخيرًا، في تلك اللحظة بالذات، تصبح طعنتها نجلاء، أكثر قسوة من كل ما فات.

لقد أصبحنا عاجزين عن البكاء، فمن ضيع فرصة يبكي، ومن فقد شخصًا يبكي، ومن صُدم في صديق يبكي. أما من اعتاد الألم، فيقف أمام مصابه متيبسًا، منفصلًا عن واقعه، مثلما أقف الآن في قسم الرعاية المركزة، أكاد لا أسمع ولا أرى سوى همهمة مكتومة تخرج من نهلة الواقفة بجواري. لقد فعلنا كل ما بوسعنا، هكذا أخبرتني وهي تقاوم دموعها.

- مش هنقدر نعملُّه عملية تانية، كدا بنعذبه.

شريط ذكرياتي معه يمر أمامي. ابتسامته.. كلماته.. رسوماته.. مزاحنا معًا.. رقدتي بجانبه وهو صغير حتى ينام.. نظرته الممتنة لي حين أخبرته كم هو جميل.

- عايدة، لازم ناخد قرار.

هكذا قالت نهلة وهي على وشك البكاء. التفتُّ إليها لأحدق بوجهها المحتقن من أثر البكاء بنظرة خاوية:

- مش فاهمة.

سالت دموعها، وخرج صوتها مختنقًا بألف عَبْرة:

- مش هينفع نفضل معذبينه كده يا عايدة. وظايف جسمه بتنهار، وإحنا عاملين زي اللي ماسكه من فوق عمارة من ذراعه وهو بيتقطع في إيدينا حتة حتة. عيسى مش قادر يتكلم يا عايدة، بس لو كان بيتكلم كان قال...

لم تكمل جملتها، فابتسمت أصعب ابتسامة في حياتي، وقلت متهكمة:

- كان قال سيبوني أموت.. مش كدا؟

أطرقت ولم تستطع أن تجيب من طوفان الدموع. نزعت ذراعي من يدها، وتقدمت كالمشدوهة إلى باب الرعاية المركزة، أنظر من زجاج النافذة الصغيرة إلى أقرب شيء في الدنيا لي، أحَبّ شخص، معنى حياتي كلها. والمطلوب مني أن آخذ قرارًا نيابة عنه... قرار بإطلاق سراحه.

ثم رأيت... الظل.

يشبه ذلك الذي رسمه عيسى في كل لوحاته، لكنه الآن يقف بجواره هو. دققت النظر. إنه شخص ما، ينحني ليهمس في أذن عيسى، ظِلّ أو صورة هولوجرامية يبثها جهاز سينمائي عتيق.

- افتحي الباب يا نهلة.. افتحي البااااب!

هكذا صرخت بأعلى صوتي.

- عايدة؟ يا حبيبتي، دي في صدمة.

ظللت أصرخ وهم يمسكون بي، بينما احتضنتني نهلة وهي تبكي معي. تبكيني وتبكي نفسها، فمن يمر بلحظة كهذه، مهما كان، ستسقط من نظره كل الأقنعة.

لم يتركوني حتى ضخوا في عروقي مهدئًا سرق مني اللحظة...

لكني لن أنسى هذا الذي خرج من غرفة عيسى... والذي كان يرتدي ملابس مزركشة متناقضة الألوان من كل ذوق وموضة.

لن أنسى لأنه التفت إليّ... وابتسم.

قبل أن أغيب عن الوعي.

حازم

- البطل الخارق صحي أخيرًا.

سمعتها وأنا أحاول رفع جفوني الثقيلة، وقد ميزت صوت الغاياتي. أشكال عديدة أحاطت بي، فاستندت على كفي لأجلس معتدلًا، متوقعًا أن تكون يداي موثقتين، لكنهما كانتا حُرَّتين. بعد محاولات مضنية للتغلب على الدُّوار العنيف وآلام رأسي وجسدي، أسندت ظهري على العمود الخرساني لأحدق فيمن كان يقف أمامي. اقترب مني الغاياتي، وألقى بماء بارد على وجهي، ثم عاد ليقف بجوار رجل يجلس على كرسي خشبي.

- أنا صاحي.. بلاش غباء!

هكذا صحت به لترن في رأسي حتى كادت تشجه نصفين. ثم لمحت سلاحي الآلي المزود بكاتم للصوت على كتفه، بينما تراصّ حولنا العشرات من مرتدي المعاطف السوداء في نصف دائرة، في سكون تام. لم أرَ ملامح الجالس بسبب نور مصباح البدروم الذي يأتي من خلفه، ولم أكن أحتاج أن أفعل، فقد كنت أعرف من هو.

- بطلٌ خارق؟ أتظن حقًا أنك كذلك؟

تساءل المايسترو بصوته الهادئ العميق، وإنجليزيته السليمة، كأنه يخطب في أتباعه من ذوي الجنسيات المختلفة.

- ألهذا السبب جئت وحدك واقتحمت مبنى به العشرات من أعدائك، رغم أنك لا تعرف محتواه ولا ما ينتظرك من مفاجآت؟

صمت للحظة شعرت فيها بعينيه تفحصان كل شبر في ملامحي، ثم بدل وضع ساقيه وجال ببصره في رجاله، متجاهلًا الغاياتي، الوحيد الذي لم يكن يرتدي معطفًا أسود مثلهم، والذي كان ينظر إلى المايسترو ببلاهة دون فهم، قبل أن يضيف الأخير:

- إنه يظن بالفعل أنه بطل خارق. يظن أنه قد نجح في تحطيم باب مستر جراي المصفح بقدمه، يظن أن ساقه أقوى من القضيب المعدني الحاد الذي وقع فوقه. يظن أن جسده قد صار منيعًا ضد الركلات والضربات، ضد العصي والهراوات، يظن أن باستطاعته القفز من فوق المباني وأن يرفع أجساد العشرات.

ثم التفت إليّ ليلمع شعره الفضي بضوء المصباح، انحنى ليلتقط زجاجة مياه معدنية، واجترع نصفها ببطء شديد. مصمص شفتيه بعدها مستمتعًا قبل أن يضعها قائلًا:

- كيف نجحت أنا في التغلب عليك بضربة واحدة إذًا؟ لا بد أنني خارق أنا الآخر.

حاولت أن أتكلم، لكن الصداع كان أقوى، كما أن المايسترو لم يمنحني الفرصة، وأردف:

- أنت مخطئ يا عزيزي، فأنا وأنت لسنا أبطالًا خارقين، كل ما في الأمر هو أن الأشياء نفسها قد صار لها قلب، من شدة آلامنا بدأت تشعر بها، ومن هول ما رأته منا صارت تخشانا، فتطيعنا أحيانًا، وتدعي الصمم أحيانًا أخرى. الفارق الوحيد بيني، وبين من ضربك من رجالي، هو أن العصا التي ضربتك بها صارت امتدادًا لي، تشعر

بما يموج في صدري من وجع، من قسوة ضرورية لعلاج الجرح وبتر الطرف المصاب.

سكت للحظة ارتشف فيها من الزجاجة، ثم أضاف:

- وهذا ما حدث معك يا صديقي، حين ركلت باب سليم لقمان المصفح، فإن الباب نفسه هو الذي استسلم لطوفان مشاعرك، الباب نفسه هو الذي ارتعد أمام غضبك وانهارت مفصلاته. قِس على ذلك كل ما يحدث لي ولك، بل كل ما يحدث في أنحاء العالم، فكلما اختزنت أحاسيس القهر، صنعت المعجزات. نحن لسنا أبطالًا خارقين، بل إن مشاعرنا هي التي صارت خارقة. وكل ما علينا فعله لاستخدام هذه القوة هو الإنصات إليها.

رغم أن عقلي كان يعمل بكل طاقته ليدرس خطوات هروبي، وإحصاء عدد المحيطين بي، والتخطيط لمعركتي معهم، فإن جزءًا مني كان منصتًا لما يقوله. لو كنا في ظروف عادية، لقلت إنه مجرد مجنون يهذي، لكنها ليست كذلك، فحتى هذه اللحظة، لا أدري كيف انهار الباب المصفح إثر ركلتي، هل كانت رغبتي لإنقاذ عايدة وأخيها هي السبب؟

نظرت إلى سلاحي الآلي الذي يحمله الغاياتي، وهو يكشر عن أنيابه في تناقض مضحك مع ملامحه الطفولية، وقلت بالعامية المصرية:

- مستني إيه؟

- الأوامر.

أجاب الغاياتي مكشرًا عن أسنانه المتهالكة. ابتسم المايسترو كأنه قرأ أفكاري، ثم قال وهو يشير لرجاله كي يساعدوني على الوقوف:

- هتمشي، متقلقش. هتطلع من هنا على رجليك. وأزيد لك في القصيدة بيت وأقول لك إنك هتطلع من هنا بتجري أسرع من اللي جيت بيه.

بصعوبة أخمدت النيران التي كانت تستعر تحت جلدي كجمر رابض تحت الرماد، ونفضت أيديهم من فوقي. اعتمدت على نفسي كي أقف فاردًا قامتي لأرتفع فوق أطولهم وبادرته:

- بتموتوا في الألغاز.

- مين؟

- إنت وسليم لقمان. استعراض سخيف لقدراتكم الذهنية. انجز وقولِّي عايز إيه؟

ابتسم وقال:

- هقولك. هقولك إني زرتها، وسألتها: مش عايزة ترتاحي؟

لحظتها فهمت مقصده...

لحظتها عرفت السبب الوحيد الذي يمكنه أن يجعلني أترك عازف الأقدار، وأستدير لأركض كما قال بالضبط... بأقصى سرعتي.

لمحته يشير لأتباعه أن يتركوني وهو يصيح ليرجّ القاعة:

- سألتها... سامحتي ابنك؟

***

ركضت صاعدًا السلم للطابق الأرضي، وقطعت المسافة التي تفصله عن النافذة في لمح البصر. قفزت منها وتدحرجت لأقف مكملًا ركضي. لا أدري كيف وصلت إلى السيارة بهذه السرعة، ولا متى أصبحت على الطريق السريع. قدت كالمجنون في الطريق الدائري، وأنا أتخيل أمي وهي راقدة على فراشها بلا حيلة، وهو يقف بجانبها، ينظر لجسدها الواهن ويفكر كيف يريحها من عذابها. لا بد أن الرادارات كانت تصرخ وأنا أعبر بجوارها بأسرع ما يمكن للسيارة النقل أن تسير.

وصلت للفيلا وتوقفت في مدخل الشارع... ضغطت المكابح بقوة كادت معها قدمي أن تخترق حديد السيارة. وحين رأيت سيارة الإسعاف تفتح بابها الخلفي لتستقبل هذا الجسد الضئيل المستور بغطاءٍ أبيض خارت قواي كلها دفعة واحدة. لمحت الممرضة السمراء تبكي وهي تصعد معها إلى كابينة سيارة الإسعاف الخلفية وتأكدت...

لقد رحلتِ يا أمي قبل أن تغفري لي.

***

لا تَستهِن برجل حارب بكل ما أوتي كي يحصل على السلام، لا تجبره على ترك مسعاه هذا. وأنا لم أكن أتفادى العنف والمواجهات الدامية خوفًا منهم.. بل من نفسي.

الآن، بعد أن ماتت "من كنا نكرمك من أجلها"، من كنت أخجل من نفسي بسببها، لم أعد أستطيع المقاومة أكثر من ذلك.

سامحيني يا عايدة، فسوف أُخلف عهدي معك.

ولينتظر السلام حتى إشعار آخر... بل حتى حياة أخرى.

لا أدري كيف وجدت نفسي أقتحم المصنع المهجور بالسيارة النقل، ويدي تضغط النفير حتى كادت أن تسحقه. اخترقت البوابة المعدنية إلى الفناء، ثم اقتحمت بوابة المبنى المتهالكة، حتى صرت في الطابق الأرضي. صدح النفير وارتد صداه بين الجدران الخرسانية، وصمت ما إن ترجلت من السيارة. ثم وجدت سلاحي الآلي، معلَّقًا على إحدى الماكينات العملاقة الصدئة، تركه عازف الأقدار لي. التقطته وفردت قامتي مسددًا فوهته للأبواب والنوافذ.

وعندما تفقدت الطوابق العليا والبدروم، تحقق ما كنت أخشاه... لقد رحلوا.

وهكذا وجدت نفسي في أطلال كان يسكنها منذ ساعات قليلة المئات من المتعصبين المجانين. اعتصرت يدي قبضة سلاحي، ولم أدرِ بنفسي وأنا أفرغ خزينته في جدران المبنى المهجور. صدّى الرعد لثوانٍ طويلة ومعه هدير صراخي. وبعد أن أفرغتها وأطلقت سراح بركاني، لم يَعُد هناك سوى صوت أنفاسي.

أنزلت سلاحي.

لم يعد هناك من أقاتله..

لم يعد هناك فائدة من كل هذا..

مددت جسدي على أرضية المصنع البادرة..

وأغمضت عيني..

مستسلمًا...

لقد انتصر.

عايـدة

أصعب سؤال في الوجود.

كيف تقتل أقرب الناس إليك؟ كيف تسمح لهم بقطع نبع الحياة عنهم؟

كان لا بد أن أتخذ القرار، هل أفصل عيسى عن أجهزة دعم الحياة أم أتشبث به؟

هل أظل ممسكة بذراعه كي لا يقع حتى لو كان يتمزق أمامي؟

هل أتحول إلى سليم لقمان آخر؟ هل أضع نفسي قبل شقيقي؟

وجدت نفسي أمسك يد عيسى، للمرة الأخيرة، أتخلل شعره الأشقر الملتوي للمرة الأخيرة، أتحسس وجنته للمرة الأخيرة، ثم التَفَتّ إلى نهلة التي كانت تبكي ورائي. خُيّل إليّ أنني أرى وجه حازم، يطل من أسفل قلنسوة في ركن ما مستتر وراء جدار، فعرفت أني أهذي. هززت رأسي لنهلة بالموافقة، ثم تركت يد عيسى، فخانتني ركبتي، لتلقفني نهلة قبل أن يُغشى عليّ.

***

"الفُراق.

لماذا تهدينا الدنيا أشخاصًا نحبهم ونتعلق بهم ثم تحرمنا منهم بلا سبب؟

كلما كان الإنسان رقيقًا وحقيقي الإحساس، تألم أكثر، وكانت

جراحه أعمق وندبات روحه أكبر، كأننا نُعاقب على رقة قلوبنا.

هل الحل أن نكون بلا مشاعر؟ أن نكون بقسوة الحديد كي لا ننكسر؟ أن نقتل عواطفنا وندفنها كي لا تسبب لنا ألمًا؟

هل الناجح هو من بلا عاطفة؟ من يدهس الناس حوله كأنهم أعشاب ضارة تعيق تقدمه؟

هل يجب أن نبتر أحاسيسنا كي لا تخذلنا؟"

هكذا قرأت في إحدى صفحات دفتر ناعوت البيضاء، الدفتر الذي لا تطيعني الأقلام فوق صفحاته. بحثت عنها حتى وجدتها، تلك الكلمات التي تتحدث عن الفراق، فقد كنت بحاجة إلى أن أفهم.. أن أتحدث مع أبي.. أن أشكو بثي وحزني إليه. كنت بحاجة إلى سماع صوته، إلى حكمته، أن أسمعه وهو يقول لي إن هذا الألم الذي أشعر به ليس بلا سبب، ولا بلا نهاية.

حاربت دمعة كي تهرب من سجنها في مقلتيَّ، لكنه لم يعد هناك ما يكفي لِتُولَد بعد ساعات من البكاء المستمر. لقد كنت خير صحبة لي يا عيسى.

قبل أن أغلقه وجدت نفسي أتسلل إلى صفحة بعينها... وقرأت أبيات...

يأتيك القدر ببشرى أن موعدك بعد حين..

~~بعد لحظة.. بعد يومٍ.. أو بضع سنين...~~

لقد نفد وقتنا كما نفد وقت عيسى.

***

وقفت شاردة في فراش عيسى الخالي أمامي، شاخصة البصر كالمجاذيب، بينما كانت نهلة تعطي أوامر ما للمرضات. دق هاتفي وأجبته لا إراديًّا:

- البقاء لله.

لم أجزع حين سمعت صوته، فالحزن أحيانًا يكون أقوى من الخوف، لكن يدي تسمرت بالهاتف على أذني وأنا أسمعه.

- سامحيني إني ملحقتش أوصل لرد على كلام عيسى قبل ما وقته على الأرض ينتهي. سامحيني إني مقدرتش أرحمه من اللي كان فيه. سامحيني إني خذلته وخذلتك.

شعرت نهلة بتوتري فأمسكت بكتفي لتنظر إلى وجهي متسائلة، بينما أكمل محدثي كلامه دون أن ينتظر مني تعقيبًا:

- بس أنا حقيقي فخور بيكي.

تراجعت خطوات وخرجت من الغرفة لأبتعد عن الناس وأجيبه، منهكة المشاعر لدرجة التبلد:

- إوعى تكون فاكر إن فيه شبه بين اللي أنا عملته واللي أنت بتعمله. إنت مجرم مجنون وأنا...

سكتّ عن الكلام لعدم قدرتي على النطق بها، فاستطرد بصوته الهادئ الحيادي:

- غريبة جدًّا كبرياء البشر. إنتِ إيه؟ إيه الفرق بينًّا؟

- أنا حميت أخويا من العذاب. الطب وصل لآخره معاه.

- وأنا نفس الشيء بالضبط.

جاءت نهلة لتقف معي، لكني تجاهلتها واستطردت بحنق:

- إنت بتاخد القرار ده بالنيابة عنهم. مين قالك إنهم عايزين يموتوا؟

- يعني إنتِ لسه شايفة إن الدنيا تستحق؟ لسه شايفة فيه معنى للي بتعمليه، العطاء اللي من غير حساب ولا رجاء، لسه شايفة إنك صح؟ هتاخدي إيه في المقابل؟ عرفان؟ من مين؟ شوية أجساد فانية وإرادات مفيش في إيديها قرار واحد؟

صمت للحظة فقد كنت أضعف من أن أقاوم، وهو لم يرحمني.

- أنت لوحدك يا عايدة، متستنيش حد ينقذك، لأن محدش هيقدر. لا حازم ولا سليم ولا جيوش العالم كلها يقدروا يقفوا قصادي. مش علشان أنا بطل خارق لأ، علشان هم ضعاف. والأهم من كل ده إن...

العالم كله بيسمعني يا عايدة... والحقيقة انكشفت خلاص. كل اللي عليكي إنك تغمضي عينك... وتسمعي...

النبضة الأخيرة.

سليم

عزلت نفسي بين جدران ثرثارة.

لم يَدرِ أحد أن في الشقة بالطابق الأخير، في تلك العمارة الراقية بمصر الجديدة، تدور معركة ملحمية حامية الوطيس. في تلك الشقة التي لا تجرحها نافذة، ولا يُرى ما يحدث بها لعلوها فوق جيرانها، بُرجي العالي الذي ظننته ملاذي، ومع مرور السنين صار منفاي. معركة لم يسمعوا لها حسًّا، دخلتها أعزل، بدون دعم ولا حليف، بعيدًا عن أي اتصال إنساني، أصارع شياطيني.

حين أبتعد عن الأدوية لمدد طويلة، في تلك المرحلة "الرمادية"، تزداد أحلامي، تكون أكثر قوة... وقسوة. وكالعادة تبدأ بباب غرفة العمليات، تُغلقه نهلة على أخي سالم وهو يُحتضَر، ثم يتحول إلى باب غرفته الذي أُبقيه موصدًا دائمًا. أحلم أن هناك أصواتًا تأتي من الداخل، نداءات وهتافات وصوت رياح.

أتخيل بحرًا به موج كالجبال ووميض في الأفق...

ليلة بعد أخرى كنت أفتح عينيّ من غيبوبة انسحاب الأدوية، لأقف وجهًا لوجه ضد المارد الجبار الذي صنعته بنفسي، كي أقهر نفسي، أنبش بيديَّ العاريتين محاولًا اختراق الجدار الجليدي القاسي الذي شيدته حولي.

معركة كان عدوي فيها هو سليم لقمان، الطبيب الغبي خارق الذكاء، سجين المهدئات، الذي يخشى الأبواب المغلقة ويرى أشياء

سوداء تسقط حوله. الجراح الذي تحول إلى محقق شهير ثم وجد نفسه مضطرًا أن يعزل نفسه عن عقاقيره وعن العالم، حتى يصفي ذهنه ويشحذ حواسه، وينصت. ومع كل صوت جديد أسمعه، مع كل خطوة تقربني من الصفاء، مع كل شعور يعود للأرض القفر التي كانت جنة في صدري في يوم ما، وصارت جافة كصحراء صخرية، مع كل إحساس بألم يصرخ به جماد في بقعة من بقاع الأرض بعد أن فاض به الكيل... كان الخوف يقترب مني هو الآخر... مثل موجة جبلية الحجم قادمة من بعيد تهدد بدمار كل شيء.

ضريبة الآدمية.

في البداية، في الأيام الأولى، كنت كما تعودت في السنوات الثلاث المنصرمة، متذبذبًا بين العالمين. أسمع فيها همسات بعيدة لأشياء اختزنت حزن صاحبها وأخذت تناجيني به. تجاهلتها وتحملت دبيبها ملتزمًا بروتين يومي حازم. أستيقظ لأغتسل سريعًا، أغتسل من الأحلام شديدة الواقعية التي كنت أراها في منامي، ثم أذهب للمطبخ لأعد لنفسي فطورًا باردًا من الجبن. أمضغه دون أن أستسيغه، وأنا أنقل بصري بين بابَي غرفة سالم وغرفة أَلِيس، ألقي عليهما تحية الصباح، قبل أن أشرد عبر النافذة العريضة التي تحتل معظم جدار الصالة.

علق الطعام في حلقي حين تذكرت ريتشارد ومحاولاته المستميتة لتجنيدي. لم أعلم ما الذي يسعون إليه بالضبط، لكني أدركت أن ذلك الـ"عازر" لذو شأنٍ عالٍ في هرم السلطة العالمية، أحد الأيدي الخفية المختبئة خلف الستار. تحدث عن أبحاثي في مجال العلوم الفلسفية،

تلك التي تتناول المواضيع العلمية بوجهها الفلسفي وتحللها بالمنطق. سخر من سعيي خلف حقيقة الإدراك، سخر من محاولتي للوصول لأصل ومصير الوعي. منطقة شائكة لا يهتم بها الكثير، لكنه كان يدرك تأثيرها لو انتشرت.

كتبت يومًا في مدونتي الإلكترونية، أن أهل العلم قد تغافلوا في القرون الأخيرة عما سميته بـ"روح العلم". فمن أكثر المواضيع التي تشغلني – كما يعرف المقربون عني – هو الفارق بين الذكاء والحكمة. التطور التكنولوجي، والابتكار يعتمد على الذكاء، أما كيفية استخدام هذه الاختراعات وتأثيرها على حياة الإنسان، فينبع من الحكمة، والفهم العميق لنفسية البشر. ناديت، في أكثر من موقف، ومن فوق أكثر من منبر، بضرورة وجود قسم موازٍ للبحث والتطوير، يختص بدراسة تأثير ما هو في مرحلة الابتكار على حياة الإنسان الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وخلافه. ففي أحيان كثيرة، تتسبب سرعة تطور التكنولوجيا في تدهور الحياة، فيزداد التعقيد وتتضاءل السعادة.

أعطيت أمثلة كثيرة: البارود، الطاقة النووية، وسائل التواصل الاجتماعي، الأدوية المخدرة... كلها أشياء تم اختراعها بنية حسنة، لكن استخدامها كان كارثيًا أكثر منه مفيدًا. طالبت بوجود دراسة عن كيفية استخدام الاختراع، وسن القوانين، قبل وضعه في يد من يسيء استخدامه. قوبلت بالاعتراض والجدال اللانهائيين، بل والسخرية والعدوانية في بعض الأحيان. دفاع مستميت عن مسميات أنيقة من نوعية "حرية العلم"، و"تكسير القيود"، وغيرها

من الأسماء التي تحث على ضغط دواسة البنزين دون التأكد من جودة الفرامل.

والآن، وبدون مقدمات ولا ترتيب منطقي، يأتون ليعرضوا عليّ التعاون، مشيدين بتلك الأفكار؟

لم يكن ذهني صافيًا بما يكفي لأجمع قطع البازل، وحتى لو كان كذلك، فلديّ الأهم. وهكذا تمنيت أن يكون أقصى ما يمكن أن يفعلوه الآن هو المراقبة، ومراقبتي في هذه الحالة ستكون أقل إثارةً من متابعة حلزون يَتَرَيَّض.

ذهبت لجهاز الكمبيوتر، وجلست أمامه بالساعات، أو للدقة "دفنت" نفسي في شاشته. على أية حال، عملي كله – مجهود حياتي العملية والعلمية – كان منشورًا على مواقع مجانية مثل الويكيبيديا، ولم يكن هناك مُتبقٍّ الكثير، فقط بعض النظريات غير المكتملة حول ما يحدث لنا بعد الموت. أفكار لا هي بعلمية بحتة، ولا فلسفية، ولا روحانية، بل مزيج من الثلاثة. وبما أنني مُقدم على أكبر مخاطرة في حياتي فقد قررت رفع كل شيء على الويكيبيديا والمواقع العلمية التي أنا عضو بها، حفاظًا لها.

***

بعد مرور أسبوعين، قررت اختبار صفاء ذهني. جلست على الأريكة في الصالة، اجترعت آخر قطرة في زجاجة المياه المعدنية... وابتسمت حين تذكرت وصف عيسى للماء. ثم التفتّ للركن الذي تكدست فيه الأشياء الناطقة التي جمعتها على مدار السنين.

ما الذي تريده منا الجمادات التي تدب فيها الحياة؟

هل تزداد نسبة حدوث تلك الأشياء الخارقة للطبيعة وانتشارها كما أظن؟ هل ترتفع أصوات الجماد بالفعل، أم أن إحساسي بها هو الذي يزداد؟

وها قد عاد حذاء سالم إلى مكانه أمام غرفة سالم. كنت موقنًا أنني قد وضعته في دولاب التخزين في الشرفة.

ما الذي يحدث؟

هجم عليّ الظمأ والصداع مرةً أخرى، كما لو كان رأسي يعترض على هذا المجهود الفكري. أرجأت الأمر حتى يصفى ذهني أكثر. فأنا أعلم أنه يجب عليّ أن أتخلى عن دفاعاتي كلها، أحطم الأسوار التي بناها عقلي حول بصيرتي. أن آمر الحراس كي يخفضوا أقواسهم، وأفتح أبواب قلعتي على مصراعيها... وأستقبل الزائرين... بكل ما يحملون.

***

تجربتي التالية أتت بعدها ببضعة أيام، وقررت أن أجعلها خاصة بمقهى الخمسة وعشرين وحده. فقد عادت تدريجيًا إلى ذاكرتي قطع عشوائية أخرى، حاولت منها استكمال "البازل".

جلست في الصالة أمام النافذة العريضة التي تطل على الحديقة، بجواري صندوق مياه كامل، تحسبًا لظمأ مضاعف. تأملت الأمطار التي هجمت على الزجاج، كأنها تريد تحذيري، ثم أغمضت عينيّ...

فأنا سأفتح البوابة، ويجب أن أستعد لكل ما سيدخل منها، فقد كنت أقف أمامها أعزل.

ما تراءى لي لحظتها لم أعلم إن كان ذكرى حقيقية أم أن ذهني قد رسمها لي هكذا كي أتمكن من استيعابه، رسالة مشفرة من عقل باطن مخيف.

طعم الماء في فمي. نعم كان ماءً، ذلك الذي أعطوني إياه حين طلبت منهم "بيتهوفن"، قبل أن تدق الساعة وتعلن بدء الساعة الخامسة والعشرين، الساعة الأولى والأخيرة من الثاني والثلاثين من ديسمبر، 2017.

ومذاق الماء في فمي كان "فردوسيًّا"... بالضبط كما أخبرني عيسى.

المنطق يقول إن الماء كان به مخدر ما، لكن ما حدث وما يحدث لا يتبع منطق هذا العالم، بل عالم آخر، عالم لمحت جزءًا لا يُذكر منه في ذلك المقهى. فحين رفعت الكوب لأرتشف مما به من ماء ليُذهب عني ظمئي الرهيب، سمعت صوتًا كالرعد يشق سكون الخيمة المظلمة، صوت راضي صاحب المقهى، الذي كان لا يزال جالسًا في مكانه، بجوار الستار.

"أفهمت؟"

التفت لأجده يسحب نَفَسًا من "الجوزة"، لينعكس نورها الأحمر على وجهه الدائري القديم وهو يحدق بي.

فهمت؟ فهمت ماذا؟

"العطش. أفهمت مغزاه؟"

نعم، فهمت... فهمت أن لولا العطش، لما كان الارتواء.

ومع عثوري على الإجابة، سقطت الغشاوة التي كانت تحجب نظري، وتذكرت ما جاء بعدها...

رأيت خيمة المقهى المنصوبة، تقع من حولي وتستقر على الأرض. لم أُنزل عينيّ لأراها تستكين فوق بعضها، وهذا لأن ما كان يحدث فوقي كان أصعب من أن يستوعبه عقل أو يشعر به قلب.

كيف أصف ما رأيته؟

كأني انتقلت إلى عالم سماؤه ليست كسماء عالمنا، بل مرآة له. سماء تدور فوقي ببطء كأنها تنورةُ راقص وأنا في مركز الدائرة. شيء ما بداخلي كان يخبرني أن المشهد أعمق من هذا، فقط يجب أن أراه ببصيرتي. وحين دققت وجدت...

تلك الأشياء التي تلمع فوقي لم تكن أجرامًا سماوية أو كتلًا من نار، بل تجسيدًا لمشاعر البشر، انعكاسًا لعالمنا. هذه الشمس هناك، تلك التي تنير المساحة الهائلة حولها، هي قصة كفاح مضنية كُللت بنجاح. وهذا الشهاب الساطع الذي يشق السماء، هو كلمة رقيقة ألقاها محب على مسامع حبيبته، ليضيء لها روحها والدنيا من حولها، لجزء من الثانية. تلك الأقمار والنجوم البعيدة، آمال وأحلام، ابتسامات وضحكات، كلمات شكر ومدح وعرفان. وهذا الكوكب

اللامع هناك، لا أدري لماذا أشعر أنه عناق أب لابنته. وجدها تبكي في صمت، في ظلمة غرفتها. دخل عليها ليحيطها بوجوده، ومضة ستظل تلمع في قلبها حتى يتوقف عن الخفقان.

أما هذا الجرم الثابت الذي تنعكس عليه أنوار النجوم، فيضيء ركنه المظلم من السماء، هل هو... عايدة؟

لا أعرف السبب في وصفي لما رأيته بهذه الطريقة، مزيج عجيب من المنطق والإحساس، كأن الحواس الخمس قد استبدل بها القلب وتُوِّجَت به. كأن العقل قد صارت له مفردات أخرى، قوانين لم أسمع بها من قبل، أبجديات تعرفت إليها لتوِّي، في اللحظة التي دقت فيها الساعة معلنة بدء الوقت المستتر، الدقائق القليلة التي لا تمر سوى في هذا المكان، النافذة الصغيرة التي يلتقي فيها العالمان.

وقد اخترت لفظ المستتر، وهذا لأنه كان هناك "الستار"، ذلك الذي كان يجلس أمامه راضي صاحب المقهى يدخن "جوزة" تنير وجهه كلما احتدت شعلتها، كأنه مارد من نار يحرس بوابة كنز ما.

ستار يرمز لكل ما أخشاه.

"هل تريد أن تعرف ما يحدث وراءه؟"

هكذا جاءني سؤاله في ذهني كالرعد، وهو يرمقني بقوة كأنه يخترق جمجمتي ليرى ما يدور في رأسي.

ثم زاد استيعابي لما يحدث وفهمت أكثر.

الستار...

الأبواب المغلقة، نعم، هي أكثر ما أخشاه، عذابي الدنيوي... المجهول.

نعم، أخشى ما يقبع خلف الستار، أفزع مما لا أعرفه. أرتعد خوفًا من الوحش الذي يخلقه ذهني، ومن المشهد الشنيع الذي ينسجه ليعذبني به. أخشاه بقدر ما أخشى جهلي، ذلك التناقض الذي يمزق البشر وهم ينتظرون نتيجة الامتحان، يتوقون إليه لكنهم يهابونه. أخشى أن أعرف وأخشى أن أظل جاهلًا.

أخشى أن أرى الحقيقة القاسية.

أن أرى سالم يُحتضَر خلف الباب، أن أراه يتألم، أن أراه يتعذب بسببي.

أخشى أن أرى الوجع. أن أرى الأحلام تتحطم فيختفي ضوء الشمس.

لا أريد أن أرى الوجه المظلم للقمر. لا أريد أن أرى ما يقبع تحت الابتسامات، تلك الوجوه الحزينة الرابضة تحت الأقنعة. لا أريد أن أشاهد ضوء نجمة وهو يتضاءل أمامي، حين ينفَضّ العناق ويدير كل حبيب ظهره للآخر. لا أريد أن أرى تلك الغمامة التي تزحف ببطء لتحجب ضوء السماء، الغمامة التي يخلقها المايسترو في مسيرته نحو الدمار.

لا أريد أن أرى ذلك النجم ينفجر ليصيبني ويصيب كل من ينظر إليه بالعمى المؤقت، حين ينهار أحدهم في عالمنا، حين يسقط ليجلس على ركبتيه باكيًا، صارخًا: "كفى!!".

أكاد أسمعها فيحترق بها قلبي كما يحترق قلب قائلها.

تتكرر. آلاف المرات. في كل ركن في سماء هذا العالم الخيالي وكل ركن في عالمي الواقعي.

يصرخون بها جميعًا: "كفى!".

نفس الكلمة التي صرخت بها وأنا أفتح عينيّ. وهذا لأنني أحسست بشيء لم أشعر به منذ سنوات ودهور.

هذا الذي يسيل على وجنتي، هذا الخيط البارد الذي يصل عينيّ بفمي، طعمه المالح فوق شفتي.

لقد كنت أبكي.

انتفضت واقفًا. مذعورًا. مسحت "الدمعة"، كأنها ثعبان يتسلق وجهي، كشطتها من فوق جلدي، وتقهقرت لأقع على الأريكة.

ما الذي مررت به لتوي؟ هل كانت الذكرى بهذه القوة؟

انتبهت للركن الذي تكدست فيه الأشياء الناطقة التي جمعتها على مدار السنين، سيل من الأحاسيس هجمت عليّ مثل مياه النهر بعد فتح السد، ثم...

"سليم".

تسمرت مكاني واستدرت ببطء لأنظر إلى مصدر هذا النداء: غرفة سالم. بحلقت في الباب، منصتًا بكل جوارحي. يُخيل إليّ أن الهواء ينضغط ليدخل أسفل منه كأن وراءه فراغًا خاويًا، الغرفة نفسها

كانت تتنفس. ثم ارتفع الصوت ليصير كأن هناك موجة عاتية تقترب وتضغط معها الهواء من شدة سرعتها.

يا إلهي، هذا مخيف.. تلك المشاعر.. هذا كثير.

كلَّا. لا أريد أن أشعر بها. لا أريد هذا الضعف، فهذا عالم لا يرحم. لقد قاومت مشاعري أطول من اللازم حتى تكدست بداخلي وها هي تنفجر.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أبحث كالمجنون عن قرص منسي هنا أو هناك، عبوة مخفية بين الوسائد أو محبوسة بين أخشاب الأثاث. توقفت لألتقط أنفاسي قبل أن أنتزع معطفي من الدولاب، وأرتدي بنطلوني وحذائي وأتجه إلى باب الشقة كالإعصار. تسمرت أمامه للحظة، أفكر في الجملة التي يفتح بها عن بُعد، لكني لم أنطق بها.

بل تقدمت إليه و... فتحته بيدي.

وهكذا تحررت من منفاي، بعد أيام في العزلة لا أعرف عددها، دون أن أتبع أيًّا من خطواتي الاحترازية. لم أنظر في شاشة المراقبة المعلقة بجوار الباب، فتحته بكل قوتي، كدُبّ تحرر لتوه من حياة العبودية في السيرك. وما إن أصبحت بالخارج، حتى أدركت فداحة إهمالي. أمامي، كان يقف عملاق في معطف أسود، وصوت من خلفه يقول بالعربية الفصحى وبلكنة عجيبة:

- ها أنت ذا... أخيرًا... مرحبًا مستر جراي.

هــو

دلف اللواء الشناوي إلى مكتب اللواء المشدّ فأشار له الأخير ليجلس في صمت ثم إلى الشاشة المعلقة بعرض الحائط. تعرض الشاشة مشهدًا لصندوق معدني لامع عليه حرف الـ"G". مشهد ثابت لا يتغير للصندوق الذي يرقد فوق طاولة صغيرة في قبو ما. في أسفل الشاشة لوجو عبارة عن رمز الموسيقى ممتزجًا بقلب أحمر. ضغط اللواء المشدّ زر جهاز التحكم، ليختفي المشهد، ويظهر وجه الأربعينية حمراء الشعر.

- ألديكم أية فكرة عن هذا المكان؟ أو السبب في توقف قناة المايسترو عن بث الفيديوهات والاكتفاء بهذا المشهد الصامت؟

لم يجبها أيٌّ منهما واكتفى اللواء المشدّ بهز رأسه ومطّ شفتيه.

- أتعرفون إلام يرمز الحرف "G"؟

- جولدينفيلر، أكبر شركة دواء في العالم. والتي قُتلَ مالكها الملياردير الإنجليزي منذ أسابيع قليلة وسُرق هذا الصندوق من خزنته الخاصة. نعرف كل هذه التفاصيل.

كانت إجابة اللواء المشد.

- لقد صار هذا المايسترو إلهًا.

قالتها ضابطة الإنتربول في شرود ثم سكتت للحظة لتستجمع أفكارها.

- سيادة اللواء، لقد بلغنا أن هناك حالات وفاة بدأت تحدث عندكم أولها والدة ضابط لديكم في القوات الخاصة، الضابط الذي كان جزءًا من وحدة ملاحقة المايسترو.

تبادل اللواء المشدّ مع اللواء الشناوي نظرة خاطفة قبل أن يلتفت للشاشة ليستمع.

- إنه فيروس يا سيادة اللواء، فيروس اسمه "سالوس" ينتشر بالتلامس. نسخة بدائية له على الأقل، لكنها قادرة على قتل المصاب بها في خلال أسابيع أو شهور. والعجائز وضعاف المناعة سيسقطون أولًا قبل أن يلحق بهم الجميع.

- ندرك هذا. وندرك أيضًا أنها ليست المرة الأولى التي يستخدم فيها المايسترو سلاحًا بيولوجيًا، فقد سيطر على منظمة الألوسي باستخدام فيروس أصاب به زعيمها.

قالها اللواء المشدّ فأضافت:

- "سالوس" تعني "الخلاص" باللاتينية، فيروس تم خلقه فيما يبدو لتطوير منظومة المناعة. وفيما يبدو أيضًا أن المايسترو قد توصل إليه وقرر استخدامه بوجهه القبيح. الشيء المبشر بالأمل أن هناك مَضلًا له، ونحن نعتقد أنه في هذا الصندوق الذي تعرضه قناة المايسترو، يتحدانا أن نصل إليه قبل أن يقضي الفيروس على الملايين. يريد أن يرانا نموت والنجاة أمام أعيننا دون أن نستطيع أن نصل إليها.

اقتربت من الشاشة وشبكت أصابعها لتقول:

- نريد منكم الضوء الأخضر. نريد أن نرسل عناصرنا إلى مصر حتى نتمكن من القبض على هذا المجنون قبل أن يدمر كل شيء. العالم يحترق سيدي. الآلاف ينتحرون كل يوم بسبب أفكاره وجرائم القتل الرحيم صارت تحدث كل ثانية. الفوضى تطول كل شيء. كل من تم القبض عليهم من ذوي المعاطف السوداء قتلوا أنفسهم في سجوننا ومستشفياتنا في وقت واحد وبدون إنذار بعد أن نشروا الڤيروس في كل بقاع الدنيا. الأمر يبدو وكأن عازف الأقدار هذا قد ضغط زر الموت الآلي الخاص به ليتساقط أتباعه ومريدوه في نفس اللحظة.

- للمرة الأخيرة سيدتي، لن نسمح بتدخل أجنبي في مصر. العثور على عازف الأقدار هو أولوية الأجهزة الأمنية في الدولة. أنتم من يجب أن يعمل بجد للوصول لمصل بديل لـ "سالوس"، فهو قد خرج من معاملكم. في رأيي هذا أهم من الوصول للمايسترو لأننا لا نعرف متى يبدأ الڤيروس في التوحش ومهاجمة حامله.

هكذا أجابها المشدّ بهدوء، فتأملته المرأة لوهلة قبل أن تقول:

- بالنسبة للمصل البديل فخبراؤنا يقولون إنهم سيصلون إليه خلال أيام أو أسابيع قليلة. وهذا لأن هذا الڤيروس لم يكن مقدَّرًا له أن يخرج من معامل جولدينفيلر ولم نكن نعلم بوجوده من الأساس. كان يجب تدميره على الفور، لكن كما تعلم، من يخلق شيئًا من الصعب أن يتركه يموت.

صمتت للحظة قبل أن تردف:

- كما ترى نحن أيضًا نعمل في جد للوصول للعلاج سيدي. ثمانٍ

وأربعون ساعة سيادة اللواء، بعدها لن أستطيع أن أمنع أحدًا من التدخل.

وما إن أنهت الاتصال حتى التفت اللواء المشدّ للشناوي الذي قال:

- لازم نعلن حالة الطوارئ سيادتك. الجنان الجماعي ده لو انتشر في مصر البلد هتنهار. أومال فين سليم زفت لقمان والبنت بتاعة دفتر ناعوت؟

- اقتنعت أخيرًا إن الحل عندهم؟

هز اللواء الشناوي رأسه بلا معنى، رافضًا الاعتراف والنكران على حد سواء. استطرد المشدّ دون أن ينتظر منه ردًّا:

- عايدة أخوها لسه متوفي وسليم لقمان حابس نفسه في بيته بقاله شهر.

- بينيل إيه؟

- بيستعد.

قالها المشدّ وشرد بعيدًا فأضاف الشناوي:

- مش حاسس إن فيه حل أساسًا سيادتك. حاسس إن المايسترو المجنون ده هيعمل اللي هو عايزه ومش هنعرف نعملُّه حاجة.

سليم

وجدته أمامي ببدلته الأرجوانية باهظة الثمن، ينظر إليَّ بعينين غير متساويتين في الاتساع. أجلسوني بغلظة على كرسي أمام النافذة ثم قاموا بشد وثاقي بإحكام. ابتعدوا بعدها كالروبوتات، تاركين لعازر مساحته. تقدم ليقف أمامي، يزيح أوراقي وكتبي الملقاة على الأرض بقدمه، ينفض ترابًا وهميًا من فوق بدلته الكشمير الزرقاء الأنيقة، ثم نفخ أصابعه بعدها لينظفها مما علق به من غبار وهو يقول بالإنجليزية:

- لقد أتعبتنا معك يا دكتور سليم. شهر كامل متحصن في شقتك المنيعة.

ابتسمت فقال وهو يحاول مجاراتي في الابتسام.

- هل ممكن تشاركنا سبب سعادتك؟

أشرت برأسي لذوي المعاطف السوداء قائلًا بالإنجليزية:

- حاملو فيروس؟

كان جحوظ عينيه أبلغ إجابة. إحدى لحظات غروري... التي استمتعت بها حقًّا. فاستطردت:

- ينشرونه عن طريق اللمس. ينزلون بالمطارات، بوابات العالم، وينقلونها إلى من يدخل ومن يخرج. فيروس جديد علاجه معكم وحدكم بكل تأكيد. تعاونتم مع المايسترو من أجل جيشه من المجانين المستعدين للتضحية بحياتهم لو طلب منهم. الوحيدون

الذين يمكنهم حمل الفيروس القاتل طواعيةً. وهو تعاون معكم من أجل الحصول على أداة الدمار التي يمكنه بها حرق العالم. تحالف شيطاني ليس له سابقة.

صمتٌ للحظة لأجعله يستوعب تحليلي، قبل أن أردف:

- لكن هناك ما يحيرني... ما هي أهميتي في كل هذا؟ أبحاثي؟ متاحة للجميع. القضايا التي أحلها واشتهرت بسببها؟ صعب أن يكون لها صلة بمافيا محترمة مثلكم. ما الذي يجعلكم تتكبدون كل هذا العناء والانتظار الطويل من أجل شخصي المتواضع؟

أشار لأحد العمالقة ذوي المعاطف السوداء أن يأتي له بكرسي. جلس بعدها أمام النافذة، يحدق بالحديقة بالأسفل، ووضع ساقًا فوق الأخرى.

- أبحاثك التي نشرتها على موقع الويكيبيديا، كانت ملهمة. ولا أخجل من الاعتراف أننا كنا قد وصلنا لطريق مسدود وفقر في الأفكار، وقد ساعدتنا أوراقك العلمية على تخطي العقبات. لقد فتحت لنا أبوابًا يا دكتور لقمان لم نكن نعلم حتى بوجودها. جعلتنا نرى الجهاز العصبي وتناغمه مع الأحماض النووية وخريطة التفاعلات الكيميائية في الجسد بطريقة مختلفة تمامًا. تُرى، ماذا تُخفي أيضًا في هذا الرأس الذي يعلو كتفك؟

أبحاثي هي التي ساعدتهم كي يخلقوا فيروسًا يقتل الملايين؟ مستحيل. كيف أمكنهم العثور على الجانب القبيح من أفكاري؟ كيف يمكن للإنسان أن يُبدع في سوء استخدام كل ما نسمو إليه فكريًا؟

نخترع ونكتشف ونرتقي بالعلم، ليستخدمه البشر في أبشع صوره. وجدت نفسي أقول بتَحدٍّ أخافني من نفسي:

- أنت لا تريد أن تدخل في رأسي يا هذا، صدقني، لن تخرج منه كما كنت.

ذابت ابتسامته وخرج صوته مخنوقًا كذكر البط:

- معدل ذكاء 147. بالتأكيد فهمت قصدي. بفضلك أصبح لدينا فيروس يمكننا السيطرة عليه، قاتل صامت ساكن في أجساد ملايين البشر وسيصل لمليارات غيرهم خلال أسابيع. سينشط حسب قوة حامله ويقتله. فيروس ليس له سوى مصل واحد، وكما قلت أنت: هذا المصل معنا وحدنا. كل هذا يا دكتور سليم، كل ما يحدث في العالم، كنت أنت من أشعل فتيله.

سكت بغتةً وذابت ابتسامته وهو ينظر ورائي، نظرت في زجاج النافذة لأرى أنعكاسًا لشخص يقف عند باب الشقة، لكن قيودي منعتني من الالتفاف بما يكفي لأرى ملامحه. رغم هذا كنت أعرف من هو.

الوحيد الذي يمكنه أن يقود أوركسترا بهذا الحجم وهذا الجنون.

انقبض صدري، فوجوده قوي، قوي للغاية. وفيما يبدو أن عازر نفسه قد شعر بنفس الشيء، فقد انقلبت "سحنته" واكفهر وجهه وهو يقول:

- أقصد إنت اللي ساعدت على إشعال فتيله. المايسترو الحقيقي

يقف وراءك.

سمعت صوته للمرَّة الأولى وهو يخاطب عازر، هادئ عميق، كبحر كَسُول يداعب صخوره:

- كلنا جزء من السيمفونية يا عازر، الأوركسترا ليست شخصًا واحدًا.

تمكنت بصعوبة من ملاحظة شعره الفضي الطويل وأكتافه العريضة وطوله الفارع في انعكاسه على زجاج النافذة. لمحته يتحسس باب غرفة أليس، قبل أن يستطرد بإنجليزية سليمة:

- معذرةً مستر جراي، فهم يريدون الاطمئنان. يريدون التأكد أنه لا يوجد في جعبتك ما يمكنك أن تفسد به خطتهم الطموحة، فكرة لمصل مضاد مثلًا. ولهذا كانت مراقبتهم لك لصيقة، وعدم ظهورك أونلاين كاد يصيبهم بالجنون.

تدخل عازر بالإنجليزية:

- ليس هذا هو السبب الوحيد أيها المايسترو. شهرة مستر جراي تزداد كل يوم وأفكاره بشكل عام تهدد عمل جهات أكبر مما تتخيل، وليس عملنا فقط. مقالاته التي تنفي وجود مخلوقات أخرى وكواكب مأهولة قد أضرت بأبحاث الفضاء. كلامه عن سرعة الضوء، وكيف أنها حدود إمكانيتنا، وأن الزمن ليس بُعدًا رابعًا كما كنا نظن، وغيرها من الأفكار الهدامة، قد تسببت في تذبذب التمويل لأبحاث كان يمكنها أن تنقل البشرية سنينَ ضوئية للأمام.

- كانت ستنقلكم أنتم.

هكذا بصقت في وجهه بازدراء، قبل أن أستطرد بكل ما يمكنني أن أُظهره من احتقار.

- المال هو غايتكم الوحيدة، مهمًا تغيرت السبل ومهما تشكلت الكلمات وتلونت الأعذار، المال هو الهدف الأسمى. سواء أكنتم ملوكًا أم جنرالات أم كهنة أم مجرد موظفين فاسدين. أبحاثكم العلمية هي أبحاث حرب وسباق تسليح وصراع على السيطرة على البشر. تخدعونهم وتبيعون لهم الوهم وحلم الخلاص في شكل مخلوقات فضائية وخطط دول معادية كي تستطيع حكوماتكم جمع الأموال.

سكتُّ للحظة لألتقط أنفاسي وأقول:

- لقد وصلتم لطريق مسدود لأنكم فقدتم البوصلة.

احتقن وجه عازر ونظر للمايسترو، الذي تجاهل الحوار وتقدم ليقف ورائي. ثوانٍ بدت كالدهر، ثوانٍ رأيت ثقلها في عينيّ عازر الجاحظتين. انتظرت أن تظهر يد ممسكة بسكين حاد تنحر عنقي، أو أن يطعنني به في ظهري ويشق صدري. لكنه خذلني وانحنى ليهمس في أذني:

- كلامك كله صح. فاكرين إن المستقبل بقى ملكهم. فاكرين إن بقى معاهم السلطة والقوة اللي هتخليهم يسيطروا على العالم.

سكت للحظة قبل أن يعتدل واقفًا، ثم انحنى على أذني الأخرى كي لا يرى عازر شفتيه وهو يكمل:

- بس ميعرفوش إن مفيش مستقبل، ومش هيبقى فيه عالم. أنا وإنت بس اللي عارفين ده. أنا وإنت بس اللي بنسمع ونشوف، اللي بصينا ورا الستارة. أنا وإنت اللي هنفضل للنهاية. والنهاية يا صديقي.. هتكون ملحمية.

أنهى المايسترو كلامه، وفرد قامته. لمحته في زجاج النافذة يتجول في الشقة، كأنه يلعب الشطرنج مع خَصْم خفي. توقف عند غرفة أليس وقال:

- كان يعشقها... أتكلم عن شقيق عايدة ناعوت... كان يريدها معه.

ثم استدار بغتة ليقول بالإنجليزية:

- وبمناسبة الستار، لقد جئت خصيصًا لأسألك. ماذا رأيت يا مستر جراي خلف الستار، في مقهى الخمسة وعشرين؟ حين دقت الساعة وأعلنت الدخول في الثاني والثلاثين من ديسمبر، ما الذي تجلى لك؟

***

ويظل السؤال، هل ما تجلى كان حقيقة أم صنعه ذهني الذي بدأت أشعر أن له إرادة خاصة.

"هل تريد أن ترى خلف الستار؟"

هكذا سألني راضي، المعلم الجهنمي صاحب المقهى. وفيما يبدو أن الإجابة كانت تطفو على ملامحي، ذلك التناقض المؤلم الذي كان يعصف برأسي. فبالرغم من خوفي من المجهول، مما يقبع خلف الستار، فإني كنت أتوق للمعرفة، للتلصص خلف الأبواب وبين

الصفحات المنسية، لخطف نظرة لما وراء الحجاب، لعالم الغيب.

رغم أنه لم يعد هناك مقهى ولم تعد الخيمة منصوبة فوقنا، فإني أذكر المشهد المهيب، العالم الموازي الذي كان يتجلى فقط في تلك اللحظات التي تفصل الـ 24 ساعة التي نعرفها عن طول اليوم الحقيقي. عالم هو انعكاس لعالمنا، لكنه مكسو بضوء أزرق باهت. فوقي سماء تعكس أحاسيس عالمنا، وأجرام تشهد على سمونا وسقوطنا. أسفل منه لوحة مصمتة ثلاثية الأبعاد لشوارعنا ومبانينا، لمدننا وأراضينا، لكنها بلا حياة.

سألت راضي في ذهني: أين أنا؟

"الحافة... بين ثنايا الستار".

ثم رأيت الأطياف الواقفة المنتشرة في كل مكان، ينظرون إلى جهة ما.

مَنْ هؤلاء؟

"من غادروا عالمكم غير مكتملين.. من ماتوا غدرا".

إلام ينظرون؟

أجابني: "إليه... إلى شيطان عالمكم، فهو هنا مارد جبار، ادْعُ ربك ألا تراه".

عازف الأقدار؟

"نعم".

ولماذا هم حفاة؟

"إنها الصلة الوحيدة بحياتهم السابقة في عالم البشر... الشعور الذي كان من القوة أن جاء معهم إلى هنا. كانوا يسيرون خلف أمل قبل أن يقطع الطريق عليهم".

التفتُّ ليده الممسكة بطرف الستار، لكنه ظل صامتًا. نظرت أمامي مرة أخرى، وترددت للحظة قبل أن أسأله:

"هل أستطيع أن أرى أخي؟".

سطع نور أمامي في بناية بعيدة، ومضة خافتة في نافذة ما. دققت النظر حتى تأكدت، إنها نافذة غرفة سالم... في عمارتي... المصباح الوحيد في عالم رمادي مضاء بالبصيرة.

أردت أن أركض إليه لكنه نبهني قائلًا:

"أتريد أن تنظر خلف الستار؟".

***

- ما هذا الهراء؟ أهذا ما جئت لتسمعه أيها المايسترو؟ يوم لا ينتهي في مقهى مهجور؟ عالم مُوازٍ وأرواح حفاة؟ هذه هلاوس مخبول.

سأله عازر ليتجاهله المايسترو ويسألني:

- هل قابلت ساكن الكوخ؟

- ومَنْ هذا هو الآخر؟

أصر عازر فتجاهله المايسترو. أطرقت مفكرًا ثم رفعت رأسي

وكذبت:

- لست أذكر.

- لقمان... ماذا رأيت خلف الستار؟

قالها المايسترو وهو يمسك بكتفي فأغمضت عينيّ لأستجمع هدوئي، ثم فتحتهما ونظرت لصورته المهزوزة في الزجاج أمامي لأجيبه:

- الإجابة التي تبحث عنها ليست معي أيها المايسترو، ولن تجدها مع أذكى البشر. لو رأى أحد ما يقبع خلف الستار وعاد ليحكي عنه لفقد الستار معناه. لو حصل أحدنا على الإجابات قبل أن يقوم بتسليم ورقته لفشل الامتحان. الغيب سيظل غيبًا، ولو كنت أنا قد رأيته ليلتها لما عدت به.

ترك المايسترو كتفي وأخرج زفيرًا حارقًا ثم قال محبطًا:

- إذًا... لم تَرَ شيئًا. حتى أنت.

- حتى هذا لا يمكن أن تجزم به. لن تستطيع أن تعرف إن كنت أهذي أم أكذب أم أن ما رأيته قد انمحى بالفعل فور عودتي من خلف الستار.

قلتها بابتسامة واثقة فرأيت المايسترو يتبادل مع عازر نظرة أخيرة، قبل أن يستدير ليغادر وهو يقول بالإنجليزية:

- أنت محق. إذًا أراك في المحطة الأخيرة يا مستر جراي. فك وثاقه.

توقف أمام لوحة عيسى المفرودة على مكتبي والتي رسمها لي على شاطيء البحر. تأملها للحظة ثم أخرج شيئًا من جيبه ووضعه عليها. نظر إليّ مرة أخيرة ثم توجه إلى الباب ومعه ذوو المعاطف السوداء. صاح عازر:

- أستتركه؟ مستحيل! هذا الشخص لا بد أن يختفي من فوق وجه الأرض. أتريد أن تجازف بكل ما بنيته؟

سمعت صوت المايسترو من عند الباب:

- لن يلحق. لقد انتصرنا بالفعل يا عازر، استمتع بنصرك.

غادر المايسترو وتقدم عازر ليفك وثاقي بعنف وهو يستشيط غضبًا.

- أنت تعرف كيف سينتهي الأمر يا لقمان.. بك أنت وهذا المخبول في قبر واحد.

همس بها في أذني كالفحيح قبل أن يخرج من الشقة. وكان أول ما فعلته هو أن هُرعت إلى لوحة عيسى لأتسمر أمامها حين رأيت ما وضعه المايسترو عليها...

عـايـدة

ألم يخبرونا أن الألم يقل بمرور الأيام؟ أن "الإنسان" من "النسيان"؟ لماذا إذن كل هذا الوجع الذي أشعر به؟

أم إن "الإنسان" من "الأُنْس"، من "الصحبة"... التي تركتني.

ذهب عيسى إلى خالقه ولحقت به ماما تيسير ثم اختفى حازم. أخي وحبيبي وأمي الثانية. صرت كما كنت أخشى... وحدي. وتمنيت لحظتها لو كنت بقسوة سليم لقمان.

حتى نهلة، ألقت بنفسها في طاحونة العمل كي تنسى ما يحدث حولها. تحججت بظهور حالات إصابة بفيروس جديد، ربما يكون أخطر من الطاعون، لكني شعرت بالصدوع التي تسبب بها المايسترو في جدار روحها بما يبثه عبر قناته. ولكن الطبيبة "الجدعة" لم تخذلني، اصطحبتني لزيارة عيسى، رغم ما بها من وجع وذبول.

وهكذا، وجدت نفسي أمام مدفنه، أبكيه في صمت. أقف بلا حراك، عيناي متحجرتان، ذاهلتان، في يدي المعول الذي كان يستخدمه مع ماما تيسير، وفي الأخرى كراس رسوماته.

قرأت لأبي ذات مرة في دفتر ناعوت: "أقوى النساء من تبكي في صمت، من نشعر بألمها فقط حين نرى دمعتها تلمع في عينها، ثم تسيل دون أن تشعر".

"على قَدّ البرد بيجي الغطا"، المقولة الشهيرة التي تكاد تضحكني من شدة قسوتها. لو كان الأمر كذلك، لو كان الاختبار يأتي بقوة

الفرد، فأنا أقوى من هرقل. وأنا في حقيقة الأمر أضعف من ورقة جافة أسقطتها رياح الخريف.

أنحنيت لأضع الجاروف الصغير فوق القبر، وأعود لأقف كالتمثال. جاءت نهلة لتقف بجواري، نستند على بعضنا، تمسك ذراعي، لكني لا أشعر بها، كأن جسدي قد انفصل عن شعوري. لا أدري كيف كنت سأتخطى هذه المرحلة في حياتي من دونها، كأن القدر قد قرر تعويضي بها، ولو بقدر ضئيل. ثم نبهتني قائلة:

- عايدة.

رفعت عيني عن القبر والتفتُّ إليها لأجدها تنظر إلى خارج المدفن. هناك كان يقف، في بدلته الكتان الرمادية، ونظارته عديمة العدسات على وجهه الطويل ذي اللحية الشعثاء. كأنه قد نجا لتوه من حادث مروع، جسده هزيل، مُنهك، مثل روحه.

- سليم؟

غمغمت بصوت متهدج، مشاعري تهدد بالفوران، ودموعي تهدد بإغراق الدنيا كلها. تراجعت نهلة، وخرجت من المدفن عابرةً بجواره. همست له بشيء قبل أن تبتعد. لم أشعر بنفسي وأنا أتقدم لأقف عند باب المدفن، كأني أمنعه من الاقتراب من أخي. فوجئت بحزني ينقلب غضبًا وأنا أكرر سؤال المايسترو:

- فين عيسى يا سليم؟

للحظة قبل أن أهتف بنبرة مختلفة وأنا أشير لقبر أخي. أطرق ولم

يجبني.

- مش بتقول إن عندك الإجابات؟ مش طول عمرك بتطارد الفكرة دي؟ مش بتقول إن عقلك وذكاءك هيوصلوك للسر؟ قولّي! انطق! فين أخويا؟؟

كانت دموعي تنهمر بالفعل لتغرق الدنيا، لكني لم أشعر بها. رفع عينيه وقال:

- معرفش يا عايدة. معرفش عيسى فين. معرفش سالم فين. معرفش اللي راحوا راحوا فين.

- وجاي ليه؟ تعزيني؟ شكر الله سعيكم يا سيدي.

قلتها وأنا أبكي بلا حساب وأستدرت لأنظر إلى قبر عيسى. بعد لحظة طويلة سمعته يقول:

- حاولت يا عايدة. رحت لآخر الدنيا. سافرت لعوالم تانية. حاربت شياطين وظلمات. بصيت ورا الستار. وعقلي خذلني. سامحيني.

خرج صوته متهدجًا وبه رعشة لم أعتدها عليه. التفتُّ إليه وتجمدت دموعي، بينما احمر وجهه الأسمر وهو يصارع مشاعره، يحاول الابتسام، لكنها جاءت مهزوزة، طرفاها متذبذبان بين علو البسمة وكسرة البكاء. وجدت نفسي أخرج إليه رغمًا عني، أقترب منه. يقف كُلٌّ منا أمام الآخر، تتشبث عيوننا ببعضها، نتشارك الألم. عيناي داميتان وعيناه متلألئتان.

لقد تغير... مستر جراي بدأ يكتسب لونًا. وكان لا بد أن تحترق

الدنيا وينهار كل شيء كي يفعل. يا لها من رحلة يا سليم. قلتها في ذهني... فابتسم بصدق، ابتسامة حانية، ابتسامة لكلينا.

شيء ما لفت انتباهي، شيء يمسكه في يُمناه. إنه طوق. طوق كلب أرى بوضوح الاسم المنقوش عليه: "أليس".

ذابت ابتسامته دفعة واحدة، ونظر حوله، باحثًا عن شيء ما. وقبل أن أفيق من غرابة ما يفعل همس:

- سامعة؟

ثم التفت بغتةً إلى بوابة المقبرة الملاصقة لمدفن عيسى. تقدم ليمسك بقضبان البوابة ويدفس رأسه بينها. اقتربت. هناك صوت بالفعل.

أنين...

التفتُّ لأتبادل نظرة جزع مع نهلة، لأجدها تهز رأسها مؤيدة ما سمعته. ثم لمحنا خفيرًا يمد الخطى في اتجاه إحدى الجنازات التي كانت تُودع فقيدها إلى مثواه الأخير. نادى سليم عليه فجاء مسرعًا مستبشرًا ببقشيش كبير.

- عندك مفتاح المدفن ده؟

ذابت ابتسامته وأجابه في توجس:

- إنت تقرب للميت اللي جوة؟

- قريب إيه؟ اسمع. في حد مدفون تحت، فيه حد مدفون صاحي.

- يا نهارا!

قالها الخفير العجوز، واقترب ليسمع الأنين الحيواني الخافت الذي يخرج من أسفل حجارة القبر، تلك التي تسد السلالم المؤدية للأسفل. لمحت فتحة صغيرة للغاية بين الحجارة يخرج منها الصوت الضعيف.

- ده فيه كلب تحت بجد. طب ازاي؟

قالها الخفير وذهب لينادي مساعديه وأقاربه من عند الجنازة الأخرى، ولم تمر دقائق وكان باب المقبرة قد انفتح عنوة.

وقفنا جميعًا نحدق بالحجارة التي تغطي السلالم. حتى أفراد الجنازة الأخرى وغيرهم من سكان المقابر وأهالي المنطقة المحيطة، الكل كان يتابعني وأنا جالسة على ركبتيّ أكلم أليس. حاول اثنان من عمال المقابر رفع الحجارة دون أن يقع التراب على المسكينة ويخنقها، لكنها كانت ثقيلة ومتماسكة. أطلقت أليس أنينها الواهن كأنه تتوسل إليَّ أن أنقذها، لكنه خرج أضعف مع مرور الدقائق.

- خلوا بالكم، هتتخنق! دي تحت الحجارة على طول، لو وقعت هتفرمها.

هكذا صاح سليم في عمال المقابر وما إن فعل حتى انكسر جزء من الحجر ومال فوق أليس لتصرخ من الألم. ظهر طرف أنفها أسفل الحجر، وفمها المفتوح عن آخره لا يكاد يخرج منه الصريخ الضعيف.

ساد الهرج والمرج وتراجعت أنا للوراء مذهولةً من قسوة ما

يحدث، بينما أدخل سليم ذراعه فوق أليس ليمنع عنها ثقل الحجر وهو يصيح بهم أن يتوقفوا. حاولوا رفع الحجر الثقيل بكل الحيل. جاءوا بعصي، بقضيب معدني، بحبال، بأدوات هدم وبناء، لكنها كانت تجعل من الموقف أسوأ. أخرجت معول عيسى وبدأت أزيح التراب من حول الحجارة كي لا يسقط فوق رأس أليس ويخنقها. صرخت نهلة في الناس أن يستخدموا ما معهم من زجاجات مياه وانكبت معهم تحاول أن تسقي الكلبة المذعورة. جاء البعض بلقيمات من أطعمة مختلفة وأعطوها لنهلة كي تُدخلها من الفتحة التي يظهر منها أنف أليس. لكنها كانت أكثر ذعرًا من أن تأكل، فقط المياه. رغم كل هذا لكن النتيجة الحتمية كانت واضحة للجميع.

وبعد أن تلاشى الأمل، بعد أن خَفت أنينها، بعد أن يَـئِس الجميع وانقطعت الحيل... ظهر هو...

عملاق يسير بين الحشود ببطء، يزيحهم من طريقه وهو يعلو فوقهم بعشرات السنتيمترات، حتى بلغ الفتحة.

دون أن يتكلم، دفع العمال برفق ليبتعدوا. ضرب بأصابعه حول الأحجار ليغرسها في الأرض القاسية، كما لو كانت صلصالًا لَيِّنًا.

رأيت حِجّي، بملابسه المزركشة المزعجة، خارج المدفن وحوله العشرات من رجال الشرطة.

نظر حازم إليّ، فتسمرت مكاني محدقةً به، ثم نظر إلى معول أمه الذي أمسكه. عض على فكيه محاولًا السيطرة على مشاعره، ثم التفت إلى الصخرة التي تتشبث بها الأرض كأنها معشوقتها. رمى

حِجّي بنظرة خاطفة فوجده يشير لرجال الشرطة أن يبقوا بعيدًا، أحاطوا بالمكان لكن دون التدخل. أومأ حِجّي بعدها لحازم أن يكمل ما جاء ليفعله.

يُغمض حازم عينيه، ويضغط على الحجر من الجانبين، محاولًا تحريره من قبضة الأرض. عاد الأمل مرةً أخرى وعادت المحاولات. من يزيح التراب معي ومن يُسقي أليس ماءً ومن يعين حازم على زحزحة الحجارة ومن يبكي ويدعو في صمت.

ثم... اختفت الأصوات من حولنا، وتحول المشهد إلى تصوير بالبطيء لملحمة إنسانية لا تستطيع الكلمات أن توفيها حقها.

عشرات من البشر ملتفون حول كلبة تُحتضَر، يحاولون بكل الوسائل إنقاذها. هذا هو ما كان ظاهرًا على السطح. أما الواقع، أما حقيقته، أما ما هو أعمق من هذا، فقد كان شيئًا آخر.

من منا لا يتمنى أن يعيد الزمن نفسه ليصلح ما أخطأ؟ لينقذ من خسر؟

لم أكن أزيح التراب من فوق أليس، بل من فوق أخي.

لم يكن سليم يمسك بكف أليس، بل بيد سالم كي لا تسقط وتغادره الحياة.

لم يكن حازم يرفع الحجر الذي يزن طُنًا، بل كان يحمل مرض أمه.

وكذلك كان حال كل الموجودين، على اختلاف طبقاتهم وألوانهم وأعمارهم.

ما رأيته هم أناس يحاولون إنقاذ أنفسهم، إنقاذ كل ما خسروه... ومن خسروه.

رأيتهم أرواحًا فقط، متصلة عند روح واحدة، تطوف حولها، تتشبث بها... روح أليس.

لقد جمعتنا كلبة سالم.

نظرت حولي، في وجوههم جميعًا، دموع تسيل على كل الوجوه.

وفي اللحظة التي رأيت المشاعر الجياشة التي عصفت بالمكان حتى طغت على الموجودات كلها، حتى صرخت بها الأرض والجدران، وبكى معها الحجر، وكأن تلك الأحاسيس المتفجرة بلا حساب ولا مقاومة قد ضاعفت قوته.

حينها فقط... رفع حازم الحجر.

وخرجت أليس.

حازم

لم أستطع أن أقف متفرجًا، ليس بعد الدرس الذي علمني إياه البطل الخارق الحقيقي في حياتي... أمي.

تراجعت تاركًا لهم المجال ليُخرجوا الكلبة، جلد على عظم، وبها إصابات عديدة. تراجعت لأني لا أستطيع أن أتعامل في مثل هذه المواقف، ولا المشاركة فيها. تراجعت لأنني لا أستطيع أن أصف المشاعر التي امتزجت مع الزغاريد، مع عبارات التهنئة والشكر لله ثم لي. لكني لم أتعجب من تمكني من رفع ثلاثة أحجار ملتصقة معًا بالأرض، الواحد منها يزن نصف طن، والسبب...

قد أفهمني إياه المخبول الذي يريد حرق العالم.

قال إن الأشياء أصبحت تشعر بنا، وتختزن الوجع، حتى فاض الكيل بها، وكلما زادت حدة المشاعر، زادت استجابتها لمن سمعها، كأنها تكافئه. تستسلم الأشياء أمام قوتي، تنكشف الألغاز أمام سليم، تنجذب لحنان عايدة وبراءة عيسى.

- حازم!

هكذا نادتني وأنا على باب المدفن، أسير بين الناس الذين كانوا يُربِّتون على كتفي ويدعون لي. التفتُّ إليها ببطء لأجدها تخترق الصفوف إليَّ. أطرقت للحظة، قبل أن أرفع عينيَّ لأواجه الشخص الوحيد المتبقي على قيد الحياة الذي لا زلت أخشاه.

- ماشي تاني؟

- الدنيا كلها بتدور عليا.

- وأنا كمان بدوَّر عليك.

أدرت رأسي لأنظر ورائي، وفعلت عايدة مثلي، لنجد حِجّي ينتظرني مع العشرات من رجال الشرطة. عبرت بجواري، لتصيح فيهم:

- عايزين إيه؟ محدش هياخد حازم!

- لا يا عايدة. سيبيني أروح معاهم. أنا تعبت.

قلتها وأنا أستدير لأمسك رأسها بين كفيّ الهائلتين ناظرًا في عينيها.

- كل اللي عايزه إنك تسامحيني.

- أنا مسامحاك والله. عارفة إنه كان غصب عنك.

- مش على بُعدي عنك في أصعب لحظات حياتك بس. عن كل اللي عملته يا عايدة. سامحيني على القسوة اللي عاملت بيها الناس، على الغضب اللي سِبتُه ينهش في صدري، على الكفر بالمبادئ واليأس من رحمة ربنا. سامحيني إنتي لأن أمي ماتت من غير ما تسامحني.

حاولت أن تكذب عليّ، وتخبرني أن أمي قد غفرت لي، لكنها لم تستطع. أمسَكَت كفي بأناملها الرقيقة وأغمضت عينيها لتسيل دموعها وتبلل يديّ. مسحت الدمعة وسحبت يدي لأتجه إلى حِجّي، الذي أشار لرجال الشرطة المحيطين بالمكان كي يفسحوا لي الطريق إلى مؤخرة السيارة المصفحة. صعدت وتركتهم يقيدون معصمي

وساقيّ بالأصفاد، ثم أغلقوا الباب المصفح. لمحت من بين قضبانه سليم لقمان الذي خرج لتوه من المدفن حاملًا كلبة شقيقه، غارقًا في التراب والعرق، يومئ برأسه لي بالشكر فبادلته بواحدة مثلها.

***

جلست في زنزانتي الدائرية ضعيفة الإضاءة، في دهاليز سجن ذي حراسة قصوى، بطابق سفلي مخصص لي وحدي. يبعد أقرب سجين عني طول دهليز كامل مظلم، ويبعد أقرب صديق عني آلاف الدهاليز. سلاسل غليظة تقيد ساعديّ وساقيّ، سلاسل سوداء باردة تصلني بالجدار الخرساني، وتكفي بالكاد كي أمد يدي لألتقط صينية الطعام الورقية. فرقة من ستة حراس غلاظ مدربين على أعلى مستوى، كنت أرى رعشة أياديهم وهم يتقدمون في طابور تكتيكي، ليضعوا لي الصينية، وذلك الوعاء الورقي الذي أقضي فيه حاجتي كالبهائم. لا يرون أمامهم مسجونًا مسلسلًا بأصفاد يمكنها منع مارد من الحركة، لا يرون سوى ذلك البشري الذي كسر أبوابًا من فولاذ، من رفع حجرًا يزن طنًا ولوى بيديه العاريتين قضبانًا حديدية.

لا يرون سوى وحش ساكن، لا يعرفون ما يدور بخلده، ولا متى يستيقظ البركان الخامد بداخله مرةً أخرى. وهذا هو شعوري بالضبط، كأني حيوان ضارٍ سجنوه ونسوه، فنسيَ آدميته. لكنهم لا يعرفون أن البركان بداخلي قد انطفأ، وخفتت الجذوة حتى تلاشت كل رغبة في الحياة.

كنت أرفع عينيّ إليهم ببطء، كلما جاءوا إليّ، لأنظر في أرواحهم

فأرى ذعرهم، وينظرون في روحي، فلا يجدونها. فقد ذهبت بلا عودة. جزءٌ منها ذهب مع رجب، وجزء أكبر مات مع منعم، والباقي كله دُفن مع أمي.

لم يبقَ شيءٌ لأحد...

فقط طيف باهت لامرأة ذات شعر بُني ثائر، وعينين خضراوين كالمروج، خيط ضعيف يكاد أن ينقطع، يصل بيني وبين عالم البشر. خيط يذكِّرني بمن كان السبب في كل هذا، يذكرني أنه لا يزال هناك، حرًّا طليقًا.

وأنه قد هزم الجميع...

وأنا أولهم.

سليم

من ظل يقاوم مشاعره، من ظل يبارزها فينتصر عليها أحيانًا، ويهرب منها أحيانًا أخرى، يكون سقوطه مريعًا، جميلًا، بلا عيوب... ولا فرصة للنجاة.

وقفت أمامها، بلا دروع، أحاول الابتسام. معدل ذكاء 147؟ هراء! فأنا أغبى من شجرة. كيف فشلت في تقدير الكنز الذي أهدتني إياه الدنيا؟ والآن، فات الأوان. اكتشف لتوّي أن دوري في هذه الدنيا ليس الوقوع في الحب، بل شيءٌ آخر.

الزمن، قاسٍ. الفرصة اللاحقة لا تكون أبدًا مثل الأولى، فالفرصة الأولى مذاقها مختلف، وقعها وتأثيرها وذكراها حين ترحل... لا يتكرر.

أنا الوحيد هنا، الفريد، الغريب. ولست أنتِ يا عايدة.

***

بعد الكثير من العناق والأحضان والنُّباح الهستيري السعيد لإنقاذها، أخذت أليس لأقرب عيادة بيطرية. أودعتها هناك واطمأننت عليها، قبل أن أخرج لأجلس في سيارة حِجّي، الذي لازمني مثل ظلي. لم يخبرني إلى أين نذهب، ولم أسأله. لكن ما إن تحرك بالسيارة، حتى بدأ الذعر يتملكني، مع كمية الأحاسيس التي انهالت عليَّ بعد طول غياب، كأن الصحراء بداخلي قد فُتِحَ سد نهرها، ففاض بكل عنفوانه ليغرق أرضها الظمآنة.

صحت في حِجّي أن يتوقف عند أول صيدلية ليأتيني بدوائي، درعي الذي يحميني من كل هذا، لكنه طلب مني الصمود. سببته ونَعتُّه بالحمق والغباء، لكنه لم يهتم. قال لي إنها رحلة لا تقلُّ وحشة عن التخلص من إدمان الهيروين.

همس مكررًا:

- أنا معاك... أنا معاك.

كنت أعلم أنه على حق، لكنه كان تحدي أقوى مما أتخيل. أول شيء فعله هو أن أخرج نظارة سالم عديمة العدسات من جيبي، وأعطاني إياها. ارتديتها شارد الذهن، فلم أكن منتبهًا إليه، بل إلى تلك الأصوات التي انهالت على سمعي كالمطارق.

نغمة كئيبة من التنهيدات والآهات.

عاصفة من الأحاسيس، تثاءبت مستيقظة من سُباتٍ عميق، المشاعر التي أكرهها، وأكره نفسي حين أمرُّ بها. براعم من الندم، الغيرة، القلق، الشوق، الحماس، الحنق، الكبرياء، والحزن... تمتزج جميعًا في شكل هلامي لم يستقر على هيئة بعد.

مرت أمامي الأماكن والعمارات والميادين، كأنها واجهات دكاكين، فترينات تعرض مشاعر مدفونة، وأقرؤها واضحة على سطح جماد أصم يتوق لمن يسمعه.

محطة النقل العام تلك، مقبرة الأحاسيس. أراها هكذا، أسمعها هكذا، أفهمها هكذا. وداع، حسرة، يأس، تَمنٍّ... مشاعر تكررت أمامها

حتى امتلأ كوبها.

هذه البناية القديمة، نوافذها جفون تنسدل حزنًا، جدرانها صدور يضيق بها من يرقد خلفها... صامتًا.

وتلك الشجرة المنهكة التي يرتكن عليها عمود ويحتكُّ بها سور، تكاد تمد فروعها إليّ مستنجدة. كم مر بها باكٍ وجلس تحتها مكلوم.

عيناي جاحظتان، تعبير بالذهول على وجهي، قلبي يدق بأضعاف سرعته، يدي متشبثة بباب السيارة، وأظفاري تكاد تخترق معدنه.

الظمأ يزداد، أحاسيسي كذلك، ومعهما يزداد الجنون.

ما هذا الذي أسمعه؟

ما هذا الذي أراه؟

تلك الخيالات التي ألمحها تمر بجوارنا ونحن نتحرك بالسيارة، أشياء تطير، ذوات أجنحة شفافة بعضها بيضاء كالسحاب المنقشع أو سوداء مظلمة كدخان البوارج. أحيانًا أشعر أن لها وجوهًا وأذرعًا، تحلق عاليًا وتطوف فوق المدينة، قبل أن تغوص منخفضةً لتلتصق بشخص يكاد أن ينهار من الحزن. تحتضنه دون أن يشعر بها، رغم أنه لا يبكي أمام الناس لكنها تبكي معه، ترفع رأسها لتصرخ في ألم، تصرخ بما فيه من ألم.

انتبهت إلى الأحذية والنعال المتراصة على الأرصفة وأمام العمارات، أعدادها صارت أضعافًا، يراها من يمر بها ولا ينتبه إليها سواي. لكن في هذه المرة أكاد أقسم أني أرى الحواف الخارجية

لأطياف بشر يقفون وأقدامهم في تلك النعال. يقفون بلا حراك، نظراتهم لا تحيد عن هدفها.

حيوات غير مكتملة.

وهذا الشيء الذي يتساقط في كل مكان، هو نفسه ما كنت أراه منذ سنين طويلة كلما ارتديت نظارة سالم، كأنه أمطار سوداء. شعرت أن بإمكاني مد يدي ولمسه.. ترددت للحظة ونظرت إلى حِجِّي لأرى إن كان يراقبني، ويرى حالتي التي شارفت على الجنون، فوجدته يهز رأسه ويرفع حاجبيه الرفيعين كأنه يشجعني.

- هو أنا بحلم ولَّا دي آثار انسحاب الأدوية؟ تلاتين سنة طبيب عمري ما شفت أعراض كدا. أنا اتجننت يا حِجِّي؟

لم يجبني، بل أبطأ السيارة، ثم أومأ برأسه لأنظر خارج السيارة. مددت يدي وفردت كفي لأستقبل تلك الأشياء السوداء التي تقع من السماء. متوجسًا من الاكتشاف الذي ينتظرني بعد أعوام من الحيرة والتساؤلات.. سحبت يدي أكثر من مرة قبل أن يستقر عليها ذلك الشيء.

- هو حقيقي ولَّا في عقلي بس؟

أوقف السيارة تمامًا حتى يتسنى لي التقاط السواد المتساقط، يساعدني دون أن يقولها.

- إشمعنى بتساعدني دلوقتي بعد ما كنت بتقول إنها مش شغلتك؟

- أنا مش بساعد حد.

- لأ بتساعد. ساعدتني عند قهوة الخمسة وعشرين وساعدتني لما كنت بتجيبلي القضايا الغريبة. ساعدت حازم إنه يبقى في وحدة منعم الكاشف، مش عارف إزاي، رغم إن مساعد الوزير نفسه ميعرفش مين اللي وراك. ودلوقتي بتساعدني أهوه.

- ماليش دعوة إنت شايفها ازاي. دي مش شغلتي.

قالها وهو يهز كتفيه الرفيعتين ورأسه معهما، كأنه طفل مدلل يرفض تناول طعامه. لكنه ظل ناظرًا إليّ، ينتظر. شعرت بشيء يستقر على كفّي المنسية خارج النافذة. التفتُّ لأرى نقطة سوداء بين إبهامي وسبابتي، دافئة. فركتها بفضول، وقربتها من أنفي، فذابت بين أصابعي ولطخت يدي بالسواد.

- ده.. رماد؟

لم تأتني إجابة من حِجّي، فالتفتُّ لأجد ابتسامته حزينة، منكسرة، كأنني ذكّرته بجرح قديم. مد يده بعدها ليشعل محرك السيارة وينطلق بها. نظرت للسماء لعلي أرى ما يحترق. زادت ابتسامته عرضًا وذهب عنها الحزن. كنا قد وصلنا للمديرية ونزل من السيارة ليدور حولها ويفتح لي الباب. تأملته وهو يمشي بملابسه المزركشة المثيرة للسخرية، ويديه المحلقتين بجواره، كأن هناك عضلات خفية تمنعها من الالتصاق بجسده.

- إحنا جايين هنا ليه؟

لم يجبني ولم ألحّ في السؤال. تركته يعينني على الوقوف، ثم أشرت له أن يتركني أسير وحدي. هذا الدق المستمر، لا يخفت، بل

يصبح أكثر وضوحًا، وهو قادم من الأرض. هذه الطرقات قادمة من تحت الأسفلت، ضربات أحسست بها في قدمي، إرادات تريد أن تتحرر، نبضات شعرت بها في كياني.

كأن الأرض نفسها قد صار لها قلب يخفق.

نظرت إلى حجي وترنحت كطفل تعلم لتوّه المشي، ويخشى الوقوع. كرر وهو يمسك ذراعي:

- بالراحة. أنا معاك.

عادت النبضات المكتومة لتدق باطن قدمي، فسَرَتْ قشعريرة قوية في جسدي، شعور بالدفء بعد البقاء في العراء قارص البرودة.

سرت خلف حِجّي داخل المديرية. لو كان ما أسمعه وأشعر به هو ما اختزنه الجماد من آلام، فما تفسير هذا الرماد؟

هل كان سالم يرى العالم يحترق؟

توقفت للحظة، وأغمضت عيني ألمًا، كأن كل أوجاع أخي قد تسللت إلى جسدي دفعة واحدة. نزعت النظارة بعنف، وكدت أسحقها بين أصابعي. سرت رعشة في عظامي، رعدة خوف من المستقبل المجهول. اعتصرت ذهني لأحثه أن ينظر خلف الستار، لأجعله يفهم.

المايسترو... هل هو على حق؟

أفقت على يد حِجّي حين أمسك بي ليعيدني للواقع. رفعت عيني لأحدق مباشرةً في وجهه الرفيع المبتسم وهو يقول:

- استناني هنا.

- إحنا رايحين فين؟

- هظبَّط الدنيا جوة وابعت حد يجيبك. سواء إنت مستعد ولَّا لأ يا مستر جراي، الخيوط كلها وصلت ببعض... والوقت خلص.

عايـدة

دون لحظة تردد، صممت نهلة اصطحابي إلى مديرية الأمن حين قررت الذهاب خلف حازم. ظلت صامتة، عكس طبيعتها، وكذلك كنت أنا، هاربتان إلى عالم آخر، عالم بلا مايسترو ولا فراق ولا ألم. غمغمت نهلة بأن كل شيء مآله الرحيل، أن هناك أمرًا قادمًا سيقضي على كل شيء. ازداد شرودي، بعد أن أضاف تعليق نهلة فوقه طبقات أخرى من الغيوم.

هل نقترب بالفعل من حدث جلل ما؟ نهاية العالم؟ كم كان لهذه الفكرة وقع جميل. لكن لا، اصمدي يا فتاة، من أجل آخر من بقي لكِ في هذه الدنيا، من أجل حازم.

كنا قد بلغنا المديرية، فقامت بإيقاف سيارتها في الجراج المخصص لها، لاحظت سكوتها، فنظرت إليها وقلت:

- من ساعة فيديو البنت السمرا وانت متغيرة. أوعي تتكسري يا نهلة. أي حد ممكن يقع في الفخ ده إلا انتي.

تخشبت يدها على المقود وهي تقول، ليس لي، بل كانت تكلم نفسها:

- صوته بقى عالي قوي، وكلامه... أنا نَفسي ابتديت أقتنع بيه.

أنهت كلامها وشخصت ببصرها بعيدًا. انتظرت أن تعود من شرودها لكنه طال، فتجرأت ورميتها بظنوني:

- إنتي عارفة بتفكريني بمين يا نهلة؟

- مين إن شاء اللـه؟

- بهالة صدقي في مسلسل "حسن أرابيسك".

حدقت في عينيّ وانعقد لسانها، وهذا كان كفيلًا ليؤكد نظريتي، فليس أقل من حب حقيقي هو القادر على لجم لسان جنرال حربي مثل نهلة.

- سليم يعرف؟

سألتها بصوت خفيض، قبل أن ألاحظ لمعةً في عينيها واحمرارًا في طرف أنفها. اختلجت جفونها واختنق صوتها وهي تقاوم:

- يعرف إيه؟ إنتي هبلة باينِّك. يخربيت المسلسلات اللي لحست لكم دماغكم.

- واتعصبتي ليه؟

- أنا مش متنيلة متعصبة. واتفضلي يالّا نغور ندخل المديرية.

ثم نزلت من السيارة وأغلقت بابها بكل عنف.

***

وقفت في الصالة الواسعة مرتفعة السقف بمدخل مديرية الأمن، بينما كانت نهلة تحاول أن تجعل الضابط النبطشي في الاستقبال يسمح لنا بمقابلة مساعد الوزير. سخر منا هو وزملاؤه، خصوصًا وأن السبب الذي أخبرته به كان "أننا جزء من وحدة الرائد حِجِّي المعنية بالبحث عن المايسترو"، مشيرةً إلى الرسمة الكروكي لوجه عازف

الأقدار باللون الأبيض والأسود المعلقة خلفه. ازدادت سخريته منا ومن حِجّي حتى فوجئ بزئير نهلة. رجّ صوتها القاعة واحتقن وجهها المنتفخ بطبيعته، ثم جحظت عيناها خلف نظارتها الضخمة، فتراجع الضابط عن موقفه. تردد للحظة قبل أن تبادره نهلة بـ "وبعدين؟"، كأنها أم تؤنب ابنها، فحسم تردده وطلب مكتب مساعد الوزير ليخبره بوجودنا.

- اللوا المشدّ على وصول، قصاده دقايق.

قالها وهو يضع السماعة، فنظرت نهلة إليّ بابتسامة لا يمكن لأحد أن يصنعها سواها: مزيج من النصر ونفاد الصبر. لكنها ما لبثت أن مسحت كل هذا لتستبدل به الحيرة التامة. فأنا لم أكن منتبهة لما يحدث بينها وبين الضباط، بل كان كل تركيزي مع هذا الصوت الذي رنّ في أذني كفحيح الحية.

- لسه مش عايزة تستسلمي؟

شعرت بالدم يصعد لرأسي، وبخدر يصيب أطرافي، فأسرعت نهلة لتعينني على الوقوف وهي تسألني عما أصابني. كان جسدي كله يرتعش وأنا أستدير ببطء شديد لمن كان يجلس في هدوء على الأريكة الخشبية في صالة الاستقبال. يرتدي بدلة كتان بيضاء، لا يلفت لنفسه الانتباه، ولا يتفاعل مع أحد، فقط كان يجلس واضعًا ساقًا فوق الأخرى، ويحدق بورقة في يده عليها رسم كروكي لوجه يشبهه. لم يرفع رأسه، بل قال بصوت هادئ عميق، صوت لا يمكن أنساه:

- شاطر الرسام. رسمني كويس.

كانت تلك هي اللحظة التي ظهر فيها اللواء المشدّ عند الباب الرئيسي، يسير بخطوات سريعة، ما لبثت حتى تباطأت حين رأى الذعر الذي ارتسم على وجهي. نقل بصره إلى من كانت عيناي الجاحظتان ملتصقتين به، ذلك السبعيني طويل القامة ذو الشعر الفضي الطويل المعقوص خلف رأسه، والذي يجلس بكل سكينة في قلب مديرية الأمن.

تسمَّر اللواء المشد، فتجمَّد المشهد كله في الاستقبال، والتقت الأنظار عليه، ثم على من كان يحدق به بكل تركيز. رمى المشدّ الرسمة الكروكي التي يمسك بها الغريب بنظرة خاطفة، ثم بهدوء وحنكة قائد حربي، أشار لضباطه أن يحيطوا بالضيف المريب. اقترب منه ليقف أمامه، فحول الغريب عينيه عني ليتبادل مع اللواء المشدّ نظرة طويلة، أنهاها الأخير قائلًا:

- أهلًا بالمايسترو.

هنا توقف الزمن... وانهار المنطق.

***

- عايزة مهدئ؟ معايا علبة من اللي كان بياخدها سليم في شنطتي.

هكذا قالت لي نهلة ونحن جالستان في الغرفة العملاقة الملحقة بمكتب اللواء المشدّ، محاطتين بنصف دستة ضباط. كنت أهز ساقي في توتر، وأبرم خصلات شعري الملتوية حول أصابعي بعصبية، حتى

كدت أن أنتزعها من جذورها.

- لا يا نهلة، قلتلك لا!

ربّتت على ساقي في تفهُّم و"جدعنة"، قبل أن تعقد ذراعيها أمام صدرها وتفرد جذعها في وضع الحماية.

- معلش؟ اعذريني. عارفة إنك عايزة تحميني بس أنا وعدت عيسى إني مش هتغير. والمهدئات دي بتشوه الشخصية يا نهلة، أخدها عمَّال على بطّال بيخلي الواحد زي الزومبي، بدون إحساس. وأنا لازم أحس يا نهلة، دوري في الحياة كدا، لأن مفيش حد عايز يعمله.

قلتها بمشاعر جياشة وصوت متهدج منهك. اختلجت ملامحها لجزء من الثانية في محاولة منها لاحتواء مشاعرها خلف تعبير وجهها الصارم، قبل أن تدير وجهها لتنظر بعيدًا. في اللحظة نفسها خرج اللواء الشناوي، وقد تجلى الغضب بأقوى صوره على ملامحه، مما جعل وجهه الدائري اللحيم يحتقن، حتى صار كثمرة الرمان. ولجزء من الثانية لمحت خلفه المشهد المثير داخل غرفة اللواء المشدّ.

وقف المايسترو أمام طاولة الاجتماعات الطويلة، مقيد المعصمين، موليًا ظهره لي. إلى يمينه وقف حِجّي وإلى يساره وقف رجل أصلع في زي مدني متوسط الطول عريض المنكبين بطريق لافتة. جلس مساعد الوزير على كرسيه في طرف مائدة طويلة، دق بقلمه على الملف الراقد أمامه، بجواره شاشة عريضة ظهر عليها وجه امرأة

قوقازية حمراء الشعر، توجه كلامها للمايسترو بتعبيرات وجه صارمة.

لكنه تجاهلها بكل هدوء... والتفت لي.

ها هو ذا أمامي... سفير الموت واليأس والدمار. كنت قد رسمت ملامحه في ذهني من قبل. أعانتني عليها الرسمة الكروكي التي وصفتها العجوز العمياء، وأعانني عليها حدسي وصوته في أذني حين التقينا أول مرة وحين هاتفني. وقد وجدت الصورة التي رسمتها في خيالي شديدة الشبه بما أراه الآن.

طويل القامة رغم انحناء ظهره، وسيم رغم سنه، هادئ الملامح رغم الجحيم المستعر بداخله. أنف مُدبَّب وفم تحده غمازتان رغم عبوسه. عينان عميقتان، عاقدًا أصابعه أمام وسطه. شعره فضي أقرب للبياض، ناعم طويل، لحيته الخفيفة أنيقة، تتناسق في لونها مع البدلة البيضاء التي يرتديها.

أشار اللواء المشدّ ناحيتي، فاستدار حِجّي وتوجه إلى الباب كي يغلقه ويخرج إلينا.

- جابولكم حاجة تشربوها؟

وقالها موجهًا كلامه إلى نهلة بالطبع، والتي أجابته باشمئزازها المعتاد:

- هو إحنا في كازينو؟ قولّنا يا جحا بيه إيه اللي هيحصل دلوقتي؟ أظن دور آنسة عايدة انتهى.

- حِجِّي يا دكتورة.. حِجِّي باشا. والحقيقة... دور آنسة عايدة لسه هيبتدي.

قالها ناظرًا إليّ فبادرته نهلة بعنف:

- هو إيه أصله ده؟ مش مسكتوا المايسترو المجنون؟ إحنا جايين نطمن على حازم ونمشي.

أخذ شهيقًا عميقًا وقَطّب حاجبيه مفكرًا قبل أن يقول:

- المايسترو سلم نفسه، ده صحيح، والسبب اللي قاله إن اللي كانوا بيساعدوه اتقلبوا ضده. اللواء الشناوي مصدقه وشايف زيك كدا يا دكتورتنا، إن القضية خلصت. بس اللواء المشدّ شايف إن المايسترو في حاجة تانية في دماغه. بيقول إنه بالعكس، كل مدى بتزيد شعبيته ومريدينه وأتباعه بيتضاعفوا في كل لحظة في كل حتة في العالم ومش منطقي إنه يستسلم وهو في قمة قوته. وعلشان كدا لسه هنحتاجك معانا.

- ممكن أفهم ليه؟

كان سؤالي أنا هذه المرة، وليس نهلة، لكن باب مكتب اللواء الذي انفتح منعه من الإجابة. التفتنا جميعًا لذلك الذي خرج مكبل اليدين، مصحوبًا بضابطين ملثمين من القوات الخاصة. وقفا به عند باب المكتب يمسك أحدهما بذراع المايسترو، بينما يتلقى الآخر الأوامر من اللواء المشدّ. تفاديت النظر إليه، لكنني سمعته يقول:

- عُمْر سليم ما هيبص لك، شوفي الفرق بينك وبينها.

مصعوقة، رفعت عيني لأجده يكلم نهلة وهو يومئ ناحيتي، يبتسم لجزء من الثانية قبل أن يعبس ويقول وهم يجرونه ليخرجوا به من الغرفة الملحقة بالمكتب حيث نجلس:

- آسف.. حقيقي آسف. بس الدنيا مش "فير" يا دكتورة.

نظرت لنهلة لأجد وجهها قد ابيضّ، وارتعشت يدها الممسكة بحقيبتها وهي تضمها إلى صدرها. تتفادى النظر إليَّ وتطأطئ رأسها، لأول مرة أراها تفعل ذلك، لأول مرة أراها منكسرة. أمسكت يدها وقلت:

- إوعي تسمعي كلامه يا نهلة. إنتي أجمل واحدة في الدنيا.

ضحكت وبكت في نفس الوقت، وقالت وهي تنزع يدها من أسفل كفي:

- يا شيخة إتلهي. ده أنا أوحش من البت السمراء.

- مش باللون ولا الملامح يا نهلة، والله عمرها ما كانت بالشكل.

ابتسمت من بين دموعها وهي تحاول النهوض، وشعرت أن كلماتي تزيد من سوء الموقف. خصوصًا أن ساقيها خاناتها وسقطت على مؤخرتها على الأريكة حين لمحت من وصل لتوِّه ليقف أمام الغرفة، في نفس اللحظة التي خرج فيها عازف الأقدار: مستر جراي، "حسن أرابيسك" الخاص بها.

سليم

حالة استنفار محمومة قلبت المديرية سببها الإمساك بالمجرم الذي كان يطارده العالم كله.

لماذا؟ تساءلت مصعوقًا حين فهمت من يقصدون. لماذا استسلم وهو قابَ قوسين من الجلوس على عرش الجماجم والعظام الذي سيخلفهم في صحوته؟

أرسل حِجّي ضابطًا ليقودني عبر ممرات وطوابق مديرية الأمن. كنت كأنني في فقاعة عازلة للصوت ومشوشة للصورة، منفصلًا تمامًا عن الواقع، أرى أشياء لا يرونها وأسمع ما لا تلتقطه آذانهم. كنت أشعر أني أقترب منها.. ومنه.

ثم رأيته أمامي... المايسترو، أنا في الممر وهو في الغرفة، مكبل المعصمين، نتبادل النظرات. أومأ برأسه لي ووضع يده على صدره محييًا، يده التي استند بها على باب شقة عايدة بينما كنت أفعل مثله من الداخل، لحظة الاتصال الأولى بيننا. جذبني الضابط الذي كان يقودني لنفسح الطريق للضابطين الملثمين كي يخرجا به ويسلكا الممر الذي جئت منه. طفقت أتابعه حتى ولج إلى المصعد. التفت لينظر إليّ مرةً أخيرة، لينغلق باب المصعد عليه وهو يبتسم.

التصقت عيناي بالمصعد للحظة ثم انتبهت للغرفة الواسعة التي وقفنا ببابها. نظرت لأجد عايدة ونهلة تبحلقان بي، ابتسمت لهما لكنهما لم تبادلاني بمثلها، وشعرت بخَطْب ما. ثم تفادتا النظر إليّ فقطبت حاجبيّ متعجبًا، لكنها كانت لحظة خاطفة قبل أن أجد

نفسي في مكتب اللواء المشدّ.

- دكتور سليم لقمان. "مستر جراي".

هكذا عرَّفني حِجِّي بضابطة الإنتربول حمراء الشعر رفيعة المستوى، التي تواصلت معنا عبر إحدى الشاشات المتراصة بطول الجدار بموازاة المائدة الطويلة. على الشاشة كان أيضًا هناك نقل حيّ ثابت لغرفة في قبو ما بها صندوق معدني عليه حرف "G". على رأس المائدة جلس اللواء المشدّ، الذي قال مشيرًا إلى الكرسي المقابل له:

- اتفضل يا دكتور. سيبنا أنت حِجِّي.

دخل ورائي اللواء الشناوي، فرمقته بنظرة خاطفة لأجده يحدق بي بعيون ضيقة وهو يجز على أسنانه، قبل أن يجلس بجوار اللواء المشدّ. الجو ليس لطيفًا على الإطلاق هنا. جلست ونظرت لضابطة الإنتربول الأربعينية التي تطل من الشاشة. قالت بإنجليزية ذات لكنة اسكتلندية قوية:

- دكتور لقمان، ما علاقتك بمن يُدعى عازر؟

اعتدلت في جلستي. فقد توقعت أن يكون محور اللقاء هو المايسترو، لكنها باغتتني بالسؤال.

- لقد حاول استقطابي للعمل معه أو "معهم" أيًا من كانوا، لكني رفضت. اتضح لي بعدها أنه جزء من خطة المايسترو. أو العكس، كلتا الفرضيتين صحيحتان. وبالنظر لهذا الحرف (أشرت إلى "G"

المنقوش على الصندوق المعدني) أستطيع أن أستنتج من "هم" وما يحدث.

- إذن لم يكن لك يد في تصنيع فيروس سالوس؟

ترددت للحظة إن كان يجب أن أخبرهم بأنهم استخدموا أبحاثي في التغلب على بعض العقبات في رحلة إنتاج سالوس، وأن ما نشرته على موقعي وعلى الوكيبيديا كان عونًا لهم.

- أظن أن تحرياتكم والمعلومات التي جمعتوها عني تكفي لتنفي عني شبهة الجنون.

- دكتور لقمان، لقد فشلت كل المحاولات في العثور على المصل أو الوصول للمعمل الذي خرج منه. وقد وعدنا المايسترو إعتراف كامل وبإعطائنا مكان القبو الذي نراه على الشاشة.

هكذا استطردت الضابطة وهي تشير للشاشة التي تعرض القبو الذي يحتوي على الصندوق.

- وما المقابل؟

سألتها متوقعًا الإجابة، فسكتت للحظة، ثم قالت:

- كل ما طلبه هو لقاء مذاع على الهواء بينكما يعترف فيه بكل ما نريد. دكتور لقمان، لقد أشادت الداخلية المصرية بك وبعقليتك الذهبية، وأخبرتنا بعلاقتك بالمايسترو وكيف أحبطت خطته منذ ثلاثة أعوام. ليس لدينا أمل سواك. ما الذي يمكنه أن يحدث أسوأ مما نحن فيه؟

- أن يموت المصابون بالفيروس.

- لقد انتشر بالفعل، وهو ليس فيروس يمكنه أن يقضي على البشرية. نموذج ضعيف خامل لفيروس أقوى وأكثر رعبًا: سالوس 20، الذي نتمنى ألا يكونوا قد توصلوا إليه.

أنت مخطئة يا هذه، هناك ما هو أسوأ. لقد نجح المايسترو في التسلل لعقول الملايين لكنه يريد المليارات. وما الطريقة الأفضل سوى لقاء مع منافسه الأقوى وهزيمته على الهواء؟

هكذا جال بخاطري لكني سألتها بهدوء:

- ومن قال إنه سيعطينا ما نريد؟

- أنا لديَّ نفس التساؤل.

كان تعليق المشدّ بالإنجليزية فتنحنحت قائلًا:

- بالتأكيد لديك سيدي اللواء، أي عاقل لا يمكنه أن يصدق أنه بعد أن ينتصر المايسترو ويمسك في يده كل الكروت، يستسلم بهذه السهولة. الفيروس حر طليق في عروقنا جميعًا والمصل بحوزته في مكان آمن. وإن لم يتمكن من قتل الجميع فسيسبب ذعرًا يؤدي إلى انهيار الحضارة، أو في أحسن الأحوال سيجعلنا جميعًا عبيدًا لعازر وجولدنفيلر.

سكتُّ للحظة متوقعًا اعتراضًا لم يأتِ فاستطردت:

- عازف الأقدار لديه جيش من الانتحاريين رهن إشارته، والعالم كله ينصت لما يقول... ينصت لسيمفونيته الأخيرة. الملايين على

شفا حفرة من الاستجابة لرسالته وإنهاء حياتهم، وليس بيد أحد – ولا أقوى الحكومات في الدنيا ولا جيوش العالم كلها – أن يمنعهم عن هذا. وهذا وحده في رأيي أقوى من ألف فيروس.

سكتُّ مرة أخرى لأرى تأثير كلامي عليهم.

- وبعد كل هذا، وبعد أن جلس على عرشه على قمة الحافة التي تنظر للعالم بأسفلها، تتوقعون أن يحرق أقوى كروته.

- ليس لدينا بديلاً للأسف.

- في طرق تانية ممكن نستخدمها مع المجنون ده، وبسهولة ممكن نخليه يعترف.

قالها الشناوي ليرميه المشدّ بنظرة جانبية

- الدنيا كلها بتتفرج علينا يا شناوي، بلاش كلام خايب.

قالها المشدّ الذي نهض وأشار للواء الشناوي قائلًا:

- جهز الأوضة. جه الوقت اللي مستر جراي يقابل فيه عازف الأقدار.

هززت رأسي مستسلمًا، فهذا هو ما كنت أستعد له طيلة حياتي على أيَّة حال، لكني قلت:

- ممكن أطلب حاجة قبل ما أقابل المايسترو؟

هكذا سألت في شجاعة، ليلتفت المشدّ إليَّ متسائلًا وعاقدًا حاجبيه.

- عايز أشوف حازم وهبة.

- انسى!

هكذا زأر الشناوي، لكن المشدّ الذي كان لا يزال محدقًا بي سألني:

- ممكن أعرف ليه؟

- حازم جزء من القصة، ولازم أَلِمّ بكل اللي عارفه عن الألوسي والمايسترو.

- حازم وهبة في سجن تحت حراسة قصوى.

- أيًّا كان مكانه، لازم أقابله.

هز المشدّ رأسه مفكرًا ورمقني للحظة قبل أن يقول:

- ماشي يا مستر جراي.

حازم

لا أشعر بمرور الساعات، ولا أسمع عويل الرياح بالخارج وهي تصرخ عابرة نافذة زنزانتي الصغيرة، المنفذ الوحيد لي. لا أشعر بالبركان بداخلي وهو يخبو تدريجيًا ويصير باردًا.

حتى جاء بمن أخبرني بما دفع بحممه حتى الحافة.

رفعت رأسي لأنظر لمن دخل لتوّه، ذلك الضئيل ذو الوجه البيضويّ وشارب هتلر الذي وقف أمامي ببدلته الكتان الرمادية. لمحت حِجّي خلفه يغلق الباب قبل أن يتقدم سليم إليّ قائلًا:

- المايسترو سلم نفسه.

أطرقت دون تعليق، فلم يعد يهمني في شيء. ليحترق العالم بمن فيه. لكنه بعد وهلة أضاف:

- وهيعترف بكل حاجة ويقولّنا مكان المصل فين.

صدرت مني ضحكة ساخرة وأنا أقول:

- وصدقته يا عبقري القرن؟

- طبعًا لأ. بس مفيش قصادنا حل تاني. هيذيعوا لقاء بيني وبينه على الهوا وهيعترف فيه بكل حاجة. ولو معملوش كدة بسرعة عازر واللي وراه هيقتلوه وتروح الفرصة الوحيدة للحصول على المصل.

هززت رأسي مستهزئًا بكلامه ثم أطرقت عائدا لصمتي.

- حازم. أنا عارف إن كل واحد فينا من عالم مختلف. بس العالمين

المختلفين دول فيهم شخص مشترك.

رفعت عينيّ لأحدجه بقوة.

- عندنا فرصة ننقذ عايدة يا حازم.

سكت للحظة قبل أن يضيف:

- عندنا فرصة ننتقم من اللي قتل رجب.

نهضت فجأةً ليجفل ويتراجع. أنذرته بكلمة واحدة:

- بلاش.

- واللي قتل منعم.

جذبت السلاسل المعدنية لتصدر صليلًا عاليًا لكنه استمر:

- عندنا فرصة نمنع اللي حصل لوالدتك إنه يحصل لمليون أم تانية.

هنا هدرت بكل قوتي وانقضضتُ عليه لتمنعني القيود قبل أن أُطبق عليه:

- سليم!

انكمش سليم عند الباب الذي طل منه حِجّي لينظر بكل برود في الزنزانة، ثم يدير وجهه الرفيع شبيه العنزة. هنا استجمع سليم شجاعته وقال ما جاء ليخبرني به:

- أمك مسامحاك يا حازم.

شعرت أن السلاسل تتمدد مع شدة جذبي لها، ونفرت عروقي وأنا

أقول بصوت متهدج:

- أمي ماتت قبل ما تسامحني. ولآخر مرة يا سليم... بلاش!

هنا أخرج شيئًا من جيبه، معول صغير، جاروف رقيق كانت تستعمله أحب الناس إليّ.

خانتني قوتي، وتخلى عني جبروتي، وانهرت على ركبتيّ.

حدقت بالمعول، مددت يدي إليه، دموعي تتصارع كي تسيل أنهارًا، تشوش عليّ رؤيتي.

لم يعد هناك مجال للإنكار، لا مجال لرفض ما يحدث. من كان يقف أمامي في تلك اللحظة يرى ويعي ما لا نفهمه، ولو حرمت نفسي من تصديقه سأحرمها من الخلاص، من يقيني أنها قد غفرت لي.

- أنا هحارب المايسترو على الهوا يا حازم. متخلنيش أحاربه لوحدي.

نهضت ببطء مستعيدًا رباطة جأشي قائلًا:

- والمطلوب؟

- المصل. المايسترو عمره ما هيسلمه. وأنا هقولك توصله إزاي.

- بس أنا هنا.

ابتسم سليم ونظر للجدار، بالتحديد إلى ذلك الشرخ الذي ظهر عند نقطة اتصال السلاسل بالجدران، والذي لا يعني سوى شيء واحد...

أن فترة سجني قد انتهت.

سليم

خطة المايسترو كاملة... وأنا جولته الأخيرة.

تدبرت، ترددت... ارتعشت يداي وأنا أمدهما كي أفتح الباب. أخشى ما ينتظرني خلفه، فهو ليس كما يتخيلونه على الإطلاق، ما ينتظرني خلفه هو جزء من خطته هو، الدومينو الذي نَسّقَهُ عازف الأقدار بعبقرية تفوقنا جميعًا. وأعلم تمامًا الموقعة الدامية التي تنتظرني وراء الستار، أكبر وأخطر معارك حياتي.

هل أنا لها؟ هل أنا نِدٌّ لذلك المجنون وأفكاره الهدامة ومن يدعمونه، التحالف الأكثر قبحًا في التاريخ؟

هل أنا مستعد للمجازفة بمواجهة أخطر الأسئلة على الإطلاق؟

ماذا لو خسرت؟ هل أنا مستعد لتحمل النتائج؟ هل أنا مستعد لتحمل عواقب انتصاره على مسمع ومرأى الجميع؟

ومن أنا لأنصّب نفسي حاميًا على هذا العالم؟

من أنا لأدافع عن الحياة، الهبة الأعظم التي أُهينت مؤخرًا ونُعتت بأفظع الصفات؟

كيف يمكنني أن أقنع الملايين أن يتمسكوا بها دون أن أعرف سرها؟

لقد عاهدت أخي أن أعثر على هذا السر، أن أعرف أين نذهب بعد الموت. أنفنى ونصير عدمًا؟

عاهدته أن أعرف المغزى وراء كل شيء. وفشلت مع أول اختبار.

كَفٌّ رقيقةٌ أمسكت بكفّي لينقطع حبل أفكاري، فالتفتُّ لأجدها بجواري، عيناها الواسعتان حمراوان من أثر البكاء والتعب. أومأت لي مؤكدة أنها تثق بي، ثم نظرت إلى الباب الذي ينتظرني خلفه.

اللعنة على الأبواب. هذا كثير عليّ يا عايدة، أنا أخشى المجهول، أخشى ما يخبئ لي عازف الأقدار من أفكار.

ابتسمَت في حنان وتقدمتني، دفعَت الباب لي كي أدخل.

رفع المايسترو عينيه، وأنا أغلق الباب خلفي.

وجلست قُبالته.

***

يا لهدوءك الصاخب يا هذا!

جلس واضعًا ساقًا فوق أخرى. ذو وجه طويل، وسيم الملامح، ابتسامته وَقُور. شعره الفضيّ مصفف بعناية، وذقنه المربع القوي حليق وناعم. يرتدي بدلة كتان بيضاء دكناء، مطابقة لما أرتديه، كأنه يخبرني أنه يمثل الخير. وفي تناقض مثير لهدوئه وأناقته، لمعت الأصفاد في يده. لم تسبب له حرجًا ولا إزعاجًا، بل يرتديها بكل فخر.

حولنا الغرفة الصغيرة فارغة، سوى من ضابط يثبت كاميرا عليها رمز التليفزيون المصري محمولًا على ثلاثة أرجل. على الحائط المقابل للباب، وراء المايسترو، شاشة معلقة، تعرض في نصفها الأيسر مشاهد لما يحدث حول العالم من وقفات احتجاجية مؤيدة

للمايسترو. وفي النصف الأيمن بث مباشر للقبو الذي لا يعرف أحد مكانه، والصندوق الرابض على حامله، الصندوق الذي يحتوي على النجاة. وهناك زجاجتان من المياه المعدنية بيننا على الطاولة.

حدَّق بي بقوة، متفرسًا في ملامحي، باحثًا عن شيء ما. ثم ابتسم بإعجاب وصفق بيديه المكبلتين ببطء قائلًا:

- شكلك تخلصت من الأدوية. كدا ممكن نتكلم مع بعض.

وضعت ساقًا فوق الأخرى محاولًا التظاهر بالثبات، وقلت:

- بس ليه؟ كل ده ليه؟ أنا أهميتي إيه في حكايتك؟ كل ده علشان تثبت وجهة نظرك؟

صمتَ للحظةٍ أطرق فيها وهو يهز رأسه، كأنه يوافقني، قبل أن يرفع رأسه ليقول:

- لسه زي ما أنت، بتحاول تتفوق عليّ ذهنيًا؟ بتسابقني علشان تثبت إنك أذكى مني؟ أقوى مني؟ عايز أريحك وأقول لك إن ده صحيح، بس لغاية دلوقتي مش قادر تفهم إن ذكاءك ده هو نقطة ضعفك.

حانت مني نظرة لزجاج المرآة التي يراقبوننا من خلالها.

- أنا مش بحاول أتفوق عليك.

- مفيش فرق بينك وبين حازم وهبة. إنت متوقع إنك هتكسب المعركة دي بمخك وهو بقوة دراعه. مش قادر تفهم إن عقلك ده هو ألد أعدائك. زي ما قوته هي ألد أعدائه.

مال للأمام، فصدَى صليل أصفاده في الغرفة الخاوية، وقال بصوته الهادئ الحيادي:

- هقولك اللي انت عايزه يا لقمان، هقولك إزاي توقف بث الفيديوهات بتاعتي... وهعترف لكم بمكان المصل... بشرط واحد.

شعرت بطنين في أذني من شدة الإثارة، وتأهبت حواسي كلها حين قال:

- سباق هندخله أنا وأنت.

قاطعنا الضابط وهو يقول بصرامة:

- جاهزين؟

تبادلت مع المايسترو نظرة تَحدٍّ، وأومأت للضابط بالإيجاب قبل أن أقول:

- جاهزين.

***

التفت المايسترو ليحدق بالكاميرا للحظة طويلة، فشعرت أنه ينتظر حتى يجذب اهتمام المشاهدين التام في جميع أنحاء العالم. رفع يديه المكبلتين ليريهم قيوده ثم بنبرة هادئة قال:

- يخفون عنكم الحقيقية. يغمضون أعينكم. يظنونه عالَمًا من الحمقى، من الجهلة، ممن لا يعرفون ما يحدث حولهم.

هكذا استهل كلامه.

- لكنهم لا يخدعون أحدًا. الكل يعرف، الكل يرى.

ضيّق عينيه الحادتين، واستطرد مخاطبًا الكاميرا، والملايين جالسون أمام الشاشات:

- سأجعلكم تنتزعون كفوفهم من فوق أعينكم وأفواههم. ستصرخون في وجوههم، في وجه الدنيا... "كفى". كل مريض، متألم، كل منكسر القلب أو الجسد، من خسر شخصًا أو حلمًا أو معركة.

صمت للحظة... ثم تابع:

- أليس من حقكم أن تسألوا: لماذا؟ وإلى متى؟

رفع نبرة صوته، بينما يرنّ صليل سلاسله مع حركة يده في الغرفة الخاوية.

- لماذا كل هذا العذاب؟ لماذا نبني تَلًّا من جثث ضحايا الحروب ونقف فوقها منتصرين؟ لماذا يجب أن تعيش طفلة تعلم أنها قبيحة؟ تعلم أنها ستكون دومًا في صراع خاسر؟ ما العدل في وجه لا يعي قبحه ولا يفهم لماذا لا يحبه الناس؟ لماذا يجب أن يعيش مريض بسرطان ويتعذب؟ لماذا يجب أن يعاني الفقير، الضعيف، الغبي...

ارتفع صوته أكثر:

- ما الحكمة في عقل لا يعي ما به من قصور؟ أخبرهم يا مستر جراي، أرْشِدهم، كيف يمكن للكفيف أن يرى الجانب المشرق للظلام الذي فتح عينيه في هذه الدنيا ليجده أمامه؟ لمن أصابه الشلل

صغيرًا، لفاقد السمع الذي لا يعرف صوت الأمواج، لمن لا يستطيع تمييز نداء أمه ومن عرف طعم الدواء قبل أن يتذوق لبنها.

صمتَ للحظةٍ، قبل أن يرفع عينيه إليّ في تَحدٍّ:

- تريدون أن تعرفوا الإجابة؟ اسالوا أهل العلم. اسألوهم عن السبب. اسألوهم عن المنطق. عن الهدف من كل هذا! نحن من العدم وإلى العدم سنعود! اسألوهم من أين أتينا. لا يعرفون. يقولون طاقة سوداء، يقولون كيمياء، أشياء تفاعلت مع نفسها لتخلق نفسها، يقولون لو أن هناك إلهًا، فمن خلق الإله؟

ثم هدر فارتجت القاعة بصوته:

- "كفى"...! كل هذا الألم لا بد أن يتوقف الآن. دعوني أخبركم بالحقيقة التي تعرفونها جميعًا: لا يوجد شيءٌ فوق هذه الدنيا، ولا شيء بعدها.

هدأت نبرة صوته وحدق بعينيّ بقوة قائلًا:

- "الغيب"، لا وجود له سوى في خيالنا وأحلامنا. الستار... الحجاب... العالم الآخر... خدع متقنة نسجها عقل جريح. نحن نفنَى بعد أن نموت، نعود جزءًا من هذا الكون كما تنحسر الموجة عائدة للبحر.

تصاعد الدم إلى رأسي وأنا أتلقى صفعته المقصودة تلك... وأصمد. سكت للحظة كي يلتقط أنفاسه، وأكمل بصوت خفيض، ونبرة هادئة. نبرة تتحسس جمجمة من يسمعه، كأهداب مخلوق رخوي تسعى لأن

تصل إلى الآذان، فتقتحمها بلا دعوة، وتعلن امتلاكها لكل وجدانك. هذا الرجل خطير، مرعب. أضاف، منهكًا:

- لقد صرنا نحسد الأموات.

شرد للحظة، قبل أن ينظر إلى الكاميرا ويستطرد:

- ولهذا فقد أهديت إليكم ما تنتظرونه على أحَرِّ من الجمر. أهديت إليكم الخلاص.

- ماذا تريد أن تفعل أكثر من هذا؟ من تريد أن تقتل؟

هكذا قلت بهدوء، لكن بنبرة مرتعشة من الإثارة، فالتفت إليَّ بغتة ليرمقني بنظرة مجنونة مخيفة، قبل أن يهدر بكل قوة:

- الناس أجمعين!

ثم جاء دوري... لأرد.

حازم

لم أكن أنا المسجون، بل كانت الصرخة نفسها سجينة صدري. كل كياني ينتفض غضبًا ورغبة في انتقام أيقظته كلمات سليم، وكان صليل السلاسل التي تقيد حركة يدي هو الإجابة الوحيدة لنداءاتي الصامتة.

ذلك الظمأ الرهيب، وذلك الصوت الذي أسمعه حين أحرك يدي، وهناك شيء يسقط بجواري.

نظرت للسلسلة التي أدمت معصميّ، فوجدت شيئًا عجيبًا، لم يعد هناك غبار إسمنت فقط بل قطع منه، مكدسة أسفل البقعة التي تصل السلسلة بالحلقة المعدنية المغروسة في الجدار الخرساني. حركت يميني كأني ألْكُم شخصًا بجانبي، فيسقط المزيد من الركام، ويتحرر جزء من السلسلة. لقد بدأ الحائط المتين يتهالك. تعجبت، فلم أكن أستخدم من قوتي ما يكفي لصنع هذا التأثير.

ثم تذكرت ما قاله المايسترو عن الأشياء وخضوعها لمشاعرنا.

قلبي يضخ الأدرينالين، كأنه محبوس وراء سد، ليندفع كالطوفان في عروقي النافرة، ضربت الهواء مرةً أخرى بيسراي، فحدث الشيء نفسه مع السلسلة التي تقيدها، تخلخل الجدار الخرساني، وتساقط التراب، وقطع الإسمنت، ليتكون تل صغير أسفل الحلقة المعدنية.

صار الظمأ أضعافًا، يكاد يقتلني، يزيغ بصيرتي، يؤجج غضبي.

حاولت التركيز وإعادة نفسي للواقع، فلم أجد شيئًا أتشبث به

لحمايتي من نفسي.

نظرت أمامي إلى الباب، في تَحدٍّ، وتركت لمشاعري العنان.

ضربت الهواء بكلتَيْ قبضتَيّ، كأني ألكم بهما عدوًّا خفيًّا، فانهار جزءٌ آخر من الجدران.

ضربت الهواء مرةً أخرى، السلسلة تستجيب، تكاد تخرج بالحلقة من الجدار.

نهضت بكل قوتي جاذبًا السلسلة من الجدار، فأطاعتني.

وقفت أمام الباب. وتذكرت...

تذكرت بابًا مصفحًا كان يقف بيني وبين عايدة.

***

قفزت لأعتلي سور السجن، جراحي كثيرة، لكني تجاهلتها، فقد تركت ورائي جراحًا أكثر منها. التفتّ إلى من يطاردني، من تبقى من الحراس والضباط من سعداء الحظ الذي لم يضعهم القدر في طريق هروبي. طلقة دقيقة كادت أن تخترق قلبي، أصابتني في كتفي، احتملتها وسامحت من أطلقها. الغضب بداخلي قد بلغ أقصاه، لكنه موجه لجهة واحدة.

دون أن أنظر، قفزت من فوق السور المرتفع لتنغرس قدمي في الرمال كجلمود صخر زلزل الصحراء المحيطة بالسجن. آلة تنبيه جعلتني أستدير، لأرى سيارة حديثة رابضة على جانب الطريق الرملي، يجلس فيها حِجّي. فتح بابها الأيمن الخلفي، وأشار لي

بالركوب، فهُرعت إليه وقفزت لأنبطح فوق الكنبة الخلفية. لم ينتظر أن أصيح فيه ليتحرك، أو حتى أن أغلق الباب، وانطلق وسط عاصفة من الرمال كانت خير غطاء لنا. أسندت كفيّ على ظهر الكرسي، وتماسكت بصعوبة كي لا أرتجّ مع حركة السيارة العشوائية أثناء تفاديها طلقات الرصاص التي انهالت علينا من فوق سور السجن، قبل أن يأتيني صوت حِجّي الهادئ:

- دكتور؟

سألني حين بلغنا الطريق الأسفلتي. أمسكت كتفي ونظرت إلى الجرح الغائر، ثم لباقي جراحي.

- مفيش وقت.

ضغط على زر تشغيل شاشة السيارة. على الفور ظهر وجه المايسترو مبتسمًا في نصف الشاشة، قبل أن تبتعد الكاميرا لينضم سليم إلى الكادر. في النصف الآخر يرقد صندوق معدني لامع على حامله في قبو ما.

- امشي في البلد. أول ما تلاقي جزم لوحدها في الشارع قولّي.

قلتها وأغمضت عينيّ بعد أن سمعت صوت المحرك يصرخ مضاعفًا سرعته.

أرجو أن تكون مُحقًّا يا مستر جراي، وإلا خسرنا كل شيء.

سليم

هذه هي اللحظة يا سليم.

تنحنحت، نظرت للكاميرات، ثم إلى زجاجة المياه الموضوعة أمامي. وضعت نظارة سالم عديمة العدسات على وجهي، أغمضت عينيّ كي لا يشتت الرماد المتساقط انتباهي، ثم أخذت رشفة.

بيتهوفن، أدق وصف لمذاقها، لحن خلاب ينساب على لساني، يداعب خلايا التذوق بعد شوق. فتحت عينيّ دفعةً واحدة، نظرت لزجاجة المياه التي لا يميزها شيء.

ابتسمت، ثم قلت:

- هل تدركون ما الذي فعلته لتوِّي؟

رفعت عينيّ لأنظر للكاميرا مضيفًا:

- لقد كنت في كفة، والكون كله في كفة، فعادلت كفته.

تخيلت من يرونني خلف الشاشات يتبادلون نظرات حائرة.

- نعم، هذا الفعل البسيط، مجرد شرب الماء، هو بنفس قوة وتأثير انفجار شمسي، في نفس الفئة مع الحروب العالمية، مع الأوبئة والمحارق الآدمية، مع الأمراض والانهيارات الأرضية. هذا الفعل البسيط يتبع نفس القاعدة الكونية. وأسألكم مرة أخرى، ما الذي فعلته لتوِّي؟

ابتسمت للكاميرا وقلت:

- لقد كنت ظمآن لسنوات عديدة، كما لم يظمأ أحدٌ منكم من قبل، ذهبت بعدها لمكان غريب، مكان الواقع فيه أكثر عجبًا من الخيال، مكان المستور فيه له إرادة، يناجيك، يحذرك، يخبرك أن كشفك له ليس بلا ثمن. وفي هذا المكان شربت... وفهمت.

نظرت في عينيّ المايسترو حين نطقت بالكلمة الأخيرة، لأجده منتبهًا إليّ بكل جوارحه، بدون ابتسامة، فأردفت:

- والسؤال بطريقة أخرى هو: بدون هذا الظمأ، هل كنت سأشعر بنفس النشوة التي سَرَتْ في جسدي حين لامست المياه الباردة شفتيّ المشقوقتين؟ تلك الموسيقى الناعمة التي داعبت حاسة التذوق عندي بعد اشتياق، هل كنت سأرتوي لو لم أكن عطشان؟

استقمت في جلستي فاردًا جسدي مكتسبًا بعض الثقة.

- نحن لا نأكل دون أن نجوع، وكلما زاد جوعنا زاد استمتاعنا بالطعام. كلما زاد تعبنا شعرنا بتلك الرعشة اللذيذة حين نستلقي على الفراش في آخر اليوم.

يرتفع صوتي مخاطبًا الكاميرا:

- هل هناك شيء في الكون كله يسير مخالفًا لتلك القاعدة؟ الليل، والنهار، الاتجاهات، الحركة، كلها لسبب، كل شيء يتبع نظرية نيوتن، "لكل فعل رد فعل". حتى الظواهر الطبيعية، الزلازل والبراكين، هي ما يريح الأرض مما تحتويه من ضغط وتقلصات، معادلة لقوة ما.

داعبت ابتسامة شفتي، وأنا أتذكر شريط حياتي، لكنها اختبأت

بأسرع مما جاءت.

- كل شيء في حياتنا، البرمجة التي نسير طبقًا لها في كل تصرفاتنا، هي ضد شيء ما. لو لم يكن هناك حاجة واحتياج لما فعلنا شيئًا، لما صحونا من نومنا وخرجنا نسعى لرزقنا. حتى القلة ممَّن بلغوا سقف تطلعاتهم، سيخترعون هدفًا يلهثون خلفه وإلا جاء الاكتئاب والرغبة في إنهاء حياتهم. لو صعدت جبلًا، لنظرت لما هو أعلى منه.. ولو انتصرت على عقبة، أو حققت حلمًا، مهما بلغت من نجاح فسوف تبحث على تَحدٍّ آخر، مقاومة أخرى تدفعك للأمام.

يا من يراني في البيوت، يا من يظن أن المايسترو على حق، اعلم أن الوجود كله يسير بين نقيضين، آلامك، كل شرور الدنيا، هي مجرد الصفحة السوداء التي...

سكتُّ بغتة، والتفتُّ إلى الزجاج العاكس حيث تجلس عايدة. لحظة طويلة مضت وأنا صامت، عقلي يعمل بكل طاقته. التفتُّ إلى المايسترو لأجده يحدق بي قاطبًا حاجبيه، وفي شرود أضفت:

- لقد كانت ثلاث سنوات عجيبة تلك التي مضت، حدث لنا جميعًا أشياء سهلة التفسير، وأشياء لا نستطيع تفسيرها.

تحسست قلم عيسى الأبيض في جيبي قبل أن أعود للواقع مبتسماً، واستعدت توازني ناظرًا للمايسترو، مستطردًا:

- هو على حق، لقد بلغت الشرور والأوجاع من القسوة أن ما ليس له قلب ينبض، قد بدأ يبكي.. قد بدأ يُبكينا. كنت أتناول المهدئات كي لا أشعر. حتى نطق الجماد ونادى عليّ... ليوقظني.

حازم

أخرجت الطلقات من كتفي وذراعي وساقي اليمنى بيديَّ العاريتين، فيما توقف حِجِّي في منتصف الشارع. أشار لمجموعة من الأحذية متراصة بحذاء الرصيف، كأن هناك أُناسًا غير مرئيين يقفون هناك، وقال لينبهني:

- حازم.

- حدد اتجاههم وامشي وراه يا حِجِّي.

رمقني بنظرة لم أفهمها، شبح ابتسامة، لكنه التفتَّ لينظر أمامه ويتحرك بالسيارة. هنا لمحت ذلك العجوز الذي توقف عن السير وأمسك صدره، ثم انهار على ركبتيه، قبل أن يفترش الأرض ويدخل في نوبة تشنجات قوية. انتبهت إلى حِجِّي، لأجده يرمقني بقوة في المرآة، قبل أن يقول مفسرًا:

- سالوس. وقتكم قرب يخلص.

- وقتنا؟

سألته مستنكرًا، لكنه نظر أمامه ولم يُجِبني. تسلل شعور غير مريح إليَّ، فنظرت إلى مُؤخَّرة رأسه محاولًا اختراقها وقلت:

- حِجِّي، عرفت منين إني ههرب؟ سليم قالك؟

لم يُجبني، وأشار إلى مجموعة أخرى من الأحذية. التفتُّ إليها لأجدها متراصَّةً بانتظام فوق الرصيف، كأنها قافلة تسير في اتجاه

محدد. التفتّ مرة أخرى إليه قائلًا:

- خليك وراهم، شوفهم رايحين فين.

أومأ برأسه برزانة لم أعهدها عليه، قبل أن ينعطف بالسيارة.

هل الأمر كما قال لي سليم؟ هل هناك بالفعل من يرتديها ولا نراهم، من قتلهم المايسترو وأمثاله، من ماتوا غدرًا وبقيت أحلامهم مُعلقة؟

ما الذي يسيرون إليه؟ الخلاص؟ القصاص؟

توقف حجي بالسيارة في نهاية طريق مليء بأشجار عملاقة، تخفي وراءها قصورًا.

- الجزم رايحة القصر ده.

قالها مشيرًا إلى بوابة أحد القصور. هناك رأيت زوجًا من الأحذية يربض أمام البوابة إلى اليمين قليلًا، كأن مَنْ كان يرتديهما قد تبخر في الهواء قبل أن يصل إليها، وهناك رجال عمالقة أمامها.

انحنى حجي ليفتح درج القفاز، واعتدل جالسًا مرة أخرى. هناك رأيت مسدسًا حديثًا مزودًا بكاتم صوت. ملت بنصفي العلوي كي أصل إليه، وعدت مكاني حيث تأكدت من امتلاء خزانته. أمسكت بمقبض الباب لكن قبل أن أنزل سألته:

- ليه بتساعدني؟ إنت كدا بتعرض نفسك للمحاكمة. إشمعنى دلوقتي؟

- أنا مش بساعد حد. دي مش شغلتي. إنتم اللي ساعدتم نفسكم.

- إزاي؟

رمقني بعينيه الغائرتين في المرآة، ولوهلة شعرت أنهما مختلفتان عن عهدي بهما، كأنهما تخصّان وجهًا آخر أكثر صرامةً وقوة، قبل أن يقول:

- لما أنقذتم الكلبة أَلِيسْ.

قبل أن أسأل المزيد، لمحت وجهًا طفوليًا متناقضًا مع بنية صاحبه الهائلة، خرج من البوابة ليعطي لرجال الحراسة أوامر ما، وجه طفل على جسم دب قطبي، وجه الغاياتي.

هنا نسيت تساؤلاتي وظنوني، نسيت من يطاردني من رجال القانون واللا قانون، وتذكرت من خسرتهم بسبب هذا البلطجي وسيده.

ترجّلت وأغلقت باب السيارة لأتقدم بخطوات ثابتة إلى البوابة.

ثلاث طلقات سريعة أردت رجال الحراسة الثلاثة قتلى، ثم رابعة احتكت برأس الغاياتي الذي أطل به من فتحة البوابة المعدنية، فالتقت عيوننا لأقل من ثانية، قبل أن يغلقها بسرعة، فترتطم الرصاصة الخامسة في الموضع الذي كان به رأسه.

هذا الظمأ. شيء ما كان يحدث لي، وحولي. إحساسي بالأرض التي أمشي عليها، والهواء البارد الذي يلفح وجهي، وجسدي المتحفز وأنا أمشي بخطوات ثابتة في اتجاه البوابة... كل ذلك كان مختلفًا. شعرت بصلة ما بالموجودات من حولي، تناغم لم أختبره به من قبل،

كأن الوجود نفسه يرفعني فوق الممكن والمستحيل. وهناك نغمة ما، موسيقى قوية تدوي في المكان بصورة ما، في بُعد آخر، عالم آخر أسير فيه بالتصوير البطيء. أشعر أن هناك من يراقبني من هناك. نظرت خلفي لأجد حِجّي يتابعني من مكانه خلف مقود السيارة.

قبل أن أصل للبوابة، لمحت سلاحًا يظهر فوقها، فقفزت كالقدر لأركلها بباطن قدمي. ارتج الباب واختفى السلاح من فوقه حين يطير من يمسك به إثر اصطدام البوابة به، قبل أن تزأر وتهوي أرضًا بصوت كالرعد. وحين انقشع الغبار، وقف أتباع عازر مذهولين وفي أيديهم أسلحة نارية يسددونها... للهواء.

فلم يكن لي أثر أمامهم.

***

كان تشتيتًا بسيطًا. ما إن تأكدت من استسلام البوابة لركلتي، كعادة كل الأبواب والحواجز مؤخرًا، حتى ركضت بكل سرعتي لأدور حول السور، وأعتليه من الجانب الأيمن. انشغل رجال الحراسة بما يحدث عند البوابة الرئيسية، ورأيت الغاياتي يخرج من باب القصر بسلاح أعرف نوعيته جيدًا: بندقية محدودة الطلقات ذات قوة ردع خرافية.

قفزت وتسللت بين الأشجار، الطريق لباب القصر ملغم بالعشرات من رجال الغاياتي المدججين بالسلاح. لقد كان سليم على حق، أنا في المكان الصحيح، لقد قادتني الأحذية إلى المصل. القبو هنا، وإلا فلِمَ كل هذه الحراسة؟

القرارات لا بد أن تكون سريعة، حاسمة، بلا تردد. ولهذا، وقبل أن يستوعبوا ما يحدث، انطلقت في الممر الملاصق للقصر مثل الطوفان، قوة دفع لا يوقفها أحد. رصاصة تلو الأخرى، تساقط معها الحارس تلو الآخر، لا يدرون من أين يأتي الموت بعد أن كان قادمًا من أمامهم، من عند البوابة. كلما سقط أحدهم دهسته تحت أقدامي، أو أمسكت بجسده كي يحميني من الطلقات، ثم أنحني لألتقط سلاحه لأطلق منه على من يليه.

رأيت الغاياتي في نهاية الممر، يحاول تسديد سلاحه نحوي، لكن خطواتي كانت مدروسة، أسير بين صفوفهم في خط متعرج كي لا يصبح لديه خط رؤية مباشر إلى وجهي. وهكذا بعد ثلاثة عشر قتيلًا وإصابتين في فخذي وجانبي الأيمن، وجدت نفسي أمامه. لكني لم أقف، لم أبطئ سرعتي، لم أنْحَنِ حتى كي ألتقط سلاح آخر ضحاياي، بل استخدمت جسده كدرع يمتص طلقة بندقية الغاياتي القوية، والتي كادت أن تطيح بي معه. غرست قدمي في الأرض لأمنع نفسي من الارتداد بسبب قوة الخرطوشة التي خرجت من سلاح الغاياتي كالمدفع الصغير، ألقيت بالجسد المهترئ جانبًا، وانقضضت على الغاياتي.

أمسكت بفوهة بندقيته السميكة، قبل أن أدور حول نفسي لأهشم جانب وجهه الأيمن بمرفقي. درت بعدها في الاتجاه الآخر، كي أدق الجانب الآخر بكوعي الأيسر. ترنح للحظة قبل أن يحاول الكلام ليسخر مني، لكن فكه كان قد تهشم واعوجَّ، فخرج منه الكلام مشوهًا، مصحوبًا بنافورة من الدماء. في نفس اللحظة انقض عليَّ

الثلاثة المتبقون من أتباعه، آخر من تبقّى من إمبراطورية الألوسي، وهم يصرخون ويسبون ويتوعدون بإرسالي إلى الجحيم. انتزعت بندقية الغاياتي من يده، وتحملت ضرباتهم، قبل أن أستدير لأطلق خرطوشة واحدة لينفضُّوا من حولي، كغبار نفخته ريح عاصفة.

التفتُّ بعدها للغاياتي الذي استعاد توازنه، وأخرج مُدْيةً حادة ليهجم بها عليّ. ابتعدت عن طريقه بسهولة، وأمسكت بكفه الغليظة بيسراي، ثم لويت ذراعه للوراء، وبزاوية أجبرته على الدوران في الهواء رغم كتلته الهائلة والسقوط أرضًا، بدلًا من أن ينكسر رسغه. وفي حركة سريعة التقطتُ المدية وطعنته بها فوق قلبه. انتفض باصقًا دماءه ليغرق صدره ويدي التي ثبتت المدية في مكانها، رغم محاولاته المحمومة لإنقاذ نفسه. ثوانٍ قصيرة انتفض فيها عدة مرات، قبل أن تهمد حركته مستسلمًا لقدره.

هذه لك يا رجب...

نزعت سلسلة يتدلى منها كارت إلكتروني من حول رقبته، ثم اتجهت إلى باب القصر، ودخلت لأجد أمامي...

وجه سليم لقمان.

عايـدة

تصاعد التوتر في الغرفة التي نراقب منها، وتبادل اللواء المشدّ مع اللواء الشناوي وبقية الضباط نظرات قلقة، نظرات نجحت في إثارة خوفي.

ماذا لو فشل سليم في مخططه أيًا كان؟ ماذا لو كان المايسترو جاهزًا بهجوم مضاد؟

التفتُ إلى نهلة التي كانت شاردة في الأرض أمامها، والدموع متحجرة في مقلتيها، وتخيلت نتيجة انتصار المايسترو الكارثية، قبل أن أعود لمتابعة ما يحدث عبر الزجاج. نظرت إلى الشاشات المتراصة أمامنا، والتي تنتقل بين وجه مستر جراي وعازف الأقدار، الذي جاء دوره ليجيب بابتسامة واثقة:

- ها أنت ذا تصل للحقيقة. هيا... أخبرهم بماذا نطق الجماد.

سكت بعدها للحظة، قبل أن يقول بنبرة ساخرة مشيرًا للكاميرا باستهتار:

- يا أنبغ علماء هذا الزمان، قل لهم ما الذي كان سالم يريد قوله.

هنا رأيت وجه سليم يصير أبيض كالثلج، فيما انهال عليه المايسترو بلا رحمة:

- قل لهم ما الذي كان يراه. أنت تعلم، فأنت مستر جراي الشهير، أنت من يرى ما لا نراه ويعي ما لا ندرك. أنت رأيت، حين ارتديت نظارته الطبية. دعني أخبرك أنا. لقد رأيت الرماد، أليس كذلك؟ رأيت

كيف كان سالم يريد أن يحترق العالم كله كما كان ينكوي هو بالعلاج الكيماوي.

بقى وجه سليم بلا تعبير فهتف اللواء الشناوي الذي كان يقف بجواري ليفزعني:

- سيادة اللوا.. لازم نقطع البثّ. النتيجة هتكون كارثية.

لكن المشدّ صاح في وجهه:

- هو لسه معترفش ولا قال لنا مكان المصل. ولو قطعنا دلوقتي هيبقى انتصر. هيبقى خليناه يعمل اللي هو عايزه ومكسبناش حاجة. مش ممكن أسمح له! مش هخليه يدمر مستقبل أحفادي!

نظرت ورائي لأرى نهلة قد انهارت تمامًا وهي تغمغم:

- عنده حق، المايسترو كل كلامه صح يا عايدة.

ثم دفنت رأسها بين ركبتيها كي لا ترى الدنيا هشاشتها.

التفتُّ للمايسترو حين ارتفعت نبرة صوته حتى ملأ الكون كله، عبر السماعات الداخلية وسماعات أجهزة العرض لتُبحر في خلايانا. التفتُّ إليه لأجده يبتسم بثقة أكبر، ويقول بنظرة لا يطرف له فيها جفن وبإنجليزية سليمة:

- نعم كان أنا! أنا من نشر ڤيروس سالوس وأغرق العبَّارة وحرق المسرح. أنا من فجَّر محطة مصر وسمَّم الفقراء وخنق الطفلة السمراء! أنا من استجاب لتوسلات سالم، في حين كنت أنت أجبن من أن تطلق سراحه يا مستر جراى. كنت أنت أكثر قسوةً من مرضه،

على الأقل المرض كان يريد إنهاء عذابه، بينما أردت أنت أن تطيله. كنت معه "رماديًا" بينما كنت أنا "أبيضَ"... حاسمًا.

هكذا قال أكثر المخلوقات شرًا، ليتحطم سليم لقمان أمامنا قبل أن ينتفض المايسترو ليواجه الكاميرا، ويقول مشيرًا إلى سليم:

- أهذا هو أفضل ما عندكم؟ أهذا هو أقوى أسلحتكم؟ أهذا هو أذكاكم؟ انظروا إليه جيدًا! انظروا كيف يتحطم هذا الذكاء على يد القدر!

"عايدة".

هكذا سمعت الهمس وسط الجنون.

التفتُ لأرى كراس رسم عيسى على الأريكة الجلدية بجوار نهلة التي سدت أذنيها بيديها في ذعر.

"عايدة"، تكرر النداء، هو قادم من الكراس بكل تأكيد.

وكأنني أسير بالتصوير البطيء، تقدمت إليه وسط الصياح والهرج والمرج الذي دار في الغرفة، لأجده مفتوحًا على رسمة بعينها، رسمة لم أنتبه إليها من قبل لشاب أشقر وسيم. لم أنتبه إليها بسبب عينيه الخضراوين الواسعتين، لم أنتبه إليها لأنه شاب سليم معافى. لكني الآن أرى الشبه الكبير بينه وبين عيسى.

وفهمت رسالته.

حازم

يطلُّ وجه سليم عليَّ عبر التليفزيون العملاق المعلق على الحائط أمامي، من خلال الشاشة المنقسمة إلى نصفين. الأول ينقل غرفة الاستجواب، والثاني يعرض مشهدًا ثابتًا للصندوق المعدني فوق حامله، الصندوق الذي جئت من أجله. الصوت مكتوم لكنني لست بحاجة إليه كي أرى نتيجة لقاء مستر جراي مع عازف الأقدار، النتيجة متجلية بكل وضوح على وجه سليم لقمان.

أطرقت للحظة لأراجع المعطيات الجديدة. لم ينجح الذكاء في التغلب على الجنون، أنا الحل الأخير إذًا.

تناسيت جراحي وضممت قبضتي بقوة. أعلم أن القادم ليس بسهولة ما سبق، لكن لا يمكنني أن أتخاذل، الفشل ليس خيارًا يا وهبة.

عبرت بجوار الشاشة العملاقة لأسير في قاعة الاستقبال الهائلة، حيث بدأت تنكشف أماكنهم لي، الواحد تلو الآخر، يظهرون بمعاطفهم السوداء في الأركان ومن بين قطع الأثاث وخلف الأعمدة. ملامحهم هادئة مثل سيدهم، نظراتهم ثابتة، يقينهم يجعلهم أخطر مائة مرة من رجال الألوسي وصبيان الغاياتي، يربضون في سكون، كقطيع من الذئاب يراقب فريسته العملاقة.

رأيت السلم المؤدي للطابق الثاني أمامي، والباب السحري المفتوح في الأرض والذي يؤدي للبدروم إلى يمينه. استلَّ أحدهم سيفه الرفيع الحاد، شرق آسيوي يبدو كسليل الساموراي، وسدد آخر

مسدسه الرهيب طراز ماجنوم إلى صدري، قوقازي عملاق مثل الفايكنج. وهناك أشقر أحمر الوجه معه بندقية خرطوش عملاقة مثل التي أمسك بها، راعي بقر أمريكي يلوك قشة بين أسنانه. وهناك زنجيان مسلحان بهرّاوتين أقرب إلى جذعَيْ شجرة من فرط ضخامتهما.

العالم كله هنا، متحد ضدي. هذا صراع لن ينتهي لصالحي.

نظرت إلى الباب الأرضي المؤدي للقبو ورأيت أن المسافة بيننا لا تزيد على الأمتار الأربعة، وكان قراري سريعًا. تجاهلت زبانية المايسترو، معتمدًا أنهم لن يطلقوا النيران كي لا يصيبوا بعضهم حين أعبر وسطهم وقطعت المسافة التي تفصلني عن باب القبو بقفزة واحدة. جذبت الباب ورائي وأغلقته موصدًا القفل وأنا معلق في الهواء، ثم تركت نفسي لأستقر على الرمال بالأسفل.

وما إن فعلت، حتى اكتشفت الفخ.

ما قفزت فيه لم تكن رمالًا عادية، فقد انغرست ساقاي فيها حتى نصف فَخِذي من قوة قفزتي وكتلتي الهائلة. حاولت التحرر، لكن كلما قاومت انغرست أكثر، حتى وصلت الرمال إلى ما فوق وسطي بسرعة لم أتخيلها. نظرت حولي باحثًا عن أي شيء أتشبث به، لكن كل ما رأيته كان وجه عوني ذا اللحية الملتحمة بشاربه ورأسه الحليق.

كان مستندًا على كرسي أسفل مصباح بائس في منتصف الممر القصير المؤدي إلى باب القبو. في يده مسدس يلوِّح به باستهتار،

قبل أن يضعه في جرابه وينهض قائلًا:

- رهيب المايسترو ده. كل كلامه كان صح. توقع إنك هتنجح توصل هنا – رغم إني كنت شاكك – وقال إنك هتقع في الفخ ده، بالظبط زي ما إنت عملت.

حدجته بنظرة كفيلة بحرقه حيًا، لكنه كان يعرف أنني لا أملك كروتًا أخرى في جعبتي.

- لو مكنتش عارف، فأنت في رمال متحركة. كل ما تقاوم، كل ما تغرز أكتر. كل ما غضبك يزيد، كل ما تغرز أكتر. فخ عبقري. مناسب تمامًا...

... لحازم وهبة.

عايـدة

كان الموقف رهيبًا، أقوى مما أحتمل، لكني تماسكت. من أجل نهلة التي هشمها المايسترو وتركها حطامًا بجانبي. من أجل سليم الذي يحارب على الجبهة، من أجل حازم الذي يواجه وحده زبانية عالم مظلم من الخوف والقهر والجبروت. من أجل عيسى الذي ترك لي وصية تنوء بحملها الجبال، رسالة ترتعش شفتاي وترتعد أوصالي حين أفكر فيها.

كان سليم مستعدًا لمعركة ذهنية، منطقه ضد منطق المايسترو، سجال فكري، لكنه لم يكن متأهبًا للفخ الذي نسجه له، طعنة نجلاء في نقطة ضعفه الكبرى: سالم. لكني لم أكن لأترك المايسترو يسحقه أمام العالم كله، فهو بهذا لا ينتصر عليه فقط بل على ما تبقى لنا من آدميتنا. وليزداد الطين بِلّة لمحت نهلة تحدق بالمسدس المدلى من جانب اللواء المشدّ، عيناها شاخصتان ولا يسعني سوى استنتاج ما تفكر فيه.

كل شيء ينهار حولي، إنه يسحقنا كما لو كنا غبارًا أسفل قدميه. الظلام ينتصر. ولهذا، وبدون إنذار، انقضضت على الميكروفون الذي يصل بغرفة الاستجواب، وفتحته لأقول بالإنجليزية:

- اسمعني يا هذا! منذ ثلاث سنوات وسوست كالشيطان في أذن شاب مريض بمتلازمة داون وقلت له: "ألم تكتفِ؟"، كنت تريد أن تسحقه هو الآخر. أتذكر بمَ أجابك؟

هب اللواء الشناوي ليمسك بذراعي، ووضع كفه الأخرى على

الميكروفون كي لا ينتقل الصوت.

- بتعملي إيه؟

التفتْ صائحة للواء المشدّ:

- سيادتك أنا عارفة بعمل إيه. سيبني ألحق سليم. الوحيد اللي صد هجوم المايسترو كان أخويا، سيبني أنقل رسالته.

حدجني اللواء المشدّ بقوة وتدبر للحظة قبل أن يأمر:

- شناوي... سيبها!

رمقني الأخير بنظرة متشككة قبل أن يتركني ويبتعد بالتصوير البطيء. أخذت نَفسًا عميقًا وعدت مرة أخرى لأتكلم عبر الميكروفون:

- أتَذكُر؟ أتذكر بمَ أجابك؟

رأيت المايسترو يلتفت ببطء إلى الزجاج العاكس الذي أربض خلفه، وبطريقة ما كان ينظر إليّ مباشرةً، كأنه يرى من خلاله.

- "أنا لم أختر بعد"، هكذا أجابك.

قلتها بينما ظل المايسترو ينظر إلى الزجاج العاكس، إليّ، وجهه ظل باردًا، مثل قلبه، وهو يقول:

- إجابة لا تعني شيئًا.

تذكرت وجه عيسى البريء وأغلقت عينيّ للحظة خاطفة، لكني فتحتهما بسرعة كي لا يتمكن مني ضعفي.. ليس في هذا الموقف يا

عايدة، تماسكي.. ارتفعت نبرة صوتي وأنا أصارع عبراتي:

- أتظن هذا؟ أنت تقول إن المرض جريمة ارتكبتها الطبيعة، خطأ يجب تداركه، خطأ لا يجب أن يدفع هو ثمنه. تخبره أن الحظ لم يكن في صالحه، حين نزل من بطن أمه، وخرج إلى الدنيا هكذا، هذا كل ما في الأمر، التفسير المنطقي عديم المشاعر. وليس هذا فحسب، بل تخبره أنه ليس لديه فرصة أخرى، وأنه سيعود إلى ما كان عليه: إلى العدم.

يخرج صوتي محمومًا، متهدجًا، لوحات عيسى تتحرك حية في مخيلتي، وتنتهي عند الأخيرة، تلك التي رسم فيها نفسه صحيحًا:

- ما الأكثر قسوة في نظرك: أن يولد هكذا، أن يعيش هكذا، أن يعاني هكذا، دون سبب، دون أن يختار طريقًا، دون أن يصيب ويخطئ؟ ما الأكثر قسوةً في نظرك: أن ينتهي هذا الفصل من حياة عيسى ناعوت دون أن يبدأ بعده آخر، فصل يكون فيه صحيحًا، أحسن تقويمًا، أن يصالحه القدر ويوفي له دينه، العدل الذي تقول إنه لن يناله، لأنه ببساطة لن يكون هناك فصل آخر، كما تقول. أيهما أكثر قسوةً يا هذا، يا من تدعي نبوة الرحمة؟

اتسعت عيناه، تكادان تخترقان الزجاج العاكس، لكني استطردت كالطوفان:

- ألأنك خُلقت سليمًا؟ ألأنك قد بلغت السبعين دون مرض ولا شائبة؟

تحركت الكاميرا ناحيتي لتنقل صورة الزجاج العاكس الذي أختبئ

خلفه، فنظرت إليها لأقول بنبرة مختنقة، عالية، حارقة، مخاطبة العالم كله:

- وأنتم؟ يا من تشاهدوننا الآن، ما هذه الأنانية التي تملأ قلوبكم؟! لماذا تريدون حرمانهم من العدل؟ نحن منا الأصحاء، الأغنياء، الأذكياء. منا الناجح دون تعب، الماهر دون مجهود. منا الجميل الذي تتفتح له الأبواب، الجذاب الذي يدور في فلكه الأصحاب. لماذا تضنون على الأقل حظًّا منكم بمجرد الفكرة أن هناك حياة أخرى، فرصة أخرى، يلاقون فيها رحمة لم يعرفوها في هذه الدنيا.

ظهرت على الشاشة مشاهد للحشود المنتشرة في ميادين وشوارع العالم، يتابعون ما يحدث من خلال هواتفهم المحمولة وشاشات العرض الهائلة في الميادين. ببطء يخفضون لافتاتهم المنقوش عليها نداءات الخلاص، دعواتهم كي يُنهي الناس حياتهم ويتخلصوا من العذاب. أنهيت كلامي بيقين وحماس، بعد أن شعرت أنهم يستمعون لما أقول:

- أنت لا ترى الجانب الآخر للوجع. لم تَرَ العجوز العمياء تغفر لأبنائها. لم تر سماحة عيسى. رضا الفقير. ابتسامة المريض. لم تر ندم المذنب في خلوة زنزانته.

كأنه شعر بسيطرته على الناس تنساب من بين يديه، فحول المايسترو عينيه ليحدق بقوة في الكاميرا، وأحكم قبضته على السلاسل التي تقيده وهو يهدر كالعاصفة:

- ندم؟؟ هل هناك تعويض لما اقترفه البشر من كبائر؟ لقد أخطأنا

حتى هربت الوحوش خوفًا من جبروتنا، وبكى الحجر كمدًا من قسوة قلوبنا. لقد أخطأنا يا آنستي حتى أخجلنا الشياطين وضحكت من عبثنا التناقضات.

صمتَ لحظةً ليسترد أنفاسه.

- نحن نصطاد الأفيال، نأخذ عاجها، نصنع منه مفاتيح البيانو لنعزف عليها ونغني عن الغدر والوحشية. نقطع الأشجار، نصنع منها أقلامًا ودفاتر، لنكتب عليها إنجازاتنا، ونَصِف فوق صفحاتها كم نحن عظامٌ ومتحضِّرون. أحرقنا الغابات وكسونا السماء رمادًا حتى أصبحنا نطارد الثلوج وهي تتلاشى أمامنا عامًا بعد الآخر، نقترب منها خطوة لتبتعد عنا أميالًا. إن الجرم الأكبر في هذا العالم القاسي أيتها الفنانة الرقيقة هو أن نأتي بأطفال إليه.

لمحت في الشاشات التي تعرض ما يحدث في أنحاء العالم، فقد عادت اللافتات لترتفع، وعاد الغضب ليكسو الوجود وقد لاقى ما قاله المايسترو استحسانًا. نظرت إلى سليم عبر الزجاج لأجده مشدوهًا كمن ضربته صاعقة.

حدقت في عينيه الهائمتين في الفراغ وسألته في ذهني: مستر جراي، أين أنت؟

سليم

كنت في مكان آخر، كنت على الحافة... بين عالمين.

لم أكن محطمًا كما يظنون، فاجأني اللعين باعترافه بقتل أخي، رَجَّني رَجًّا حتى النخاع، لكنني لن أسمح له أن يسحقني مرتين.

- لأن هذه هي ضريبة الحرية.

هكذا قلت دون أن أرفع رأسي، بعد أن نجحت بمعجزة ما أن أعود من العالم الذي اختبأت فيه. فبادرني المايسترو باستهزاء:

- حرية؟ أن نسفك الدماء ونفسد في الأرض... حرية؟ نقتل الملايين ثم نبكيهم... حرية؟

تذكرت ما أجبت به ساكن الكوخ، في ذلك العالم المستتر الذي ينفتح بابه لدقائق قليلة كل يوم، بعد أن تنتهي الأربع والعشرين ساعة... العالم الذي رأيته بعقلي وبصيرتي. حين سألني: "أتريد الدخول خلف الستار؟ أم العودة للاختبار؟ أتريد العدم أم... الفرصة". تذكرت حين أجبته: "الفرصة".

عدت إلى اللحظة ورفعت عيني لأحدق بالمايسترو بيقين متجدد، وأقول:

- الحرية هي أن تُخطئ وتصيب، أن تنهض بعد الهزيمة أو تظل منبطحًا حتى مماتك، حرية الاختيار هي أن تحارب أو تهرب. لولا الإرادة الحرة لما قرر أحدهم أن يخترع علاجًا أو أن يساعد إنسانًا، لولاها لما بنينا مدنًا ونَظَمْنا موسيقى. لكنها أيضًا سبب كل الشرور، أن

يأخذ الإنسان ما ليس له وبكل الطرق، أن نستخدم الوجه القبيح لكل ما اخترعناه لمساعدة البشر. الحرية هي أن نختار أيها العازف، يا من قرر نيابة عن الآلاف والملايين، ولو لم يكن هناك خطأ وخطيئة، لما كان هناك صواب وغفران.

سكتّ للحظة لتتبارز نظراتنا، ويصدَى صليل سجالها في عالم ما وراء الستار.

- لولا الحرية لما جئت أنت إلى هذه الدنيا، ففي لحظة ما قرر أبواك إعطاءك هذه الحياة التي قررت أنت أن تحرم الناس منها. لو كنت تريد عالَمـًا بلا آلام لصار بلا نعيم، فهما وجهان لعملة واحدة: الحرية. دفتر به صفحة بيضاء ناصعة وأخرى سوداء كالليل، ولك مطلق الحرية أن تختار الكتابة على أيهما.

ثم نهضت بغتة، خرجت ذاهبًا إلى الغرفة التي يراقبون منها اللقاء من خلف الزجاج. توجهت مباشرةً إلى عايدة ومددت يدي إلى دفتر ناعوت.

- بتعمل إيه؟ إنت على الهوا!

هكذا هدر اللواء الشناوي، لكن المشدّ أشار له أن يدعني أفعل ما أريد، فلا يمكن أن أجعل الموقف يسوء أكثر من هذا. مدَّت عايدة يدها بالدفتر إليَّ وهمست من بين دموعها:

- أشكرك.

- مش هعرف أعملها لوحدي يا عايدة.

قلتها ثم التقطت الدفتر ونظرت في عينيها منتظرًا الإشارة. وما إن هزت رأسها ببطء مؤكدة هُرعت عائدًا إلى غرفة الاستجواب. وجدت المايسترو شاردًا في الطاولة. جلست مكاني ورفعت الدفتر ليكون واضحًا للكاميرا.

- هذا هو، الأشهر على الإطلاق، الدفتر الذي يأبى أن يكتب فيه أحد سوى جليسي هذا. الدفتر الذي يختار الكلمات التي تُكتب فوق صفحاته، فقط التي تستحق الذكر. لا أدري كيف جاء إلينا ولا من أهدانا إياه، لكن هذا الدفتر هو رمز لحياتنا، التناقض المثالي الذي تسير عليه الدنيا.

تصفحت الدفتر، صفحاته المتباينة تمر بسرعة أمامي، بيضاء ثم سوداء، يمتزج اللونان فيصيران بدرجات الرمادي. رمقت المايسترو لأجده للمرَّة الأولى مترقِّبًا، يتابعني وقد صارت ثقته فضولًا. وهذا جعلني أشعر أنه لم يتوقع أن نصل إلى هذه النقطة، وبكل ثقة أضفت:

- وأنا... سأكتب فيه الآن.

فتحت على صفحة بعينها، ورقة بيضاء مُصفرَّة مكتوب عليها بخط يده، وقلت:

- منذ عامين، كتب لنا العازف...

يأتيك القدر ببشرى أن موعدك بعد حين

بعد لحظة.. بعد يومٍ.. أو بضع سنين

لكني سأرحمك من الحيرة.. من جحيم الاختيار

سآخذ بيدك إلى الجنة.. وأذهب بنفسي إلى النار

لقد اختار أن يكتب بقلم أسود على صفحة بيضاء، اختار أن يلطخها بكلمات قاتلة للآدمية، قاتلة للأمل. والآن جاء دور صاحبة هذا الدفتر، لعلها تنقذ شيئًا مما تبقى...

أخرجت قلم عيسى الأبيض من جيب سترتي، وضعته على الورقة السوداء وأدرت الدفتر لتنقل الكاميرا ما سأكتبه... وانتظرت.

سمعت ضوضاء خفيفة تخرج من السماعات، يليها صمت قصير، ثم خرج صوت عايدة، متهدِّجًا، جريحًا.

- يا من تـــرى المرض عيبًا

والضعـــف مـــدعاة للرحـــيل

يا من تـــرى الأصـــل عدمًا

وتـــرى الكـــون ليـــل طويل

لولا البعـــــد ما كان شـــوقٌ

وما شـــق الصـــخرَ الدموعُ

إن الألـــــم نبـــراسًا وآيـــة

ولولا الليـــل ما كان السـطوعُ

نظرت في زهو لكلمات عايدة التي قَبِل بها دفتر ناعوت. وضعت

الدفتر بعدها على الطاولة، بيني وبين المايسترو، ورمقته بنظرة تقول "إنه دورك". حدق بي للحظات، شعرت فيها أن العالم كله قد كتم أنفاسه وهو يشاهد المايسترو يفكر في خطوته التالية.

بكل هدوء – رغم إحساسي بحنق مختبئ خلف ثقته الظاهرية – نظر لما كتبت، ثم وضع ساقًا فوق الأخرى، وقال:

- لقد جئت متأخرًا يا مستر جراي، فالناس قد اكتفت من الأكاذيب.

وبنفس الهدوء، وضعت ساقًا فوق الأخرى لأقلده ثم نظرت للشاشة المعلقة، لأرى الحشود قد أخفضت اللافتات والتفتوا لبعضهم يتحاورون. نقاش دائر يعني اختلاف الآراء، يعني أن هناك من يتساءل ويسعى للحقيقة.

يعني أنني نجحت في التسلل إلى عقولهم.

المعركة قائمة هناك إذن... في رؤوسهم.

- الناس لا تريد الموت أيها المايسترو. لو خيّرتهم بين العدم ومجرد احتمال السعادة سيختارون الثانية. أنا معك، لو سألتهم الآن إن كانوا يريدون إنهاء حياتهم بلا عواقب ولا ألم، لصرخوا وقالوا نعم. لكننا حقًا لا نريد أن نموت، رغم الوجع واليأس، رغم الإحباط والخوف. فقط أعطنا أملًا في غدٍ أجمل وسنتعلق به كالأطفال، سننسى كل الإساءة التي عاملتنا بها الدنيا و... نبتسم.

أنهيت كلامي بابتسامة عريضة، وقلت:

- الغيب هو أكبر النعم دون أن ندري. فلو نظرت خلف الستار، لو

اطّلعت على الغيب، ورأيت نتيجة محاولتك لما فعلتها، سواء أكانت ناجحة أم فاشلة. وكيف تفعل شيئًا تعلم مسبقًا أنك ستنجح أو ستفشل فيه.

... الغيب هو مهد الأمل وكلمة "ربما" هي ما تجعلنا نسير.

انحنى عليّ وقال من بين أسنانه:

- أنتم لا تستحقون تلك الحرية التي تغنيت بها، أنتم كما قلت: مثل الأطفال، تنسون مثلهم وتحلمون مثلهم. أنا أعلم هذا، ولهذا فقد اخترت لكم بالفعل. ما هو قادم يا مستر جراي لا يستطيع شيء أن يوقفه. لا عقلك ولا قلب عايدة ناعوت ولا شجاعة حازم وهبة. وحين يصير العالم حطامًا، عندما ترونه يحترق حتى تُمطر السماء رمادًا كما كان شقيقك يتمنى... حينها... ستشكرونني.

اعتدل بعدها وفرد ظهره، ثم نظر إلى الشاشة التي يعرض نصفها الأيمن الأحداث العالمية، والأيسر يبث لقطة حية لمحتوى الخزانة والصندوق الذي يحتوي على المصل...

بينما تظهر يدٌ لا نرى صاحبها.. جاء من خلف الكاميرا... وتمسك بالصندوق.

حازم

كنت أعلم أن غضبي سيكون السبب في نهايتي، لكنني لم أتخيل أن يكون حرفيًا.

كالذئب الجائع، تقدم عوني ليدور حول البئر الممتلئ بالرمال الناعمة والذي أندفن فيه حيًا بسبب وزني وغضبي، وقال:

- وجودك حواليّا كان دايمًا مخليني نمرة اتنين، يمكن كمان نمرة تلاتة بعد منعم الكاشف. كَرَّهتني في عيشتي وفي شغلي.

حاولت التشبث بسطح الرمال الناعمة، حاولت الركل والسباحة لأطفو فوقه، جدّفت بيدي وحاولت القفز، محاولات باءت كلها بالفشل. لا أنفكُّ أزيح بعض الرمال حتى ينهمر أضعافه فوقي، أصعد سنتيمترًا لأهبط بعدها عشرة. كلما زاد غضبي وعنفي اقتربت نهايتي.

توقفت لألتقط أنفاسي بعد أن بلغت الرمال رقبتي، فثني عوني ركبتيه لينحني ويقول:

- وهبة، وحش الداخلية، بيموت قصادي في شوية رمل. مش بقولك المايسترو ده عبقري. سليم بتاعك ده ولا حاجة قصاده. ولو قال إنه هيخلي العالم كله يجيله على إيديه ورجليه... هيقدر.

- المايسترو مش هيخلي فيه عالم. اللي في الخزنة ده هو الأمل الوحيد. طلعني قبل الناس ما تموت يا عوني... وأنت أولهم.

- أنا أخدت المصل يا زميلي، ولّا أنت فاكر إن المايسترو هيسيب

أهم رجالته يموت.

كنت على وشك أن أخبره بمدى سذاجة ما يقول، لكني لمحت حول رقبته سلسلة بها كارت مشابه لذلك الذي انترعته من رقبة الغاياتي، لكن باللون الأحمر. إن سليم عبقري هو الآخر، لقد كان محقًّا، لقد أعطى المايسترو لكلٍّ من مساعديه الأساسيين أحد مفتاحَي الخزانة. وفيما يبدو أن عوني قد لمح المفتاح الإلكتروني الأخضر في رقبتي هو الآخر، إذ قال:

- خد وقتك خالص. هستنى لغاية ما تتطلع روحك وآخده منك. تخيل القوة اللي هتبقى في إيدي وأنا معايا الشيء الوحيد اللي ممكن ينقذ البشر. هبقى ملك فوق الملوك. المايسترو نفسه هيبقى ولا حاجة قصادي.

نهض بعدها تاركًا إياي أجاهد لإبقاء رأسي فوق سطح الرمال، لكن رغم بقائي ثابتًا فلم تكن كتلتي الهائلة لتبقى عالقة. ها هو ذا فمي يختفي تحت الرمال، أرفع ذراعي وأسند بها وقد عاد إليّ غضبي. أتذكر من مات بسبب هذا اللعين، ومن سيموت في خلال ساعات وأيام بسبب الفيروس الذي نشره أتباعه، فيزداد هياجي ويزداد معه الأمر سوءًا.

- أكتر. اتنرفز أكتر. اضرب بإيدك ورجلك وطلع كل غضبك، خلينا نخلص.

قالها عوني هازئًا بعد أن عاد ليجلس على الكرسي بجوار باب الخزانة.

وها هو ذا أنفي ينزل تحت الرمال.

ثم عيناي.

بحثت عن أي شيء يعيد إليَّ هدوئي، أية ذكرى تطفئ النيران دائمة الاشتعال في صدري، والتي ضاعفها خطورة الموقف ووجه عوني الكريه وكراهيتي للمايسترو.. بحثت في حياتي كلها... ولم أجد سواها...

عايدة، تبقَّى لي دقائق قليلة على وجه هذه الأرض، وسأجعلها لكِ.

أغمضت عينيَّ وتوقفت عن الحركة تمامًا. انتظمت أنفاسي، وارتخت قبضتي الممسكة بالسيف... وتذكرت وجهها.

وجاء السواد ليغطي كل شيء...

لا أدرى كيف شعرت بها، لكن في اللحظة التي أحسست فيها بيد تجذب السلسلة لتنتزعها من حول رقبتي، حتى عادت كل أجهزة جسدي للعمل مرة واحدة، كأن هناك من ضغط زر التشغيل ورفع الطاقة إلى القصوى. كان متعجلًا، كان أرعنَ ولم ينتظر حتى يتأكد من موتي.

لم تستمر اللحظة طويلًا، لم يكن هناك صراع بالأيدي ولا بالأسلحة، فقد أمسكت بذراع عوني وجذبته معي للقاع. لحظة لم تستمر طويلًا، لأن وزني كان ضعفَيْ وزنه، ولأن رأسه هو أول شيء اندفن تحت الرمال. حاول المقاومة، حاول انتزاع سلاحه، حاول الصعود فوقي، لكن النهاية كانت حتمية. أخذت المفتاح الإلكتروني من حول

رقبته بعد أن خمدت حركته وسكنت أنفاسه، وامتلأ صدره بالرمال، ثم صعدت فوق جثته.

هذه لك يا منعم.

وقفت أمام الخزانة، ألتقط أنفاسي وأنفض الرمال، ثم مددت يدي بالكارت الأحمر لأضعه في الفتحة المخصصة له، وفعلت الشيء نفسه بالأخضر. انتظرت حتى صدرت "تَكَّة" مميزة، وأمسكت بالمقبض لأفتحه. وما إن فعلت حتى أخرجت المفتاحين، ودخلت لأرى الكاميرا الرابضة التي تبث صورة حية عبر قناة المايسترو.

أمامها يربض الصندوق الذي يحتوي على الخلاص.

اقتربت منه متجاهلًا الكاميرا المنتصبة مثل مخلوق فضائي جاء من كوكبه ليراقب هذه اللحظة الفارقة في تاريخ البشرية. هناك لوحة أرقام وشاشة صغيرة عليها أربع خانات تنتظر أن أملأها بالأرقام.

أطرقت مفكرًا للحظة قبل أن أرمق الكاميرا بنظرة خاطفة، أنظر خلالها لسليم لقمان، قبل أن أعود لأحدق بلوحة الأرقام. تُرى... هل من الممكن؟

لقد كان ينوي القضاء على العالم، ولهذا فالرقم 2020 يعني له الكثير.

ضغطت الأرقام السالفة لأسمع "تكة" أخرى...

أخذت نَفَسًا عميقًا وفتحت الصندوق، وما إن فعلت حتى سمعت

هسيسًا خافتًا وشممت رائحةً شبيهة بالكلور تقتحم صدري. وحين انفتح الغطاء لينكشف البخاخ لي – الشيء الوحيد الذي وجدته بالداخل – التفتّ إلى الكاميرا كالملسوع.

لم يكن هذا مصلًا بكل تأكيد.

نظرت إلى باب الخزانة، ثم إلى الكاميرا مرةً أخرى، وأنا أتذكر سؤال سليم المنطقي المرعب: إن المايسترو يريد أن يقتل الجميع، أن يريح البشرية كلها من "العذاب"، هل سيجازف بوجود مصل للفيروس القاتل، هل سيجازف بوجود شيء يعكر سيمفونيته الكبرى؟

لو لم تجد المصل يا حازم، تعلم ما يجب عليك أن تفعله.

نعم.. أعرف...

بخطوات ثابتة ذهبت إلى باب الخزانة، وأغلقتها.

اتجهت بعدها إلى الكاميرا، خطواتي ثقيلة، تصدِي وحيدة، وقفت أمامها وتكلمت...

عايـدة

إذن هذا هو الثمن للنجاة من الكابوس الذي صحونا يومًا لنجد أنفسنا فيه، الكابوس الذي صنعته عقولنا القاسية، الوحش الخرافي الذي خلقناه بأنفسنا. ليس أقل من التضحية بالنفس ثمنًا لفرصة أخرى.

مصدومة، غير قادرة على تحريك عضلة، نظرت إلى الشاشة التي أطل منها وجه حازم، أدقق النظر في كل تفاصيله. لم يمنعني أحد، حتى اللواء الشناوي لم يستطع سوى أن يُظهر جانبه الرحيم ويتركني أقترب من الشاشة، لأستمع لما يقوله آخر من بقي لي على وجه هذه الدنيا.

رفع حازم يديه بالكارتين الأحمر والأخضر، وكسرهما، لأشهق مذعورة، قبل أن يستطرد:

- سليم لقمان كان عنده حق، اللي دخل في جسمي أكيد مش المصل، المايسترو مستحيل يرتكب الغلطة دي وكان مخطط لده كله من الأول. أنا الوحيد اللي أقدر أستحمل سالوس 20، الڤيروس الأقوى، أنا المريض صفر اللي هيكون السبب في إنهاء العالم. أنا اللي قوتي... لعنتي.

يبتسم ويُطرق مهمومًا فسالت دمعة على وجهي دون أن أشعر، غير مصدقة ما أسمعه. رفع عينيه لينظر إليَّ عبر الكاميرا، كأنه شعر بي:

- سامحيني يا عايدة، كان نفسي أكون معاكي للنهاية. اقبلوا اعتذاري كلكم. كنت ضعيف، عملت أخطاء كتير. قسيت على ناس، وخسرت ناس، قسيت على نفسي، وخسرت نفسي. لكن الأخطاء دي هي اللي خليتني أقوم بالاختيار ده النهارده.

سكت لحظة ثم رفع الكاميرا، ينظر إلينا من خلالها مرة أخيرة، وقال:

-ودي علشانك يا أمي.

ثم طرحها أرضاً لتتهشم و... ينقطع الإرسال.

***

تسمرت بدون حراك لمدة لا أعرف طولها.

حولي احتبست أنفاس الجميع وهم يحدقون بالشاشة السوداء. لم أشعر بنهلة وهي تضمني إليها وتحتضنني بكل دفء. لم أشعر بها وهي تخرج بي من الغرفة لتصطدم عيناي بوجه أكثر المخلوقات شرًّا.

- لسه مش كفاية؟

سألني وهم يُدخلونه في المصعد مكبلًا بالأصفاد. انتزعت نفسي من ذراعَيْ نهلة وصحت في وجهه، بيقين أقوى مما كنت عليه طوال حياتي:

- إنت اللي لسه مفهمتش! مش قادر تعرف إن اللي عملته ده هيخلينا نتمسك بالحياة أكتر، هنخاف عليها أكتر. وعلشان كدة إنت

خسران يا مايسترو، خسران لأن الطريقة الوحيدة اللي تخلي الناس تتنازل عن الحياة دي هي إنك تخليها بلا قيمة. بتقول إننا منستهلش الحرية؟ قول الكلام ده لحازم وهبة. كل ما هتئذي ناس أكتر وتنشر شر وخوف أكتر، كل ما هتثبت عكس اللي عايز تقوله.

هتخلق ألف حازم وهبة.

أخذت خطوة أخرى ناحيته بكل جرأة حتى أن نهلة أمسكت بذراعي لتحميني منه، وأردَفْت:

- إنت عارف إيه اللي مخليني متأكدة إن فيه عدل في الآخر، إنهم لو هيعدموك هتموت مرة واحدة بس. وساعتها هتبقى لمين ولا لمين؟ لرجب وعياله ولا منعم ولا تيسير ولا الآلاف اللي انت نهيت حياتهم بكل شر وغرور؟ لا يا مايسترو... كل واحد منهم هياخد حقه منك. وهتموت ألف مرة.

استدرت لأتركه يحدق بي، بينما ينغلق عليه باب المصعد، وسرت عبر ممرات المديرية، فيما يتابعني الجميع في حيرة، يتابعون صاحبة أكبر خسارة أمام عازف الأقدار وهي تسير مرفوعة الرأس.

مدركة تمامًا ما يجب أن تفعله.

***

يقولون إنه انتصر.

يقولون إن العالم سينتهي وإنه لا وجود لعلاج لفيروس سالوس. أسابيع قليلة وينهار كل شيء. رغم أن سالوس 20 – السلالة الأكثر

خطورةً من الفيروس - قد ضحى حازم بنفسه كي يحتويه ويموت معه، لكنهم يتوقعون أن أعداد ضحايا سالوس 19 ستتعدى حاجز المليار خلال شهور قليلة لو لم نصل لعلاج. والرجل الذي تسبب في كل هذا يجلس في زنزانته في هدوء وسكينة، ينتظر تنفيذ حكم للإعدام بابتسامة تجعل الجميع يشكون في كل شيء.

فيما يأتي مطلب سليم لقمان ليفجر القضية لأبعاد جديدة، المطلب الذي تسبب في أن زُجَّ به في بيت منعزل على جبل المقطم، منفى سري للنقاهة مخصص للأفراد ذوي الأهمية الأمنية القصوى. وهذا بعد أن صرخ في وجوههم ألَّا يقتلوا المايسترو.

ظن بعضهم أن مستر جراي قد فقد عقله أخيرًا، خصوصًا بعد كلامه عن عوالم أخرى لا تدركها عقولنا. بينما رأى البعض الآخر أن ذهن سليم لقمان قد انفتحت فيه مدارك لم يكن من المقدر لبشري أن يصل إليها. تحول بعدها إلى تمثال صامت لا يتفاعل مع شيء، يتلاشى بالتدريج أمام أعينهم حتى صار كمن يمشي على الهواء، لا أثر له ولا ظِلّ.

وهكذا انهدمت آخر القلاع وصرت وحيدة.

عيسى.. حازم.. سليم.. نهلة.. منعم.. تيسير.. رجب، لقد كسرهم جميعًا. وشارفت المعركة على الانتهاء، سيمفونية عازف الأقدار التي عزف آخر نغمة فيها بقوة ستجعلها تصدي وحدها لقرون.

لهذا قررت أن الحل الوحيد كي لا أتلاشى أنا الأخرى، ويبتعلني بئر الأحزان، هو أن أكمل بنفسي السيمفونية، لكن بنغماتي أنا، بكلماتي

أنا، بإرادتي أنا. فأنا لم أنكسر، بل زادتني قسوته قوة، زادتني الخسارة تمسكًا بالحياة، لن أسمح أن يرحلوا جميعًا بلا أثر. سأكون أنا من يعدل الكفة.

حتى بعد أن فشل حازم وسليم في العثور على المصل، وبدأ العالم ينهار من حولي، حتى بعد أن ذبلت نهلة، وصار الرمادي أكثر الألوان شهرة، حتى لو كانت النهاية قادمة لا محالة، فسأرسم البسمة على وجوهنا حين يأتي وقت الرحيل.

سأكون صوت من لا يستطيع الكلام، ذراع من يعجز عن السلام، صَدَفَة تحمي بداخلها قلوبًا غير منيعة. لن أدع رسالتك تُنسى برحيلك يا عيسى، سأعرضها للعالم ليرى الجميع وجوهًا شوهها المرض... وقد صارت بديعة.

***

في اليوم التالي مباشرةً عدت إلى جمعية ترياق.. عدت مكتملة.. محددة الهدف. قررت إقامة معرضٍ بعدها بأيام للوحات عيسى وأعمال أصحابه من فرسان الإرادة، وانفصلت عن كل شيء. لم أتابع أعداد الوفيات ولا انتشار الفوضى وحالة الاستنفار والطوارئ التي فرضتها حكومات العالم. بحثوا عن ذلك الذي يُسمى عازر، لكنه تبخر كأنه ذهب لكوكب آخر.

بعد إلحاح مني، جاءت نهلة يوم افتتاح المعرض. طافت بلا ظل بين اللوحات والأعمال الفنية، ثم توقفت أمام تلك التي رسمها عيسى لشاطئ البحر الهائج تحت السماء الرمادية العاصفة. لا

تزال تتعافى مما فعله بها المايسترو. تلألأت الدموع في عينيها المنتفختين وهي تتأمل مشهد نهاية العالم الذي يعانق فيه كل محب حبيبه، بينما يحتضن سليم...

تمثالًا من الثلج...

- إحنا خسرنا كتير قوي يا عايدة.

قالتها وخرجت منكسرة، الجنرال الحربي قاهر الجبال، هربت قبل أن ينفتح جرحها. رغم نجاح المعرض، لكن نهلة ذهبت وتركت وراءها خواءً كبيرًا.

شعرت بحاجة إلى مشاركته ما أفعل، إلى عقل مستر جراي، رفيق الرحلة الدامية. ذهبت إليه، لكني لم أجده. وجدت رجلًا هائمًا، شاردًا، يقف فجأة لينصت بإمعان، يقطِّب حاجبيه متألمًا، كأن ما يسمعه ينحر في صدره، قبل أن يجلس مرةً أخرى وينكمش في ألم وخوف.

انفطر قلبي وأنا أراه بهذه الحالة.

- سليم. بتعمل إيه هنا؟ ليه مش عايزهم يطلّعوك؟

هكذا سألته وأنا أجلس بجواره في الحديقة. يغمض عينيه ويجيبني:

- كتير يا عايدة، اللي حاسس به كتير، آلام جاية من كل حتة. الدنيا كلها بتصرخ في ودني أنا.

ثم فتح عينيه لينظر إليَّ، يبكي بلا دموع.

- وبالرغم من كدة، مش قادر أبكي يا عايدة، كل ده... ومش قادر أبكي.

ابتسم بحنان حين رأى الحيرة والقلق على وجهي، وهز رأسه بتحية وَقُور:

- متقلقيش، هطلع من هنا، بس لما يستخدم الكارت الأخير.

تجمد الدم في عروقي وبحلقت في وجهه غير مصدقة.

- المايسترو هيتعدم الشهر اللي جاي يا سليم. كارت إيه؟

زادت ابتسامته عرضًا، وشخَص بعيدًا. لكني صحت فيه:

- رُدّ عليّا! كارت إيه؟

أخذ نَفَسًا عميقًا وقال:

- هو عايز يتعدم يا عايدة.

- سليم، أنا تعبت، مش فاهمة. متخوفنيش. كفاية اللي شوفناه من المجنون ده! هيعمل إيه تاني؟

شَخَصَ ببصره بعيدًا، لما وراء بوابة المستشفى، وقال:

- المايسترو خسر الملايين اللي بيتابعوه يا عايدة.

- بس نجح إنه ينشر سالوس.

التفت إليّ وابتسم:

- حتى دي كمان هيخسرها.

- إزاي؟

- كل شيء موجود بسبب نقيضه. والمرض هيخلق المناعة. وأنا أراهن على التوازن ده. هيبقى فيه وفيات، ده صحيح، وبالملايين، بس في النهاية الجسم البشري هو اللي هيتغلب على سالوس.

انشرح صدري للحظة من هذا الكلام الذي يدعو للتفاؤل، ثم تذكرت ما قاله قبلها.

- طب إيه هو كارته الأخير؟

شرد بعيدًا مرة أخرى، وحك شاربه الرفيع بأسنانه السفلية وهو يقول:

- هتعرفي يا عايدة، هتعرفي في اليوم اللي هيتعدم فيه. وأرجوكي.. اليوم ده متطلعيش من البيت.

***

فعلت عكس ما طلب بالطبع، ليس فقط بسبب الفضول الذي أثارته كلماته، لكن كان لا بد أن أفهم. ما الذي يمكنه أن يحدث بعد أن انسدل الستار وانتهت الأدوار؟ ما الذي يمكنه أن يحدث بعد أن مات كل أبطال المسرحية وانحبس من بقي خلف جدران السجون؟

ما الذي يفعله مستر جراي وعازف الأقدار تحت الرادار، بعيدًا عن إدراك الجميع؟

متى ينتهي هذا الجنون؟

وكما تنبأ سليم، تغلبت المناعة على الفيروس. ذهبت كل خطط عازف الأقدار في مهب الريح. لم يقتل المايسترو الجميع، بالعكس، جعلنا أقوى مما كنا.

ثم جاء اليوم المنشود. خبر صغير في ركن الشاشة يقول: "اليوم تنفيذ حكم إعدام المايسترو بالسجون المصرية.. المتسبب الرئيسي في انتشار فيروس سالوس ونشر اليأس والفوضى". خبر تضاءل أمام قوائم أعداد المتوفين، وتغطية الإعلام لمناطق الفوضى وأحداث الشغب التي ملأت العالم.

يومها، التقطتُّ دفتر ناعوت وذهبت لمستر جراي. رأيت سليم يخرج من المشفى، نفس البدلة الكتان الرمادية الواسعة، نفس النظرة الشاردة في شيء ما، نفس التركيز، كأنه يستمع لنداء خافت ما. مشيت وراءه فرأيته يتتبع هذا النداء الذي لا يسمعه غيره، يقف كل برهة لينصت، ينظر حوله كالمجذوب، ثم يمد الخُطَا.

تتبعته بسيارتي من بعيد لما يزيد على الساعة، قبل أن يتوقف أمام سيارة فيات بيضاء متروكة ومهملة في شارع فرعي، مصباحها الخلفي مكسور، التراب والأوساخ تغطيها. تسمر أمامها للحظات، ثم مد يده ليتحسس زجاجها الذي يغطيه الغبار، ملامحه تعتصر ألمًا. قبل أن يعاود السير مرةً أخرى.

ترجلت من سيارتي لأهرع إليه لكن يدًا أمسكت بذراعي. التفتُّ فوجدت حِجّي يهز لي رأسه كي أترك سليم، فما تبقى من الطريق يجب أن يعبره وحيدًا. نزعت ذراعي من يده، وسألته في حنق عن

السبب.

- لو الجماد بيختزن المشاعر يا عايدة، لو بيطلعها على حسب قوة أحاسيس الناس اللي كانوا مصدر المشاعر دي، إنتي متخيلة اللي ممكن يحصل لو دخل المايسترو غرفة إعدام؟ نفس غرفة الإعدام اللي ساعدت في خلقه. متخيلة القوة اللي ممكن ياخدها منها؟

لم ينتظر حتى أستوعب ما قاله واستطرد:

- سيبي سليم يعمل نفس الشيء، سيبيه يستعد.

- يستعد؟ لإيه؟

- متخافيش، الحرب اللي بيستعد لها مش هنا.

التفتُّ لأجد سليم قد اختفى عن ناظريّ، فاستدرت لحجي.

- أنا مش فاهماك يا حِجِّي. ساعات بتساعدنا وساعات بتتفرج ولا كأنك بتشوف فيلم.

- أنا مش بساعد حد.

بحزم وتصميم سألته:

- لا حازم عارفك ولا اللوا المشدّ فاكرك ومفيش بني آدم واحد يعرف مين اللي نقلك عند منعم. أنت مين؟

- مجرد شاهد.

قالها بابتسامته العجيبة التي فشلت في تفسيرها، قبل أن يمد يده عبر نافذة سيارتي المفتوحة ليلتقط دفتر ناعوت. صحت به:

- بتعمل إيه؟

- باخذ الغُهْدة. مش فاهم انتم مستغربين ليه. دفتر ناعوت قام بدوره، فيه ناس تانية عايزاه.

قالها مبتسمًا ثم تركني معقودة اللسان دون أن يعطيني فرصة كي أعترض. ثم توقف، شرد للحظة، يفكر. استدار، وعاد إليّ. رفع الدفتر وفتحه ثم تصفح أوراقه بسرعة كما كان يفعل عيسى. راقبته مستغربة فأومأ برأسه لي كي أنظر لما يفعله قبل أن يفرّ صفحات الدفتر مرة أخرى.

نظرت للصفحات التي تعبر أمامي كفيلم سينمائي صامت، وبدلًا من الكلمات رأيت صورًا... مشاهد لم يكن مُقدَّرًا لي أن أراها لولا أن حِجّي أراد أن يبرد ناري بها.

رأيت المايسترو يدخل غرفة الإعدام، يتحسس خشب المنصة قبل أن يصعد عليها. رأيته يغلق عينيه. رأيتهم يضعون حبل المشنقة حول رقبته، ليستقبل أكبر عاصفة مشاعر مختزنة على وجه الأرض. ورأيته... يبتسم.

رأيتهم يفتحون القبو، ليجدوه خاويًا، بلا أثر لجثة حازم...

رأيت سليم لقمان في شقته، يمسك بمقبض باب الغرفة التي تحتوي على أقوى مصدر للأحاسيس له: غرفة سالم، يستمع لتلك الحركة بداخلها. وبعد سنوات من الخوف والحيرة.. يفتحها... ويدخل.

وفي آخر صفحة، رأيت لوحة عيسى التي رسمها لمستر جراي على شاطئ البحر، على صفحة بيضاء واضحة.

وفي الصفحة السوداء المقابلة، قرأت...

"سيأتي يومٌ يجري فيه القعيد..

ويصير الأعمي بصيرًا..

عانق من تحب ولو وسط الدمار..

فربما كان الأخيرَ".

بعدها، جاءت موجة كالجبل لتغمر الشاطئ، وبعد أن انحسرت...

... لم أجد أثرًا لمستر جراي.

فقد اختفى من اللوحة ومن... عالمنا.

ثم أغلق حِجّي دفتر ناعوت وأعطاني ابتسامة مقتضبة، ابتسامة كانت بها ملامح...

... أبي.

تمت بحمد الله

المؤلف في سطور

يحيى صفوت Yehia Safwat -

مهندس وروائي

الجانب الفني

روائي دولي والوحيد الذي له أعمال بالعربية والانجليزية من نوعية الخيال الملحمي والبارانورمال والغموض والتشويق.

- رواية "**دفتر ناعوت** (فانتازيا – غموض – فلسفي – بوليسي).
- رواية "**دفتر ناعوت**" – ربما" (فانتازيا – غموض – فلسفي – بوليسي).
- رواية "**ما أخفاه الرماد**" (غموض – تشويق – رعب نفسي).
- رواية "**The Dark Season Saga**" (خيال ملحمي مثل Lord of the Rings).
- رواية "**بَرُّ الضيف**" – "القَسَم" (فانتازيا – غموض – تشويق – رعب).
- رواية "**بَرُّ الضيف**" – "العودة" (فانتازيا – غموض – تشويق – رعب).
- رواية "**جنينة المحروقي**" (فانتازيا – غموض – تشويق – رعب).

• رواية "**بَرُّ الضيف**" – "الميراث" (فانتازيا – غموض – تشويق – رعب).

• العديد من القصص القصيرة والأشعار.

• سيناريست وGhostwriter

الجانب الرياضي

• سباح وعضو فريق الماسترز بنادي هيليوبوليس.

• حاصل على حزام أسود في رياضة الأيكيدو للدفاع عن النفس.

• لاعب تزحلق حر على الأمواج.

• لاعب تنس طاولة وألعاب قوى.

الجانب الهندسي

• مدير شركة Structobuild للمقاولات العامة ومتخصص في أنظمة التكييف المركزي وأحد رواد نظام التبريد بالإمتصاص Absorption Chillers.

facebook: https://www.facebook.com/yehya.h.safwat/t

Website: https://yehiasafwat.com/m

Email: yehyasafwat@yahoo.com